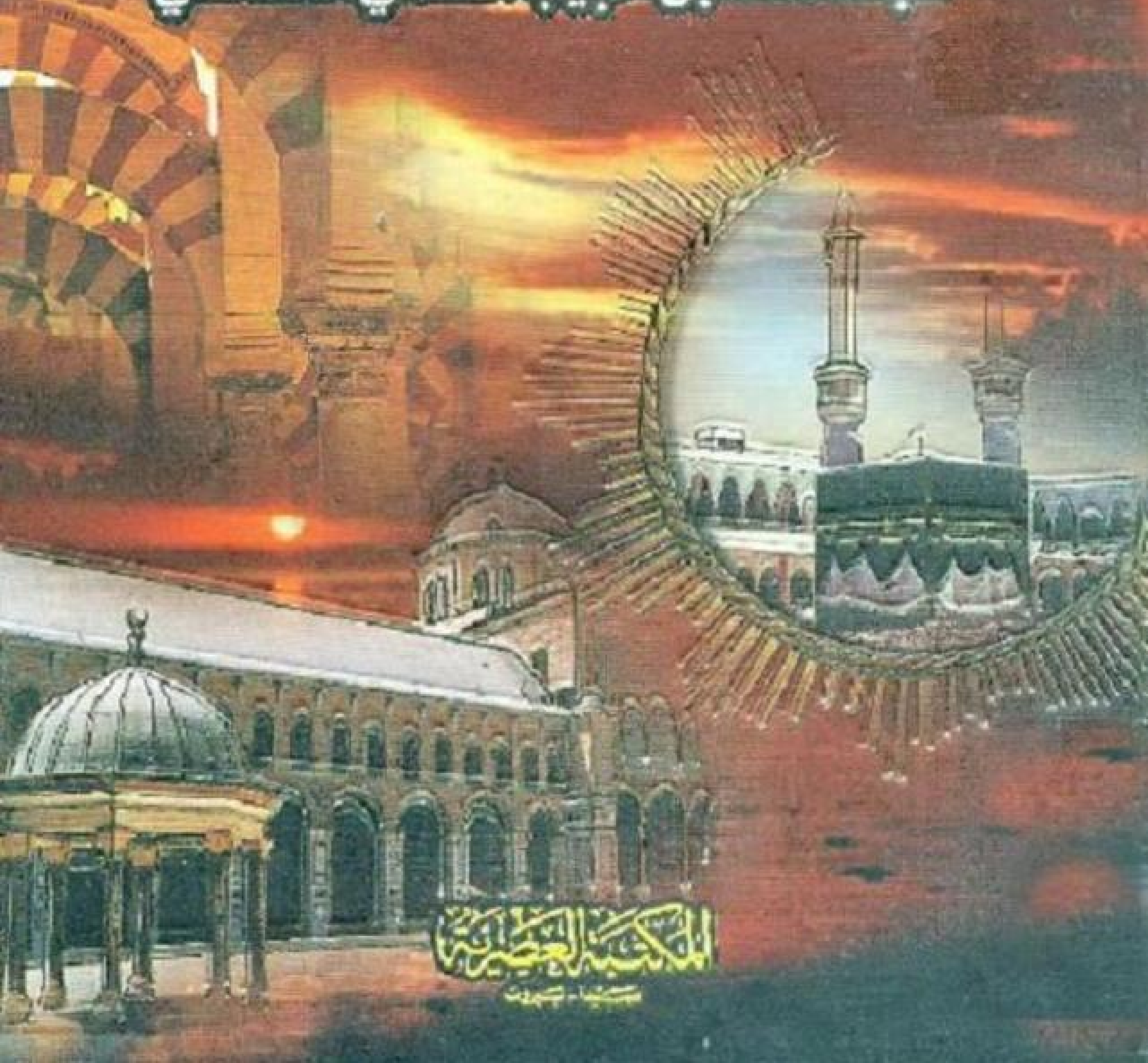
كتابُ التاريخ

تأليف

عبد الملك بن حبيب السُّلمي الأندلسي



المكتبة العصرية

كتاب التاريخ

تأليف

عبد الملك بن حبيب السلمي الأندلسي

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله، أدى الأمانة وبلغ الرسالة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، أصلي وأسلم وأبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد. . .

فهذا (كتاب التاريخ) لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (متوفى ٢٣٨هـ) وهو كتاب مختصر جداً في فن التاريخ من بداية الخلق مروراً بخلق آدم عليه السلام وقصص سائر الأنبياء، وسيرة النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ بني أمية، وصولاً إلى تاريخ المسلمين في الأندلس ويختم بأعلام الأمة من الصحابة والتابعين والفقهاء، وقد حاول مؤلفه إيجاز ذلك التاريخ الطويل في صفحات قليلة كي يستطيع القارئ بعد قراءته أن يحيط بأهم أحداث التاريخ.

ومن خلال الاعتناء بالكتاب حاولت أن أستدرك بعض الحوادث المهمة التي قد أغفلها المؤلف رحمه الله، بالإضافة إلى عزو الأحاديث إلى مصادرها وشرح غريب الكلام، وتقسيم عصور التاريخ.

ويحسن بنا في هذا الموضع أن نذكر كلام العلامة ابن خلدون الذي له دراسات رائدة في علم التاريخ. يقول ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان (فضل علم التاريخ):

اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين مِنَ الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكّبان به عن المزلّات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتُمِدَ فيها على مجرد

النقل، ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قِيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربّما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلّة القدم والحيد عن جادّة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمّة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مطِيّة الكذب ومطيّة الهذر، ولا بدّ من ردّها إلى الأصول وعرضها على القواعد.

وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني إسرائيل، وأنّ موسى عليه السلام أحصاهم في التّيه، بعد أن أجاز من يطيق حمل السّلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها فكانوا ستّمائة ألف ويزيدون.

ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش. لكل مملكة من الممالك حصّة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عمّا فوقها، تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة.

ثمّ إن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها، وبعدها إذا اصطفّت عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصنفين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر. والحاضر يشهد بذلك فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء.

ثم يذكر ابن خلدون أمثلة كثيرة على تلك المغالطات ويفندها، ثم يقول رحمه الله:

وأمثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة، وإنما يبعث على وضعها والحديث بها والانهماك في اللذات المحرمة، وهتك قناع المحرمات، ويتعللون بالتأسّي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذّاتهم، فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقّرون عنها عند تصفّحهم لأوراق الدواوين. ولو ائتسوا بهم من غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة منهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يقول رحمه الله:

وقد كدنا أن نخرج عن غرض الكتاب بالإطناب في هذه المغالط، فقد زلّت

أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والآراء، وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر والغفلة عن القياس، وتلقوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا رويّة واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهياً مختلِطاً، وناظره مرتبكاً، وعُدّ من مناحي العامة.

فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السِّير والأخلاق والعوائد والنِّحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بَون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتّفِق منها والمختلِف، والقيام على أصول الدول والمِلَل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر. وحينئذٍ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإنْ وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً، وإلّا زيّفه واستغنى عنه.

وما استكبر القدماء علم التاريخ إلّا لذلك، حتى انتحله الطّبري والبخاري وابن إسْحَاق من قبلهما، وأمثالهم من علماء الأمّة وقد ذَهَلَ الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة، واستخفّ العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتّطفّل عليه، فاختلط المرعيّ بالهَمَل واللّباب بالقشر، والصّادق بالكاذب. وإلى الله عاقبة الأمور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد الغني محمد علي مستو
٢٥ شباط ٢٠٠٧
الموافق ٨ صفر ١٤٢٨هـ

ترجمة المصنف

رحمه الله

ـ **اسمه ونسبه:**

هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي العباسي الأندلسي القرطبي المالكي.

يكنى بأبي مروان.

ـ **نشأته ورحلاته:**

أصله من طليطلة، ومولده في إلبيرة وسكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس فتوفي فيها.

ـ **ثناء العلماء عليه:**

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:

فقيه على مذهب المدنيين مؤرخ نسّابة أديب لغوي نحوي عروضي شاعر مشارك في غيرها.

ـ **وفاته:**

توفي في الأندلس لأربع مضين من رمضان سنة ٢٣٨ للهجرة.

ـ **من تصانيفه:**

ـ غريب الحديث.

ـ حروب الإسلام.

ـ طبقات الفقهاء والتابعين.

ـ الواضحة في السنن والفقه وإعراب القرآن.

ـ كتاب التاريخ (وهو هذا الذي بين يدي القارئ الكريم).

من بدء الخلق
إلى عيسى عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

صلّى الله على سيّدنا محمّد

ابتداء مقادير الخير والشر

حدّثنا عبد الملك بن حبيب عن المقبريّ عن حيوة بن شريح عن أبي عبد الرحمٰن عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السّماوات والأرض بخمسين ألف سنة»(١).

وحدّثنا عن أسد عن نصر بن طريف عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال: أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى من شيء القلم(٢)، قال: «اكتبْ». قال: «وما

(١) رواه مسلم بنحوه في كتاب (القدر) باب (كتب المقادير قبل الخلق) حديث رقم (٢٦٥٣).

(٢) اختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أم العرش؟ على قولين، ذكرهما أبو العلاء الهمداني أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء» فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم بحديث عبادة الذي أخرجه أبو داود (برقم ٤٧٠٠) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». ولا يخلو قوله: «أول ما خلق الله القلم...» إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة وهو الصحيح، كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب بنصب (أولَ) و(القلم) وإن كان جملتين وهو مروي برفع (أولُ) و(القلم) فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم فيتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له اكتب» فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿ن * والقلم وما يسطرون﴾ والقلم الثاني: قلم الوحي، وهو الذي يكتب وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكّام على العالَم، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها أمر العالم العلوي والسفلي. (شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي، ص ٢٦٥).

أكتب؟». قال: «اكتبْ القدر خيره وشرّه». فكتب الدنيا وما هو كائن فيها إلى يوم القيامة من خلق مخلوق أو عمل معمول من برّ أو فاجر أو رزق مقسوم من حلال أو حرام أو أثر موطوء في برّ أو بحر أو رطب أو يابس[(١)].

فالمقادير ربّما جرت بخلاف ما دبّرته الحكماء وقدّرته العلماء وربّما نال الجاهل في نفسه المخلط في تدبيره ما لا ينال الحازم الأديب العاقل اللّبيب.

وقد روى أهل الحديث عن بني إسرائيل أنّهم اختصموا في القدر خمس مائة عام. ثمّ ساروا إلى أعلم أهل زمانهم فقالوا: «صف لنا القدر وقَلِّله حتى نفهمه». فقال لهم: «أما رأيتم العاقل اللبيب الحازم الأديب يحرم حاجته وقد أحكم طلبها وتدبيرها، ويظفر الجاهل الأحمق بها وقد أساء تدبيرها، فهو القدر الّذي تضعضعت به أركان الخيلة وتقاصرت عنه صفات النطق وخضعت له رقاب العزّ وانقادت له عزائم الملك ولكن لا يحملك ما وصفت لك على أن تحمّل نفسك على التضييع والاتكال». فإنّ الحكماء قد أجمعوا أنّ من أخذ بالحزم وقدّم الحذر كما أمره اللّه والرسول ثمّ جاءته المقادير بخلاف ما دبّر وإنِ اتّفقت له الأمور على ما أراد و[دبّر][(٢)] أقلّ الأمور وأكثر السلامات مع من أتى [. . .][(١)] وقد يقع في الشرك ويصاد بالشبك من يعرفه [. . .][(١)] فه وربّما كان من يعرفه أسرع وقوعاً من الذي لا يعرفه ولكن لا بدّ من الحذر لأنه أقرب إلى السلامة وأبعد من الندم[(٣)].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٧).

(٢) بياض في الأصل.

(٣) جاء في حديث جابر عن رسول اللّه ﷺ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول اللّه بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما استقبل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»، وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: كنت خلف رسول اللّه ﷺ يوماً فقال: «يا غلام ألا أعلمك كلمات، احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللّه وإذا استعنت فاستعن باللّه واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف».

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات وهو الذي ذكر مع اللوح المحفوظ. =

قال الشاعر: [الطويل]

أَلا إِنَّ حِـذْرَ الـمَـرْءِ لَـيْـسَ بِـنَـافِـعٍ ... ولا دافـعٍ عـنـه إذا جَـاءَه الـقَـدَرْ
ولـكـنْ إذا مـا جَـاءَ أَلْـفَـاه حَـازِمـاً ... بـصـيـراً بِـمـا يَـأْتي عَـلـيـمـاً بـمـا يَـذَرْ
ولا بُـدَّ مِـنْ حِـذْرٍ عـلـى كُـلِّ حـالـةٍ ... وإِنْ كـان لا يُـغْـنِـي من الـقَـدَر الـحَـذَرْ

= القلم الثاني: حين خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.
القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.
القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد في الكتاب والسنة.
وإذا علم العبد أن كلاً من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى قال تعالى: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ (شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ص ٢٦٧).

باب ابتداء
خلق السّماوات والأرض

قال ابن عبّاس وغيره من العلماء: ابتدأ اللَّه الخلق يوم الأحد وفرغ منه كلّه يوم الجمعة فاشتقّ جميع ما خلق من عظمة وتصاريف قدرته كما قال في محكم تنزيله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يعني أنّ جميع ما خلق مبدؤه ومنشؤه منه(١).

وقد جاء عن عمر وغيره أنّ اللَّه لمّا أراد أنْ يخلق من خلقه ما خلق خلق الريح من روحه والماء من نوره وكان عرشه على الماء وكان الماء على الريح وكانت الريح في الهواء يمسكها اللَّه بقدرته. ثمّ خلق من الماء الأرض والسماء وجميع الأشياء.

وكان مبتدأ ذلك أنّ اللَّه عزّ وجلّ سلّط الريح على الماء، فنغّصت الماء وزعزعته ـ يعني حرّكته ـ حتّى عظمت أمواجه وكثر زبده وارتفع بخاره؛ فقال اللَّه عزّ وجلّ للزبد والموج والبخار: «اجْمُدْ». فجمد، فصار الزبد أرضاً وصار البخار سماءً، فبسط اللَّه تعالى الكعبة يميناً وشمالاً من كلّ موضع حتى بلغت إلى حيث علم أنْ يكون معموراً منها في الطول والعرض مسكوناً بولد آدم وكان هذا يوم الأحد ويوم الاثنين. ثمّ بارك فيها وقدّر فيها أقواتها وفجّر فيها أنهاراً وأنبت فيها أشجارها وخلق فيها خلقها من الأنعام والدوابّ والوحش والطير وحيتان الماء وجميع ما خلقه فيها وهو مسخّر لولد آدم قبل أنْ يخلق آدم في يومين يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، ثم استوى إلى السماء يوم الخميس وهي دخان يعني بخار الماء الّذي ارتفع فرفعها على الأرض مسيرة خمسمائة عام، ثمّ جعلها سبع سموات غلظ كلّ سماء خمسمائة عام وما بين كلّ سماءَيْن مقدار خمسمائة عام، وخلق لكلّ سماء ملائكةً؛ جعلهم سكّانها وعمّارها لعبادته وأمره، وخلق فيها الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار وذلك في يومين: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ

(١) راجع تاريخ الطبري (١/ ٤٣).

ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ولم تتكلّم الأرض كلّها؛ إنما تكلّم منها موضع واحد بالشام يسمّى بيسان[١] فهو لسان الأرض إلى يوم القيامة. ثمّ رجع اللّه عزّ وجلّ إلى الأرض يوم الجمعة بعد أن فرغ من خلق السّماوات.

فجميع ما خلق اللّه من خلقه الذي أسكنه أرضه وسماءه من ثلاثة أشياء: من التراب والماء والنور، فخلق الملائكة والشمس والقمر والجنّة وكلّ ما فيها وفي السّماوات من النور، وخلق كلّ ما دبّ على الأرض على أربع أو على رجلين من التراب؛ وخلق كلّ ما طار ودوابّ الماء وحيتانه من الماء. ففرغ اللّه عزّ وجلّ من جميع ما خلق يوم الجمعة فلذلك سمّي يوم الجمعة؛ لأنّ اللّه عزّ وجلّ جمع فيه خلق السّماوات والأرض وكان آخر ما خلق اللّه من خلقه آدم وزوجته. ولذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٢] [الأعراف: ٥٤] يعني الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وهي من الأيام التي قال اللّه عزّ وجلّ فيها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣] [الحج: ٤٧] ثمّ استوى على العرش يوم الجمعة حين فرغ بخلقه كلّه ثمّ أخذ يوم السبت في تحميده وتمجيده.

وسئل ابن عبّاس عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٤]

---

(١) بيسان: اسم مدينة تقع بين حوران وفلسطين.

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٧/١٤٠): ومعنى (في ستة أيام) أي من أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة لتفخيم خلق السموات والأرض، وقيل من أيام الدنيا، قال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة، وذكر هذه المدة ولو أراد خلقها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون. ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء، وهذا عند من يقول: خلق الملائكة قبل خلق السموات والأرض. وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً. وبين بهذا ترك معاجلة العصاة بالعقاب لأن لكل شيء عنده أجلا، وهذا كقوله: **﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون﴾** بعد أن قال: **﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا﴾**.

(٣) قال القرطبي في تفسيره (١٢/٥٢): قال الفراء: هذا وعيد (للمجرمين) بامتداد عذابهم في الآخرة، أي يوم من أيام عذابهم في الآخرة ألف سنة. وقيل: المعنى وإن يوماً في الخوف والشدة في الآخرة كألف سنة من سني الدنيا فيها خوف وشدة، وكذلك يوم النعيم قياساً.

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٣/١٨): وروي عن حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة ـ وهو عاصم بن أبي النجود ـ عن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال: بين كل سماءين مسيرة=

[البقرة: ٢٥٥] فقال: الكرسيّ موضع القدمين والعرش فوقه ولا يقدّر أحد قدره.

وقال وهب بن منبّه: الكرسيّ أربع قوائم كلّ قائمة منها مثل السّماوات

= خمسمائة عام وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين العرش مسيرة خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش يعلم ما أنتم فيه وعليه. ويقال كُرسي وكِرسي والجمع الكراسي. وقال ابن عباس: كرسيه علمه، ورجحه الطبري، قال: ومنه الكرّاسة التي تضم العلم، ومنه قيل للعلماء: الكراسيّ، لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض، قال الشاعر:

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسي بالأحداث حين تنوب

أي علماء بحوادث الأمور. وقيل كرسيه قدرته التي يمسك بها السموات والأرض كما تقول: اجعل لهذا الحائط كرسياً أي ما يعمده. وهذا قريب من قول ابن عباس في قوله: ﴿وسع كرسيه﴾. قال: علمه، وسائر الروايات عن ابن عباس وغيره تدل على أن المراد به الكرسي المشهور مع العرش. وروى إسرائيل عن السدي عن أبي مالك في قوله: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ قال: إن الصخرة التي عليها الأرض السابعة ومنتهى الأرض على أرجائها، عليها أربعة من الملائكة لكل واحد منهم أربعة وجوه، وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر، فهم قيام عليها قد أحاطوا بالأرضين والسموات ورؤوسهم تحت الكرسي، والكرسي تحت العرش، والله واضع كرسيه فوق العرش، قال البيهقي: في هذا إشارة إلى كرسيين: أحدهما تحت العرش والآخر موضوع على العرش. وفي رواية أسباط عن السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود عن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ فإن السموات والأرض في جوف الكرسي والكرسي بين يدي العرش. وأرباب الإلحاد يحملونها على عظم الملك وجلالة السلطان وينكرون وجود العرش والكرسي وليس بشيء، وأهل الحق يجيزونها إذ في قدرة الله متسع فيجب الإيمان بذلك، قال أبو موسى الأشعري: الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرجل. قال البيهقي: قد روينا أيضاً في هذا عن ابن عباس وذكرنا أن معناه فيما يرى أنه موضوع من العرش موضع القدمين من السرير وليس فيه إثبات المكان لله تعالى... قال ابن عطية في قول أبي موسى الكرسي موضع القدمين: يريد هو من عرش الرحمٰن كموضع القدمين من أسرة الملوك فهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبته إليه كنسبة الكرسي إلى سرير الملك. وقال الحسن بن أبي الحسن: الكرسي هو العرش نفسه وهذا ليس بمرضي. والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق بين يديه العرش والعرش أعظم منه. وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم، قال: «آية الكرسي» ثم قال: «يا أبا ذر ما السموات السبع مع العرش إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة» أخرجه الآجري وأبو حاتم البستي... اهـ.

والأرض وجميع الدنيا في الكرسيّ كمثل حبّة من خردل في كفّ أحدكم.

وقال رسول الله ﷺ: «ما مثل السّماوات والأرض في الكرسيّ إلّا كمثل دراهم سبعة ألقيت في ترس، وما مثل الكرسيّ في العرش إلّا كحلقة ملقاة على ظهر فلاة. ففضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة».

وقال ابن عبّاس: ما مثل السّماوات والأرض فيما وراءهما من الهواء حيث لا أرض ولا سماء إلّا كمثل فسطاط ضربتموه في صحراء.

وقيل لعيسى ابن مريم ﷺ: «ما تحت هذه الأرض؟» قال: «بحر من ماء» قيل: «فما تحت الماء؟» قال: «أرض»، قيل: «فما تحت الأرض؟» قال: «بحر من ماء» حتى بلغ سبع أرضين قيل: «وما تحت الأرض السابعة؟» قال: «صخرة مجوّفة». قيل: «فما تحت الصخرة؟» قال: «هي على منكب ملك». قيل: «فما تحت الملك؟». قال: «هو على ظهر ثور». قيل: «فما تحت الثور؟» قال: «هو على ظهر حوت وقد التقى طرفاه تحت العرش». قيل له: «فما تحت الحوت؟» قال: «الماء». قيل: «فما تحت الماء؟». قال: «الريح» قيل: «فما تحت الريح؟» قال: «هواء وظلمة». قيل: «فما تحت الظلمة؟». قال: «إلى هنا انتهى علمي وعلم العلماء».

قال وهب بن منبّه: والشمس والقمر والنجوم ليس منها لاصق بالسماء ولكنّها تجري في أفلاكها دون السماء في البحر المكفوف. قال ابن عبّاس: وذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فالشمس والقمر وجوههما إلى السماء وظهورهما إلى الأرض ولولا ذلك لأحرقا ما في الأرض.

وقال قتادة: الأرض المعمورة أربعة وعشرون ألف فرسخ فاثني عشر ألفاً منها للسند والهند وثمانية آلاف ليأجوج ومأجوج وثلاثة آلاف للروم وألف للعرب.

باب خلق آدم[1] وحوّاء[2] وما كان من شأنهما

قال عبد الملك: خلق اللّه آدم[3] من ثمانية أشياء وفيها خلاف؛ من الطين

(١) آدم عليه السلام هو أبو البشر وقيل أبو محمد نسبة إلى النبي ﷺ، واختلف في اشتقاقه فقيل: هو مشتق من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها، فسمي بما خلق منه، قاله ابن عباس. وقيل مشتق من الأدمة وهي السمرة، واختلفوا في الأدمة، فزعم الضحاك أنها السمرة وزعم النضر أنها البياض. قال القرطبي: الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض، قال سعيد بن جبير: إنما سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وإنما سمي إنساناً لأنه نسي.

(٢) حواء هي زوج آدم عليه السلام، وهو أول من سماها بذلك حين خلقت من ضلعه من غير أن يحس آدم عليه السلام بذلك، ولو ألم بذلك لم يعطف رجل على امرأته، فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأة، قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولم سميت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أخذت، قيل: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من حي. وروي أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرب علمه وأنهم قالوا له: أتحبها يا آدم؟ قال: نعم، قالوا لحواء: أتحبينه يا حواء؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبه، قالوا: فلو صدقت امرأة في حبها لصدقت حواء. وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيرى من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها.

(٣) روى السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود في قصة خلق آدم عليه السلام قال: فبعث اللّه جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ باللّه منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ وقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ باللّه أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ولذلك سمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض فصعد به فقال اللّه تعالى له: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها. فقال: أنت تصلح لقبض أرواح ولده. فبلّ التراب حتى عاد طيناً لازباً ـ واللازب هو الذي يلتصق بعضه ببعض ـ ثم ترك حتى أنتن، فذلك حيث يقول: **﴿من حمإ مسنون﴾**، قال: منتن، ثم قال للملائكة: **﴿إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** فخلقه اللّه بيده لكيلا يتكبر إبليس عليه، يقول: ـ

والحجارة والبحر والشمس والريح والسحاب وروح القدس والقدرة. وفي رواية: من طين وحجر وبحر وسحاب وشمس وريح ونور وروح القدس. فجعل من الطين لحمه ومن الحجارة عظمه ومن البحر دمه ومن الشمس شعره ومن السحاب همومه ومن القدرة فهمه ومن الريح قوله ومن روح القدس أمانته وجعل اللّه عزّ وجلّ لكلّ واحد منها دولةً فإن وافق دولة الأرض دولة الماء كان أحمق وإن وافق دولة الحجر كان شجاعاً قاسي القلب وإن وافق دولة الريح كان قوياً وإن وافق دولة البحر كان عالماً عاقلاً وإن وافق دولة الشمس كان يستحبّ الشتاء ويكره الصيف وإن وافق دولة السحاب كان خفيفاً طيّاشاً لا يستقرّ في موضع وإن وافق دولة القدرة كان عالماً عاقلاً بعيد الغضب وإن وافق روح القدس كان ذا أمانة(١).

وعن عبد الملك أيضاً: العقل خلقه اللّه عزّ وجلّ من عمود كلمته وجعل في الدماغ مسكنه. والدماغ خلقه اللّه من دخان يكون في وسط الجنّة من حجاب النور الأحمر الّذي يلي العرش وفي الأذنين مسكنه وخلق البصر من ماء النجم الثاقب وفي محجر العين مسكنه وخلق الدمع من حجاب الماء الأبيض الذي يشرب خلقته

= أتتكبر عما خلقت بيدي ولم أتكبر أنا عنه. فخلقه بشراً فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعاً إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقول: ﴿من صلصال كالفخار﴾ ويقول: لأمر ما خلقت. ودخل فمه وخرج من دبره فقال إبليس للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سلطت عليه لأهلكنه. ويقال: انه كان إذا مر عليه مع الملائكة يقول: أرأيتم هذا الذي لم تروا من الخلائق يشبهه إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون، قالوا: نطيع أمر ربنا، فأسر إبليس في نفسه لئن فضل علي فلا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكنه. فلما بلغ الحين الذي أريد أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد للّه، فقال: الحمد للّه، فقال اللّه له: رحمك ربك فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول: **﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾** وذكر القصة.

وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن اللّه عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(١) راجع تاريخ الطبري (١/ ٨٩).

وفي العين مسكنه وخلق النفس من نور يخرج من بهاء النور الأصفر الذي منه تحشر الملائكة يسكنها اللّه الأجساد كيف يشاء لا إله إلّا هو. وخلق منطقه من صرير الرعد وعلى اللسان مسكنه. وخلق الفرح من رعد يخرج من نهر الكوثر ويسكنه اللّه القلب وخلق ضحكه وهو صوت في السماء الرابعة تخشع له الملائكة ومن النور خلقه اللّه وفي الطحال مسكنه وخلق الرحمة من نفس تخرج من ملك قائم على كرسيّ النور في وسط الجنّة وفي القلب مسكنه وخلق الموت من ظلمات لا تراها الأبصار من الحجر الّذي بين يدي الحوت الذي عليه قرار الأرضين وفي بدن بني آدم مسكنه وخلق له الهواء من كيفيّة النور وفي القلب مسكنه. واعلمْ أنّ النفس أصل آدم ولكلّ شجرة أغصان فهذه الأشياء كلّها أغصان النفس، فإذا ذهبت النفس ذهبت الأغصان وكان الجسد ظرفاً حذماً لا يعقل الأشياء ولا يعرفها.

قال عبد الملك: خلق اللّه تعالى آدم يوم الجمعة لتسع ساعات خلون منه. خلقه اللّه من تراب أتى به الملك من أربعة أركان الأرض فآدم مخلوق من أربعة أشياء: ثلاثة من الآخرة وواحدة من الدنيا. فالتي من الآخرة الروح وهو النفس والنور والحياة والرابع التراب فأخذ الملك من تراب الأرض كلّها أبيضها وأحمرها وأسودها وعذبها وملحها، فكلّ هذا أنت راءٍ في ولده. فأمّا العذب والملح؛ فمن العذب يكون الفرح والرضا والضحك والسخاء؛ ومن الملح يكون السخط والبكاء والهمّ والأسى.

ثمّ خلق الروح فقال له: «ادخلْ في جوف آدم». فقال: «أيْ ربّ، إنه وعر مظلم ولا بدّ من طاعتك». فقال اللّه تعالى: «ادخلْ كرهاً واخرجْ كرهاً». فلمّا جرى الروح في جسده لم يجد منفذاً فخرج من منخريه فعطس فقال اللّه عزّ وجلّ له: «قلْ، الحمد للّه يا آدم». فقال: «الحمد للّه». فهي أوّل كلمة تكلّم بها آدم. فقال اللّه تبارك وتعالى: «يرحمك اللّه يا آدم لذا خلقتك لتحمدني وتعبدني ولا تتهاون بشيء من أمري». فذلك قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني حوّاء حيث خلقها من ضلع آدم وهي القصيرى من الجانب الأيسر وفيه تعوّج.

فلذلك قال النبيّ ﷺ: «إنّ النساء خلقن من ضلع أعوج فإنْ رفق بهنّ استمتع بهنّ وفيهنّ عوج»(١).

---

(١) روى البخاري نحوه في كتاب (النكاح) باب (المداراة مع النساء وقول النبي ﷺ إنما المرأة كالضلع) حديث رقم (٥١٨٤).

=

قال ابن عبّاس: لبث آدم في الجنّة ربع يوم، خمسين ومائتي سنة(١).

ثم أباح اللّه لآدم وزوجه الجنّة فقال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] نهاهما عنها سبباً لقدره عليهما الّذي سبق فيهما من قبل أنْ يخلقهما من أنّهما صائران إلى الأرض الّتي خلقهما وفيها يعيدهما ومنها يخرجهما وذرّيتهما تارةً أخرى. فنهاهما اللّه عنها وقد علم أنّهما لا ينتهيان عنها وكان علمه فيهما هو قدره المقدّر عليهما.

ولذلك قال ابن عبّاس: أخرج اللّه آدم من الجنّة قبل أن يخلقه، وتصديق ذلك قوله للملائكة قبل أنْ يخلق آدم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يعني آدم.

وقال أيضاً: غرّق اللّه قوم نوح قبل أن يخلق السفينة بأربعمائة سنة، وتصديق ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] قال: كان القدر قبل البلاء.

ومن هذا قول الحسن: ليس شيء من الخلق إلّا وقد وجّهه اللّه حيث توجّه من خير أو شرّ.

وقد اختلف أهل الحديث في الشجرة الّتي نهى عنها آدم وحوّاء ما كانت، أمّا ابن عبّاس فقال: هي السنبلة، يعني القمح. وكان ابن منبّه يقول: كان حبّها ككلى البقر ألين من الزبد وأحلى من العسل. وأمّا مجاهد وقتادة فكانا يقولان: هي التينة. وأمّا الكلبيّ والشعبيّ فقالا: هي شجرة العنب. وهو أوفق ذلك وأشبه بأنْ تكون، لأنّها الشجرة الّتي ابتليت بها ذرّيّته، ومنعتهم الجنّة، وأوبقتهم النار إلّا قليلاً ممن عصم اللّه، وهي مفتاح كلّ شرّ(٢).

= ونص الحديث: عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» وفي رواية أخرى (برقم ٥١٨٦): «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً».

(١) وقد روي عن ابن عباس أن مكث آدم كان في الجنة نصف يوم مقداره خمسمائة عام، وقال أبو العالية: كان مكثه في الجنة خمس ساعات، وقيل: كان مكثه ثلاث ساعات، وقيل: ما لبث إلا مقدار ما بين الصلاتين.

(٢) قال ابن عطية: وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يعتقد=

وإيّاها فنّد نوح من السفينة عند نزوله منها وإخراجه ما فيها، فقال له جبريل عليه السلام: «الشيطان ذهب بها وقد سار من يأتي به وبها». فقال له جبريل: «إنّه شريكك فأحسنْ شركته». قال: «لي الثلثان وله الثلث». فقال: «إنّه شريكك فأحسن شركته». قال: «فلي النصف وله النصف». قال: «إنّه شريكك فأحسنْ شركته». قال: «فلي الثلث وله الثلثان». قال: «أحسنت وأنت مِحْسان تأكله عنباً وتأكله زبيباً وتشربه عصيراً ثمّ تطبخه حتى يذهب ثلثاه ثمّ تشربه».

فلم يكن لإبليس شرك في شيء من الشجر كلّها الّتي حمل نوح معه في السفينة غير شجرة العنب لأنّ بها أخرج آدم من الجنّة وبها منع ذرّيّته إلّا قليلاً من دخولها. فهي رأس الفتن وأمّ الخبائث وأكبر الكبائر وخطيئتها تعلو الخطايا كما تعلو شجرتها الشجر.

ولذلك قالت حكماء الأعاجم: غرس إبليس الكرم فغذّاها شهراً بدم ملك وشهراً بدم أسد وشهراً بدم قرد وشهراً بدم خنزير، فلمّا أدركت ثمرتها عصرها واستأنى بها إلى بعض غليانها وبلوغ غاياتها. فسقى منها رجلاً شيئاً فتربّع وأمر ونهى كما يفعل الملك، ثم زاده منها شيئاً فتزيّد في حميّته وشدّة بطشه وذهب ينهض إلى عدوّ له كما يفعل الأسد، ثمّ زاده شيئاً فنكّس برأسه وعبث بأطرافه وذهب يتأوّد ذاهباً وجائياً كما تفعل القرود، ثمّ زاده شيئاً فقلس واستقاء وبال كما تفعل الخنازير.

وقيل لبعض الحكماء: «أتشرب النبيذ؟» قال: «لا» قيل له: «ولم؟». قال: «لأنّه بِئسَ الرسول؛ ترسله إلى أسفلك فيصعد إلى أعلاك».

ومع هذا فإنّها متلفة للمال مذهبة للعقل وإنْ ذهبنا نستقصي عيوب الخمر أتى عليها أكثر الكتاب.

فلمّا أكل آدم وحوّاء من الشجرة تقلّص عنهما النور الّذي كان قد جعله اللّه لهما لباساً يواري سوءتهما. فلمّا رأى آدم تقلّص النور عنه أقبل على الدعاء فأدركته الإجابة فجعله اللّه لهما أظفاراً في نفسه وزوجه وقد ذهب عنهما النور إلّا بقية في أطراف أيديهما وأرجلهما لهما فيه جمال ومنفعة.

فالحمد للّه الّذي وفّق آدم للدعاء عند البلاء.

= أن اللّه تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها. وقال القشيري أبو نصر: وكان الإمام والدي رحمه اللّه يقول: يعلم على الجملة أنها كانت شجرة المحنة.

وقد قال حكيم من الحكماء: الهلاك كلّ الهلاك أنْ يعمل بالمعاصي في زمان البلاء.

وقال رسول اللّه ﷺ: «إذا أبغض اللّه العبد أكمل له النعمة وأملأ له في المعاصي»[١].

وكان الحسن يقول: إذا رأيتم القوم يصنع لهم على المعاصي فإنّما ذلك استدراج من اللّه لهم.

قال: فلمّا واقع آدم الخطيئة ناداه اللّه: «يا آدم، أيّ جار كنت لك؟» قال: «سيّدي نِعْمَ الجار كنت لي». قال: «اخرجْ من جواري» وسلبه تاجه وحليته. قال: «ربّ فَإِنْ تبت وأصلحت أرادّني أنت إلى الجنّة؟» قال: «نعم». قال: «ربّ أنت أحقّ من تاب عليّ ورحمني». قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦].

قال: كانوا أربعة: آدم وحوّاء وإبليس والحيّة الّتي دخل فيها إبليس وكلّم حوّاء على لسانها فنزلوا من الجنّة مفترقين، نزل آدم بأرض الهند ونزلت حوّاء بجدّة على أربعين ميلاً من مكّة ونزل إبليس بالبصرة ونزلت الحيّة بأصبهان. فأخذ إبليس الحيّة زوجةً فمنها ذرّيّته كما ذرّيّة آدم من حوّاء.

فإبليس أبو الجنّ كلّهم وأمّهم الحيّة، وآدم أبو البشر كلّهم وأمّهم حوّاء؛ هكذا قال مجاهد والحسن وقتادة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦، طه: ١٢٣] فإبليس عدوّ لابن آدم يطغيه ويضلّه؛ وابن آدم عدوّ له يلعنه ويستجير منه، والحيّة عدوّة لابن آدم حيث ما قدرت عليه نهشته؛ وابن آدم عدوّ لها حيث ما قدر عليها قتلها.

ذكر إبليس وما كان من شأنه

قال: وإنّما سمّي إبليس إبليس لأنّه أُبْلِسَ من رحمة اللّه وانقطع رجاؤه منها. وإنّما كان اسمه قبل هذا الحارث، ثمّ لمّا أُبْلِسَ من رحمة اللّه سمّي إبليس، ولذلك قالت العرب للّذي يسكت عند انقطاع حجّته أو لا يكون عنده جواب لمن كلّمه؛ قد أَبْلَسَ الرجل فهو مُبْلَس.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٤٥).

قال العَجّاج[١]: [الرجز]

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسا قَـالَ نَـعَـمْ أَعْـرِفُـه وأَبْـلَـسَـا

أي: لم يجد جواباً.

وكان إبليس من خزّان الجنّة وكان يدبّر أمر سماء الدنيا.

قال مجاهد: كان إبليس من الملائكة، فلمّا عصى لُعِنَ فصار شيطاناً[٢].

قال: وأمّا قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦، التوبة: ٢٤] فالقرآن يختلف؛ أمّا هاهنا فالمستقرّ الحياة الدنيا والمتاع الممتّع فيها.

وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا كلّها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[٣].

وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦] أي: إذا استودع الميّت قبره والمستقرَ في الجنّة حيث يكون قراره منها. قال الله تبارك وتعالى في أهل الجنّة: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وأمّا قوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فالحين سنة؛ والحين الموت؛ والحين ساعة من نهار؛ والحين القيامة.

قال: وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] فالحياة والموت فيها والخروج منها يوم القيامة. ولقد مرّ أبو هريرة رضي الله عنه بقبر بالمدينة فقال: «هذا قبر فلان الحبشيّ كان مولده بأرض الحبشة وتربته بالمدينة» وذلك أنّ الله لمّا خلق الخلق شكت إليه الأرض ما أخذ منها فوعدها أن يعيد إليها ما أخذ منها فليس أحد يخلق من تربة إلّا أعيد فيها.

---

(١) الديوان (١/ ١٨٥).

(٢) قال سعيد بن جبير: إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم. وخلق سائر الملائكة من نور، وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكاً، وروى نحوه عن ابن عباس، وقال: اسمه الحارث وقال أيضاً: اسمه عزازيل. وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيراً وتعبد مع الملائكة وخوطب، وحكاه الطبري عن ابن مسعود. واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جل وعز وصف الملائكة فقال: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ وقوله تعالى: ﴿**إلا إبليس كان الجن**﴾ والجن غير الملائكة.

(٣) راجع تحفة الإحوذي (٥/ ٣٣٤).

قال عبد الملك بن حبيب: وخلق اللّه إبليسَ يوم الأربعاء، فلذلك هو يوم نحس مستمر[١]، وخلق آدم يوم الجمعة وبينهما ألفا سنة، فيا ويح أنفسنا ما أشقانا وأجرأنا على ربّنا وأقلّ حياءنا وخوفنا، هذا آدم الّذي خلقه اللّه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأباح له جنّته ونهاه عن أكل شجرة واحدة فتعدّى فأكلها فأخرجه اللّه من الجنّة بذنب واحد ارتكبه، ونحن نجترح في كلّ يوم السّيئات ونلحق الحديثات بالقديمات ونرجو دخول الجنّة بمائة ألف خطيئة، ووالد البشر يخرج منها بذنب واحد.

قال الشاعر: [الكامل]

تَصِلُ الذُّنُوبَ إلى الذُّنُوبِ وتَرْتَجِي خُلْدَ الجِنان بِها وفَوْزَ العابِدِ
وَنَسِيتَ أَنَّ اللّه أَخْرَجَ آدَماً مِنْها إِلى الدُّنْيا بِذَنْبٍ واحِدِ

ذكر آدم وإِبليس وما أعطى اللّه كلّ واحد منهما على صاحبه

قال عبد الملك بن حبيب: روينا عن عبد العزيز عن إسحاق عن عمر مولى غفرة قال: قال رسول اللّه ﷺ:

«لمّا أهبط اللّه آدم من الجنّة وإبليس إلى الأرض تحاورا إلى اللّه عزّ وجلّ. فقال إبليس: ربّ عبدك هذا الّذي من أجله حرمتني جنّتك وأوجبت عليّ لعنتك وأحللت عليّ سخطك وغضبك. ماذا أعطيتني عليه وعلى ذرّيّته؟. قال اللّه عزّ وجلّ: «أعطيتك بأنْ جعلتك تدخل الدنيا مع أوّلهم وتخرج منها مع آخرهم وما ذرأت له من ذرّيّته ذرأت لك مثله وجعلتك وقبيلك ترونهم من حيث لا يرونكم وتأتون من بين أيديهم ومن خلفهم وتجرون منهم مجرى الدم وتتّخذون قلوبهم مساكن». فقال إبليس: ربّ إنّك منزل كتباً ومرسل رسلاً؛ فما كتبي ومن رسلي؟ قال: كتبك الوشم ورسلك الكهنة. قال: ربّ فما قراءتي؟ قال: الغناء قال: فما أذاني؟ قال: المزمار. قال: فما بيتي؟ قال: الحمّام. قال: فمامجالسي؟، قال: الأسواق. قال: فما طعامي؟. قال: كلّ ما لم يذكر عليها اسمي. قال فما شرابي؟ قال: كل مسكر قال: فما حلالي؟ قال: الحرام؟ قال فما حرامي؟ قال: الحلال. قال: فما مروءتي؟ قال: الزنا. قال: فما عطائي؟ قال: الرشا. قال: فما فُخوخي؟ قال: النساء. قال: ربّ حسْبِي حَسْبِي.

(١) ورد هذا الكلام في حديث موضوع.

فقال آدم: «ربّ عبدك هذا الخبيث الّذي حسدني واستزلّني وتكفّل لك بضلال ذرّيّتي ماذا أعطيتني وذرّيّتي؟». قال: «أعطيتكم عليه رحمة رحمتكم بها من لقيني من ذرّيّتك ولا يشرك بي شيئاً وعرفني وعرف حقّي ولم يستخفّ بمعصيتي وخافني وخاف عقابي غفرت له وأدخلته الجنّة». قال: «ربّ زِدْني». قال: «أحفّك وذرّيّتك بملائكتي فلا يولد لك ولد إلّا ومعه ملكان يحفظانه». قال: «ربّ زِدْنِي». قال: «السيئة واحدة وأغفر». قال: «ربّ زِدْنِي». قال: «الحسنة عشراً وأزيد». قال: «ربّ زِدْنِي». قال: «التوبة مقبولة ما كان الروح في الجسد». قال إبليس: «فوعزّتك وجلالك لا أفارق قلوب ذرّيّته حتّى يغرغروا بأنفسهم». قال آدم: «ربّ كنت في الجنّة لا أجوع فيها ولا أظمأ أسمع كلامك وكلام ملائكتك فقدر هذا الخبيث على حاجته منّي فيها وأنا في جوارك ودارك؛ فكيف لا يقدر على حاجته منّي ومن ذرّيّتي في الأرض؟». قال اللّه عزّ وجلّ: «اعْلَمْ يا آدم أنّه لا يخلص إليك ولا إلى أحد من ذرّيّتك إلّا بشيء قد جرى به القدر وجفّ به القلم». قال إبليس: «فلست إذاً على شيء؟». قال اللّه عزّ وجلّ: «فإنّك لست على شيء».

خلق الجنّة والنار

قال وهب بن منبّه والحسن وغيرهما: لمّا خلق اللّه الأرض فتقها[١] فجعلها سبع أرضين؛ غلظ كلّ أرض مسيرة خمسمائة عام؛ وما بين كلّ أرض مسيرة خمسمائة عام، وجعل تحت كلّ أرض بحراً من ماء وتحته بحراً من نار، ثمّ خلق الجنّة والنار من وراء أقطار السّماوات والأرض؛ فجعل الجنّة في الأرض، ثمّ ذهبت عالية بحذاء السّماوات حتّى انتهت إلى العرش، فهو سماؤها. وجعل ما خلق في السّماوات عدّة للجنة.

---

(١) قال تعالى: ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون**﴾ الرتق هو الضم والالتئام والالتحام، والفتق ضد الرتق وهو الفصل بين المتصلين، وقد ورد عن ابن عباس: كانتا ملتصقتين فرفع اللّه السماء ووضع الأرض، وعن الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل اللّه بينهما.
والآية تتطابق مع ما توصل إليه العلم الحديث في أهم نظرية عن نشأة الكون وهي النظرة التي تسمى (الانفجار العظيم) والتي تقول بأن أصل الكون هو سديم أي قرص عظيم من الغاز والغبار أو الدخان، قال تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان**...﴾، ثم انكمش هذا الدخان (رتق) ثم انفجر مكوّناً الكواكب والنجوم (فتق).

وفيها كان الحسن يقول: بحركم هذا تحته بحر من نار؛ وتحت ذلك البحر بحر من ماء؛ وتحته بحر من نار، حتّى سبعة أبحر من ماء وسبعة أبحر من نار، فبحركم هذا غطاء جهنّم.

وقال رسول اللّه ﷺ: «اختصمت الجنّة والنار ففخرت النار على الجنّة وقالت: «لي الملوك والأغنياء والجبابرة وأشراف الناس ولك الضعفاء والفقراء والمساكين والمتواضعون». فقال اللّه تعالى للجنّة: «أنت رحمتي أرحم بك من أطاعني من خلقي». وقال للنار: «أنت عذابي أعذّب بك من اتّبع هواه وعصاني وكلتاهما سأملؤها»[1] قال: فكلام أهل الجنّة في الجنّة بالعربيّة وكلام أهل النار في النار بالفارسيّة.

(١) روى البخاري نحوه في كتاب (التوحيد) باب (ما جاء في قوله تعالى: ﴿إن رحمت اللّه قريب من المحسنين﴾) حديث رقم (٧٤٤٩).

باب ابتداء خلق اللّه الدنيا من أوّلها إلى آخرها وذكر ما مضى منها وما بقي

قال عبد الملك: قال ابن عبّاس: اختار اللّه من الأشياء سبعة؛ خلق سبع سموات وسبع أرضين، والمشي حول البيت سبعاً، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً، ورمي الجمار سبع حصيّات لكلّ جمرة، وخلق آدم من سبع، وجعل رزقه في سبع، وأسجده على سبع، وقال اللّه لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وأصحاب الكهف سبعة وفي القرآن: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[1] [يوسف: ٤٣ ـ ٤٦] والدهر كلّه يدور على سبعة أيّام؛ على الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت فهي هذه الأيّام السبعة.

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] والدنيا كلّها إنّما ابتداؤها من يوم خلق اللّه آدم وخلقه يوم الجمعة وأهبطه إلى الأرض يوم الجمعة، وتقوم الساعة يوم الجمعة فهو أوّل أيّام الدنيا وآخرها، وبه ابتدأها وبه يختمها. وجعل اللّه لكل يوم من هذه الأيّام ألف سنة؛ وجعل الدنيا كلّها حتّى تفنى سبعة آلاف سنة.

وأنا مبتدئها من آدم ألفاً ألفاً أذكر في كلّ ألف من عمر الدنيا من الأنبياء

---

(١) وفي القرآن الكريم:

ـ المثاني السبع: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾.

ـ المسبحات السبع، وهي السور التي ابتدأت بالتسبيح.

ـ خلق الإنسان: روى القرطبي عن ابن عباس قوله: (رأيت اللّه أكثر ذكر السبع في القرآن، فذكر السموات سبعاً والأرض سبعاً والطواف سبعاً والجمار سبعاً، وما شاء اللّه من ذلك خلق الإنسان من سبعة في قوله تعالى: وذكر أطوار خلق الإنسان).

ـ مضاعفة الحسنات: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾.

ـ الفرقان: ذكر في القرآن سبع مرات.

والملوك وما كان من شأنهم وأخبارهم إنْ شاء اللّه. وأبدأ من آدم ﷺ وما كان من شأنه وشأن زوجه وولده ومن تناسل منه إلى زمان نوح بن لامك بن أخنوخ بن شالح بن مهلائيل. وفي رواية أسد بن موسى: ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم. فبين نوح وآدم عشرة آباء، وقال غيره: من آدم إلى نوح ألفا سنة ومائتا سنة وسأسوق اختلافهم وعدّة الأنبياء كلّهم والجبابرة والفراعنة، وأصف أخبارهم وأعمارهم وما كان في زمان كلّ نبيّ منهم وما أحدث اللّه فيهم شيئاً فشيئاً ونوعاً نوعاً إلى زمان النبيّ ﷺ. ثم ما كان في زمانه حتّى توفّاه اللّه عزّ وجلّ وكيف تتابعت الخلفاء بعده بأخبارهم وقصصهم وأعمارهم إلى زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمة اللّه عليهم. ثم أرجع إلى افتتاح الأندلس وغلبة طارق مولى موسى بن نصير عليها ثمّ أذكر عدّة من وليها إلى اليوم ومن يليها حتّى تخرب وما يكون بعد خرابها إلى أن تقوم الساعة بالروايات والعلامات إنْ شاء اللّه تعالى.

باب ذكر عدّة الأنبياء جمّاً غفيراً وكم منهم رسل وكم منهم عرب ومن تكلّم بالعربيّة والسريانيّة وغير ذلك

قال اللّه عزّ وجلّ لمحمّد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] فالّذين قصّ اللّه على محمدٍ ﷺ ذكرهم تسعة وعشرون نبيّاً. آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون والخضر وأرميا والأسباط واليسع ويونس وإلياس وأيّوب وداود وسليمان وزكريّاء ويحيى وعيسى والثلاثة الّذين ذكر اللّه تعالى في يس.

ووصف اللّه الخمسة منهم بأسمائهم: الخضر وصفه اللّه بصحبة موسى وما كان من فعله، وأرميا بقوله: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] والقرية بيت المقدس. والثلاثة وصفهم اللّه بقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣] وهي أنطاكية، وكان الخضر فيها ولم يكن رسولاً، وكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمٰن، ولم يكن من بني إسرائيل لأنّه كان قبل موسى، والأنبياء كلّهم إنّما كانوا من ولد سام؛ فيهم كانت النبوّة والملك؛ ولم يكن في ولد حام بن نوح ولا في ولد يافث بن نوح نبيّ ولا ملك.

وليس الخضر باسمه الثابت، وإنّما اسمه وهب بن عامر وكان لسانه عربيّاً، وإنّما سمّي الخضر لأنّه كان إذا صلّى اخضرّ ما حوله، وكان نبيّاً سأل اللّه عبادته في الدنيا وأنْ يرفع عنه الموت إلى آخر من يموت ليعبد اللّه كما تعبده الملائكة حبّاً للّه وحرصاً على عبادته وطاعته، فألبسه اللّه النور والريش كما ألبسه الملائكة، وجعله يطير معهم، وجعله ملكيّاً وإنسيّاً وأرضيّاً سمائيّاً، وجعله يختفي عن الناس كما تختفي الملائكة إلّا ممّن أحبّ اللّه أنْ يبدو له.

قال عبد الملك: وجملة الأنبياء جمّاً غفيراً مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً،

منهم الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر في رواية ابن عبّاس وقتادة؛ وفي رواية أبي ذرّ ثلاثمائة وثلاثة عشر.

وكلّ الأنبياء من ولد إبراهيم خليل الرحمٰن إلّا ثمانية: آدم وشيث وإدريس ونوح وصالح ولوط ويونس وكلّهم من بني إسرائيل إلّا عشرة.

وكان لسان الأنبياء كلّهم ثلاثة ألسن: العربيّة والسريانيّة والعبرانيّة، فلسان جميع بني إسرائيل بالعبرانيّة، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق؛ وإسحاق أوّل من أنطقه اللّه عزّ وجلّ بالعبرانيّة فهو لسان جميع ولده.

وكان لسان خمسة من الأنبياء السريانيّة: إدريس ونوح وإبراهيم ولوط ويونس. وكان لسان اثني عشر من الأنبياء العربيّة: آدم وشيث وهود وصالح وإسماعيل وشعيب والخضر والثلاثة الّذين في سورة يٓس ويونس وخالد سنان العبسيّ ومحمّد ﷺ، وذلك أنّ اللسان الّذي نزل به آدم من الجنّة كان عربيّاً لأنّه كلام اللّه عزّ وجلّ وكلام ملائكته وكلام أهل الجنّة إذا صاروا إليها ولذلك ما قال النبيّ ﷺ لسلمان الحبر: «يا سلمان أحبب العرب لثلاث؛ قرآنك عربيّ ونبيّك عربيّ وكلامك في الجنّة عربيّ»(١). فهذا الكلام العربيّ هو كلام آدم حين أخرج من الجنّة وكلام ولده من بعده. ثمّ لمّا طال العهد بعد آدم حُرِّفَ اللسان العربيّ فصار سريانيّاً، وإنّما نسب إلى أرض سوريّة وهي أرض الجزيرة والشام فيها كان نوح وقومه قبل الغرق، والكلام السريانيّ يشاكل العربيّ إلّا أنّه محرّف، يقال للحمار بالسريانيّة «حَمُورَا».

قال: وأوّل من أنطق اللّه عزّ وجلّ بالعربيّة بعد هؤلاء إسماعيل بن إبراهيم ومن إسماعيل صار اللسان العربيّ في شعيب وقومه لأنّهم من ولد مدين بن إبراهيم. فالأنبياء اثنا عشر نبيّاً كان لسانهم عربيّاً. والسريانيّون من الأنبياء خمسة: إدريس ونوح ولوط وإبراهيم ويونس. وذلك أنّ يونس كان بالجزيرة جزيرة الموصل وأهلها يومئذٍ ولد أسود بن سام، ثمّ سائر الأنبياء كلّهم عبرانيّون من ولد إسرائيل وهو يعقوب، والكتب كلّها الّتي أنزلها على أنبيائه إنّما أنزلت بهذه الألسنة الثلاثة: العربيّة والسريانيّة والعبرانيّة.

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير ج (٨) ص (٥).

الكتب التي أنزلها الله من السماء وعدّتها أربعة كتب ومائة كتاب

أنزل اللّه تعالى على شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحف أمثال كلّها، وعلى موسى من قبل أن تنزل التوراة عشر صحف، وأنزل اللّه التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والفرقان على محمّد ﷺ.

قال معقل: سمعت وهب بن منبّه يقول: لقد قرأت اثنين وسبعين كتاباً أنزل اللّه من السماء ما سمعت فيها من تكرير الظلم والظالمين ما سمعت في قرآننا هذا، وذلك أنّ اللّه علم أنّ فتنة هذه الأمّة إنّما تكون في الظلم، وما رأيت اللّه عزّ وجلّ عاب أكثر الأمم الماضية إلّا في الشرك وعبادة الأوثان، وأكثر ما عيبت هذه الأمّة بالظلم فقال تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: ٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] و﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ومن أجل هذا كان سحنون بن سعيد يحلف باللّه مراراً أنّ الّذي يمسك أذاه عن الناس ولا يظلمهم خير من الّذي يعطيهم الدنانير والدراهم. قال الشاعر: [الطويل]

وَهَلْ أَنْتَ إِلّا ظَالِمٌ وابنُ ظَالِمٍ لأَنَّكَ مِنْ أَوْلادِ حَوّا وآدَمَ

قال: والكتب الّتي وضعها العلماء والحكماء للدرس والنظر فيها إنّما هو تصفّح عقول العالمين وأخلاق النبيّين وأعمال الصدّيقين وذوي الحكمة من الماضين والباقين فدراستها منفعة والنظر فيها خير وبركة فلا تحقّرنّ شيئاً منها فإنّك تجد فيها البراهين المبرهنة والحجج البالغة.

ما جاء في الأيّام السبعة وتفسيرها

حدّثني حميد عن أبي الأسود عن مسلمة بن عليّ بن أبي سليمان عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله العسر يوم الثلاثاء وفيه نزلت سورة الحديد»(١).

وكان يكره فيه السفر؛ ويستحب يوم الخميس وهو حسن للحجامة والفصد.

وكان ابن عبّاس يقول: يوم الأحد يوم عرس وبناء؛ ويوم الاثنين يوم الخروج في السفر؛ ويوم الثلاثاء يوم الدم؛ ويوم الأربعاء فيه خلق إبليس لا يصلح لأخذ ولا لعطاء؛ ومن احتجم فيه فأصابه وضح يعني برصاً فلا يلومنّ إلّا نفسه، ويوم الخميس يوم الدخول على الملوك وطلب الحوائج.

قال النبيّ ﷺ: «اللّهمّ بارك لأمّتي في بكورها واجعل ذلك في غداة خميسها».

ويوم الجمعة يوم الباءة يعني الجماع، ويوم السبت يوم المكر.

قال أبو القاسم: والأيّام مشتقّة من المواءمة يعني الموافقة وموافقة بعضهم بعضاً، والعرب تسمّيها الدوائر، لأنّها تدور على الخلق بالخير والشرّ، ويقال لها الجديدان والأصرمان والملوان والعصران وما من يوم إلّا وينادي: «أنا خلق من خلق الله جديد وأنا على ما يفعل بي شهيد خذوا منّي قبل أن أبيد».

ذكر حمل حوّاء وما كان من شأنها في حملها وأوّل ولد ولدتْه

قال ابن عبّاس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال: هذا بعد ما هبط إلى الأرض تغشّاها جامعها فحملت حملاً خفيفاً وقد كان جامعها في الجنّة فلم تحمل؛ هذا أوّل حمل حملت فخفّ عليها، ولذلك كان مبتدأ الحمل خفيفاً على كلّ أنثى، وكذلك كان يكون ولادها خفيفاً أبداً لولا خطيئتها، ولكن عاقبها بتشديد الولادة عليها وورّث ذلك بناتها.

قال ﷺ: «لولا خطيئة حوّاء في الشجرة كان نساء الدنيا لا يحضن ولكن حليمات يحملن يُسراً». وأما قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني

(١) لم أجده فيما بين يدي من المراجع.

استمرّت بالحمل وقامت وقعدت ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني أثقلها الحمل: فزعت وجزعت وجزع آدم ولم يكونا عرفا ما الولد فخافا أن يكون الذي في بطنها بهيمة من بهائم الأرض فلما علم إبليس ما وقع في قلوبهما من ذلك أتى حوّاء في غير صورته فقال لها: «يا حوّاء ما هذا الّذي في بطنك؟» قالت: «لا أدري» قال: «لعلّه بهيمة من بهائم الأرض» قالت: «خفت ذلك ولقد وجدت لها ثقلاً حتّى ما أستطيع القيام إذا قعدت»، قال لها: «أفرأيت إنْ دعوت اللّه عزّ وجلّ فجعله إنساناً مثلك أو مثل آدم أتسمّيه باسمي؟» قالت: «نعم» وانصرف عنها فقالت لآدم: «لقد أتاني آتٍ فخوّفني ما في بطني». فوقع آدم حوّاء في الهمّ فعند ذلك دعوا اللّه ربّهما ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩] يعني لَئِنْ آتيتنا يا ربّنا بشراً سوياً مثلنا. كان هذا دعاؤهما حتّى ولدت إنساناً كما تمنّيا فأتى إبليس حوّاء فقال: «ألا تسمّيه باسمي كما وعدتني؟» فقالت له: «ما اسمك؟» فذهب ولو تسمّى لعرفته وحذرته. ثمّ عاد إليها فقال لها: «كيف تريد أن تسمّي ابنكما هذا؟». قالا: «نسمّيه عبد اللّه» قال: «لا واللّه لا يدعه عندكما حتّى يقبضه ولكن سمّياه عبد الشمس» فسمّياه عبد الشمس فمات صغيراً ولم يبق[1].

وكان رسول اللّه ﷺ يقول: «خدعهما إبليس مرّتين: خدعهما في الجنّة وخدعهما في الأرض».

قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] يعني شركاً منهما لإبليس في طاعة اللّه حين أطاعاه في تسمية ابنهما عبد الشمس وليس شركاً للّه في عبادة[2]. هذا الإنكاف أنكف اللّه نفسه من أن يشرك في طاعته أو في عبادته والإنكاف التنزيه وهو من التعظيم والمحاشاة والتنزيه.

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢١٥): ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، فلا يعول عليه من له قلب، فإذا آدم وحواء عليهما السلام وإن غرهما باللّه الغرور فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، على أنه قد سطر وكتب.

(٢) اختلف العلماء في تأويل الشرك المضاف إلى آدم وحواء، قال المفسرون: كان شركاً في التسمية والصفة لا في العبادة والربوبية. وقال أهل المعاني: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما عبد الحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجاه الولد فسمياه به كما يسمي الرجل نفسه عبد ضيفه على جهة الخضوع له، لا على أن الضيف ربه، كما قال حاتم:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... وما فيّ إلا تيك من شيمة العبد

=

ثمّ قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ [الأعراف: ١٩١] يعني أنّ الشمس لا تخلق شيئاً يعني حين سمّياه عبد الشمس. فهذه الآية في آدم وحوّاء خاصّةً في تسميتها ابنهما عبد الشمس. ثمّ صار عامّاً لمن فعل ذلك من أهل الجاهليّة ممّن أراد به شرك العبادة والتألّه. فذلك قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ﴾ [الأعراف: ١٩١]، تلك الأصنام لا يخلق شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١] يعني يعملون من خشب أو حجارة فهي مخلوقة يعني معمولة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٣] نصرهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٧] فنادوهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] بكلام ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] ثمّ قال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥] يعني الأصنام ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧، ١٩٨] أي: لا يبصرون الهدى الّذي تدعوهم إليه ولا يفقهوه. فأبصر آدم خطأه واستدراج إبليس إيّاه، فاستغفر اللّه فيما مضى واستعصمه فيما بقي. قال اللّه عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وكان أسد بن موسى يحدّث عن الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد قال: قال إبليس: ما عجّزني ابن آدم فلن يعجّزني في ثلاث: إذا سكر أخذته بخزامته حيث شئت وعمل لي بما شئت وإذا غضب قال ما لم يعلم وعمل ما عليه يندم وإذا بخل بما في يديه تمنّى ما لا يقدر عليه.

= وقال قوم: إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم عليه السلام، وهو الذي يعول عليه، فقوله: (جعلا له): يعني الذكر والأنثى الكافرين ويعني به الجنسان، ودل على هذا قوله: ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾ ولم يقل (يشركان)، وهذا قول حسن، وقيل: المعنى ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ من هيئة واحدة وشكل واحد ﴿**وجعل منها زوجها**﴾ أي من جنسها ﴿**فلما تغشاها**﴾ يعني الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لآدم وحواء ذكر في الآية، فإذا آتاهما الولد صالحاً سليماً سويا كما أراداه، صرفاه عن الفطرة إلى الشرك فهذا فعل المشركين. قال ﷺ: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» قال عكرمة: لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم.

وقال الحسين بن الفضل: وهذا أعجب إلى أهل النظر، لما في القول الأول من المضاف من العظائم بنبي الله آدم.

حديث هابيل وقابيل

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧] قال ابن عبّاس: كانت تلد التوأم ذكراً وأنثى في بطن واحد فكان آدم يزوّج ذكر هذا البطن لأنثى هذا البطن وأنثى هذا البطن لذكر هذا البطن فولدت حوّاء قابيل وأخته إقليميا في بطن واحد وكانت من أجمل النساء وولدت هابيل وأخته لبودا في بطن واحد وكانت لبودا لم يكن لها ذلك الجمال فأمر آدم قابيل أن يتزوّج لبودا أخت هابيل وأمر هابيل أن يتزوّج إقليميا أخت قابيل فأبى قابيل وشحّ بأخته وقال: «أنا أولى بأختي». فغضب آدم وقال: «هذه معصية». فهمّ قابيل بقتل أخيه هابيل ولم يدر كيف يقتله، فمثّل له إبليس رجلين فشدخ أحدهما رأس صاحبه بحجر فقتله، فلمّا رآه قابيل صنع مثل ذلك بأخيه هابيل، فلمّا قتله لم يدر ما يصنع به وندم، فكان أوّل قتيل وأوّل ميّت، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه ثمّ حفر بمنقاره ورجليه حفراً فألقاه فيه؛ ثمّ واراه فعندها قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٢] وأخذ قابيل بيد أخته فهرب بها إلى الجبل ووطئها فتوالدوا وأمر آدم ولده ألّا يخالطوا قابيل ولا ولده فلم يحفظ وصيّته غير شيث وولده فاجتباهم الله من ولد آدم فكانوا يعبدون الله ومنه نشأ الخلق.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ ابنيْ آدم ضربا مثلاً لكم فخذوا خيرهما ودعوا شرّهما»(١) قال الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، فجعل الله الفساد في الأرض عدلاً لقتل النفس، والفساد أخذ المال بغير الحق، وإعلان الزنا، وقطع الطريق، وإفساد الحرث والنسل، وقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] يعني: من أحياها فعفا عنها بعد أنْ وجب القتل عليها فله من الأجر مثل ما يكون له أو أحيا الناس جميعاً ولم يقتلهم بعد أنْ وجب له القتل عليهم، ونزلت في القتيل بنفسه إذا عفا عن قاتله، أو في وليّ القتيل إذا عفا عن قاتل وليّه.

قال معاذ بن جبل: قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي ثلاثاً: رجل قرأ القرآن حتّى إذا لبس رداءه وزينت عليه بهجته انسلخ منه، وإمام جائر

(١) رواه الطبري في جامع البيان ج (٦) ص (٢٧١).

يقول: من أطاعني فقد أطاع اللّه ومن عصاني فقد عصى اللّه، وكذب واللّه لا طاعة لمخلوق في معصية اللّه عزّ وجلّ، ورجل استخفته الأخبار واستهواها واستلذّها كلّما مضى خبر لبطه بغيره؛ فإنْ أدركَ الدجّال فسيكون معه»[1].

قال عبد الملك: فلست ترى في زماننا هذا وهو آخر الزمان شيئاً تكرهه إلا وقد مضى مثل أو قريب منه في زمان آدم وحداثته وباكورته وطراوته.

ولقد تهجر زمان الدنيا وملحها وزينتها في قلب آدم، وبكى على خطيئته وخروجه من الجنّة مائة سنة، حتّى لقد تأذّت الملائكة، وحتّى سال من عينه واديان، وكان في تلك المائة العام يجلس جلسة الحزين يده تحت خدّه فورّث ذلك بنيه. وأمّا حوّاء فجعلت يدها على رأسها فورّثت ذلك بناتها عند البكاء.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧] روى بعض أهل الحديث عن ابن عبّاس أنّ الكلمات الّتي تلقّى آدم من ربّه هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال غيره: إنّ آدم قال: «أي ربّ أرأيت ما أتيت من شيء أهو شيء ابتدعته أو شيء قدّرته عليّ قبل أنْ تخلقني؟». فقال: «بل قدّرته عليك قبل أن أخلقك». قال: «أي ربّ فكما قدّرته علي قبل أن تخلقني فاغفرّ لي». فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾.

قال المغاميّ: عن ابن وهب عن زيد بن أسلم أنّه قال: التوبة أنْ تمسي حين تمسي وأنت كاره لمعاصي اللّه محبّ لطاعته، ما عملت من عمل عملته بنيّة، وما تركت تركته بنيّة، وما ابتليت به يعلم اللّه منك أنّك كنت له كارهاً، وتستغفر اللّه منه وتتركه، فإذا أصبحت فعلى مثل ذلك. وكلّما ابتليت بالذنب فاستغفر اللّه وارجع إلى التوبة واتركه، فقد أمر اللّه نبيّه بالاستغفار، وهو قد غفر له، وما أمره بذلك إلّا أنه كره أنْ يقطع عنه ثواب المستغفرين.

قال عبد الملك: حديث ما أحسنه وما أكبر نفعه وأعظم بركته لمن فهمه وقبله، ولكن اللّه ضيّق أفهام أكثر الناس عنه، فالمحبّ للّه والمطيع له يعرف حقه ومنفعته.

---

(١) بنحوه روى الحاكم في المستدرك ج (٤) ص (٤٥١).

ذكر عمر آدم وما كان عليه هو وشيث ولده إلى زمان نوح عليه السلام

قال وهب بن منبّه: لمّا أرى اللّه آدم ذرّيّته نظر إلى رجل عليه نور فقال: «يا ربّ، من هذا؟». قال: «ابنك داود». قال: «وكم عمره؟». قال: «سبعون سنة». قال: «وكم عمري؟». قال: «ألف سنة». قال: «ربّ هب له من عمري ثلاثين سنة». فلمّا نزل به الموت قال: «بقي من عمري ثلاثون سنة». قال اللّه له: «إنك قد وهبتها لابنك داود». قال: «فما فعلت». فنسي ونسيت ذرّيته، وجحد آدم وجحدت ذرّيّته.

قال ابن عبّاس: أقام آدم في الأرض ألف سنة لم تنزل عليه فيها صلاة، إلا أنه لما نظر إلى ضوء النهار وظلمة الليل علم أنّ ذلك نعمة من اللّه عليه ليعلم بذلك عدد السنين والحساب وأمر دينه ودنياه وحجته وعمرته ومواقيت الصلاة لذرّيّته. فصلّى آدم عمره عند طلوع الفجر ركعتين شكراً للّه من غير فرض، فلم يزل آدم يصلّي تينك الركعتين حتّى توفّي، فخلف من بعده ولده شيث فمضى على سنّة أبيه وأنزل اللّه عليه خمسين صحيفة.

وتتابعت بنو إسرائيل على الفاحشة وزيّن لهم الشيطان أعمالهم وأحدث لهم البرابط وأنواع المزامير والملاهي إلى زمن إدريس عليه السلام. فنبّأ اللّه إدريس وعلّمه الخطّ بالقلم فهو أول من خط بالقلم وهو أنفع العلوم وأشرفها.

قال عبد الرحمٰن بن كيسان: القلم أحضر للذهن على تصحيح ما يقول من اللسان، لأنّ اللسان إنّما هو يسمع القريب الحاضر؛ والقلم يسمع الغائب البعيد مثله للحاضر القريب، وذلك أنّ الكتاب يقرأ في كلّ مكان، ويدرس في كلّ زمان، واللسان لا تعدو منفعته سامعيه.

ثمّ أنزل اللّه على إدريس الميزان وهو القسطاس بالروميّة والعربيّة. قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥، والشعراء: ١٨٢].

وقال معاوية بن أبي سفيان رضي اللّه عنه لصعصعة بن صوحان: «أي النساء أشهى؟» قال: «المؤاتية ما تهوى». قال: «فأيّ النساء أشنأ؟» يعني أبغض قال: «المجانبة لما ترضى». فقال معاوية: «هذا النقد العاجل». قال صعصعة: «بالقسطاس العادل». يعني بالميزان العادل.

وأنزل اللّه على إدريس ثلاثين صحيفة، فلم يزل إدريس ومن كان معه على

تينك الركعتين اللتين كان آدم صلاهما تطوعاً حتّى مات. قال: وإنّما سمّي إدريس لكثرة درسه لذكر الله عز وجل والكتب وكان خيّاطاً فإذا وخز بالإبرة وخزة ذكر الله معها وإذا أخرجها ذكر الله مع إخراجها. فشكر الله فعله فسمّاه إدريس وإنّما اسمه أخنوخ ولم يكن في زمانه أكثر ذكراً لله منه كان يرتفع إلى السماء في كل يوم من ذكره أكثر ممّا يرتفع من ذكر أهل زمانه:

قال الشاعر: [الرجز]

أَدْرُسْ تَسُدْ وتَكُنْ بذاكَ رَئيسا فاللّه مِن دَرْسِ العُلومِ وَهذْها
سَمَّى النبيَّ بوحيِهِ إدْرِيسا

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] يعني في السماء الرابعة فالذكر من الله بكل مكان. قال رجل للنبيّ ﷺ: «أيّ المصلّين أعظم أجراً يا رسول الله؟». قال: «أكثرهم لله ذكراً» قال: «فأيّ الصائمين أعظم أجرا؟» قال: «أكثرهم لله ذكراً». قال: «فأيّ الحاجّ أعظم أجراً؟» قال: «أكثرهم لله ذكراً». قال: ذهب الذاكرون بكلّ خير.

وجاء عن سلمان الحبر أنه قال: لو أنّ رجلاً بات يعطي الجواري البيض وبات آخر يذكر الله لرأيت ذاكر الله أفضل.

ذكر نوح وما كان من شأنه وشأن قومه وابن كم نبّأه الله وكم كان عمره

قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ • قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ • قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ • أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٢]. قال ابنُ عبّاس: أما قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] فهو أول نبي بعثه اللّه إلى عباده رسولاً، وقد كان إدريس قبله نبيّاً ولم يكن رسولاً، وقد كان شيث قبل إدريس نبيّاً ولم يكن رسولاً. وكان بين آدم ونوح ألف سنة، وقيل ألفا سنة، وبعث اللّه نوحاً رسولاً وهو ابن خمسين سنة، فلبث في قومه قبل الغرق ألف سنة إلّا خمسين عاماً، وهي الخمسون الّتي قد مضت من عمره قبل النبوّة.

وعاش بعد الغرق سنين اختلف في عددها، كان وهب بن منبّه يقول: عاش بعد الغرق خمس سنين، وكان ابن عبّاس وكعب الحبر يقولان: عاش ستّين سنة. وكان ابن أبي روّاد يذكر عن أبيه أنّه عاش بعد الغرق أربعمائة سنة. واللّه أعلم أيّ ذلك كان. وكلّهم أجمعوا أنّ الغرق كان من عمره على رأس ألف سنة.

قال ابن عبّاس: فأرسله اللّه إلى قومه وهم عبدة أصنام، فدعاهم إلى عبادة اللّه وتوحيده فذلك قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] يعني عذاب يوم القيامة. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٦٠] يعني الرؤساء من قومه ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] كانوا يقولون له ضال مجنون، كان الشيخ منهم يأتي بولده يحمله على عنقه حتّى يقف به عليه فيقول: «يا بنيّ، احذرْ هذا الشيخ فإنّه ضال مجنون، قد كان أبي يحذرنيه». هكذا كان ابن عبّاس يقول.

ثمّ قال نوح: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] ولا جنون ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ • أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢] علم من الله أنه مهلكهم ومعذبهم إنْ لم يؤمنوا ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] يعني وحياً من ربكم ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] العذاب ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ [الأعراف: ٦٣] عبادة غيره ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] يعني إذا آمنتم واتّقيتم ما نهيتم عنه، ولعلّ من الله واجبة لو فعلوا لرحموا ولكانت الرحمة لهم واجبة ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [الأعراف: ٦٤] يعني في السفينة، وكان طولها ثلاثمائة وستّين ذراعاً، كان جسد آدم قد ملأ السفينة، فانحشر إليها الطير والدوابّ والأنعام، فأوّل من دخلها البعوضة وآخر من دخلها الحمار وإبليس آخذ بذنبه، فدخلت يداه وبقيت رجلاه فقال نوح: «ادخل يا شيطان». فاتّخذ ذلك إذناً فدخل، فنجا كلّ من كان في السفينة وغرق بقيتهم، وكان الّذين نجوا ثمانين إنساناً: نوح وبنوه ثلاثة، ونساؤهم أربعون، ومن سواهم ستّ وثلاثون امرأة لم يؤمن بنوح غيرهم.

قال: ولمّا أرسى مركب نوح بالجزيرة سمّي الموضع الّذي أرست فيه السفينة سوق ثمانين إلى يوم القيامة على عددهم.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤] أي: عمين من الحقّ كذلك كان مجاهد وغيره يقول.

قال وهب: كانت السماء تصبّ الماء كأفواه القرب، وكان الماء ينبع من الأرض وينزل من السماء أربعين يوماً حتّى علا الماء على أعلى جبل يكون ثلاثين ذراعاً. فلمّا انقضت الأربعون يوماً أمسكت السماء عن الماء والأرض عن النبع. وبقي الماء ستّة أشهر حتّى لم يبق في الأرض بنيان ولا شيء إلّا هلك وأقبلت السفينة تجري من المشرق إلى المغرب.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤] فلمّا بلغت الأرض ماءها ارتفع ماء السماء حتّى بلغ أعنان السماء رجاء أن يعود إلى مكانه فصيح به: ارجع فإنّك رجس وغضب. فرجع الماء وملح وتردّد في الأرض، فأصاب الناس منه أذى، فأرسل الله عليه الرياح فجمعته إلى موضعه، فصار فيها ملحاً لا ينتفع به. فلمّا كان يوم عاشوراء قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] الآية وبدت البداأة في السماء، وبقي قوس قزح، وكانت آية الأمان من الغرق، وتطلّع نوح فرأى الشمس.

ويقال: إنّ موضع الكعبة أوّل موضع نضب عنه الماء. فجاءته الحمامة مبشّرة

بذلك. وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] قيل: إنّه أدخل فيها من البقر خمسة أزواج ومن الحمام كذلك لأنّها كانت قرباناً للناس.

فلمّا أدخل نوح الناس في السفينة وكانت على ثلاث طبقات، الطبق الأول لبني آدم، والطبق الأوسط للماء والزاد، والطبق الأسفل لسائر الخليقة. قال: وألقى اللّه على كلّ من كان في السفينة السكينة، فلم يعد من ذلك شيء على شيء، كانت الشاة تحتك بالذئب، وكانت البقرة تحتك بالأسد فلا يعدو منها شيء على شيء، وكان العصفور يقع على رأس الحيّة فلا تضرّه.

وكان نوح عليه السلام قد عهد إلى كلّ من كان في السفينة ألّا يركب ذكر أنثى، فعصى الكلب فوثب على كلبة فعوقب بالعَقْد، فمن ذلك اليوم توارثت الكلاب العَقْدَ. ثمّ إنّ الفويسقة تعدّت على طعام أهل السفينة ومتاعهم؛ فشكوا ذلك إلى نوح؛ فأمره اللّه أنْ يجرّ يده على وجه الأسد ففعل، فعطس الأسد فخرج من منخره هرّ؛ فمن ذلك خلق الهرّ ولم يكن من جملة الخليقة الّتي أدخل نوح في السفينة.

وإنّ أهل السفينة شكوا إلى نوح كثرة الزبول، والأوساخ فدعا نوح ربّه فأمره أن يمسح يده على وجه الفيل فخرج من منخره خنزيران ذكر وأنثى فأقبلت الهرّة تأكل الفواسق وأقبلت الخنزيرة تأكل الأوساخ حتى تنقّت السفينة.

وكانت الشمس قد غابت عن الدنيا من كثرة الأمطار وأظلمت الأرض لذلك؛ حتّى لا يعرف ليلاً ولا نهاراً، إلا أنّ اللّه بلطفه أعطى لنوح خرزتين؛ خرزة تضيء بالنهار كضوء القمر، وخرزة تضيء بالليل كضوء الكوكب، وكان الخطّاف يسبّح عند طلوع الشمس وكان العقاب ينتفض عن الزوال ويبسط جناحيه، وكانت اليمامة تزقو عند غروب الشمس، وكان الديك يصرخ.

وقيل: إنّ عرض السفينة أربعون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً، وطولها مائة وعشرون ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات؛ بين طبق وطبق عشر أذرع، وكانت من الشمشار والساج، وأخذ الماء منه ستّ أذرع وبقي على وجه الماء أربع وعشرون ذراعاً، ولمّا غيض الماء وقضي الأمر تطاولت الجبال إلى السفينة وتواضع الجوديّ، فأمرها أنْ ترسي على الجوديّ، وهو جبل الجواز إلى يوم القيامة.

ذكر هود النبيّ عليه السلام وما كان من شأنه وشأن قومه

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥، وهود: ٥٠] إنّما نصب ﴿هُودًا﴾ [البقرة: ١١١] على أوّل الكلام على قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩، هود: ٢٥] وأرسلنا إلى عَادٍ أخَاهُم هُوداً وليس بمعنى أخَاهُمْ في الدين، ولكن أخاهم في النسب لأنه منهم؛ هو هود بن عبد اللّه بن رباح بن حرب بن عاد بن عوص إرم بن سام بن نوح.

قال عبد الملك: هكذا حدثنا أسد عن أبي إدريس بن سنان عن جدّ وهب بن منبّه في نسب هود.

قال: وكان هود رجلاً آدم كثير الشعر حسن الوجه، أشبه الناس بآدم صلّى اللّه عليهم أجمعين، وكان في حسب عاد وثروتها، وكان آباؤه أشرافاً مطاعيم، وكان فيهم أميناً قوياً غنياً كانت له ألف ناقة، أرسله اللّه إلى قومه وهم عبدة أصنام، فدعاهم إلى عبادة اللّه وتوحيده وذلك قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] عقابه وتعبدون غيره ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٦٦] يعني الرؤساء ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: ٦٩] يعني مستخلفين ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] كذلك قال ابن عبّاس: الّذين أهلكهم اللّه بالغرق.

فذلك إنّه لم يكن بين عاد ونوح أمّة سواهم هم أوّل أمّة كانت بعد الغرق، وهود منهم وهو أوّل نبيّ ورسول كان من بعد نوح. قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] يعني في الأجسام القوّة. كان فيهم عشرون رجلاً جبّارين عظيم خلقهم، كان طول أحدهم ثلاثة أميال في السماء، وكان منهم عاد بن عاد وإرم بن سام بن نوح؛ عاش ثلاثة آلاف سنة، كان

يتغذّى كلّ يوم ببقرة ويتعشّى بأخرى، وكان يأكل فيما بين ذلك بَكْرة من الإبل، وكان إذا رمى لم تربض قائمة ولم يقم رابضة، وكان طول هؤلاء من السبعين ذراعاً إلى المائة، وإنّما كان يقال لهم العماليق، وكانوا يسكنون مدينة بشرقي المقدس، وهم الّذين عنى الله في كتابه: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢].

ويقال: هما عادان عاد الأولى. وهي إرم وقيل لعاد إرم لأنّ إرم جدّ عاد، وعاد الأخرى. قال ابن عبّاس: عاد الأولى هم قوم هود الّذين أهلكوا وكان لهم عقب ممّن كان مع قوم لوط، وعاد الأخرى في زمان بارس، فهو أوّل من تكلّم بالعربيّة، وولد له أربعة من الولد، فمنهم يعرب قحطان ومقحط وقاحط وفالغ، ففالغ أبو مضر، وقحطان أبو اليمن، والباقيان ليس لهم نسل. وقيل: لم يؤمن من قوم هود إلّا سبعون رجلاً، ومن قوم صالح سبعون فتفرّق بعد موت هود وصالح مؤمنو قومهما، فوقع مؤمنو قوم صالح بجابلقا، ومؤمنو قوم هود بجابرسا، فهم فيها أحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، على كلّ مدينة منها ألف باب؛ ما بين الباب إلى الباب فرسخ تحرس كلّ ليلة، على كلّ باب سبعون ألفاً، كلّهم لا تصل النوبة إليهم، فلولا بقيّة هؤلاء ما ناظرهم طرفة عين وأهل المدينة من ولد بارس بن يافث بن نوح، وهم أكثر من يأجوج ومأجوج تسعة أضعاف الدنيا.

ثمّ رجعنا إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] يعني على من كان قبلكم ومن يكون بعدكم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] ولعلّ من الله واجبة لو آمنوا فشكوا نعمة الله ولو آمنوا لفلحوا وأفلحوا ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] يعنون العذاب وذلك أنّه أقام يدعوهم سبعين سنة إلى طاعة الله ويخوّفهم الله أن ينزل بهم العذاب، وكلّ ذلك لا يزدادون إلّا طغياناً وتكذيباً، فهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ [الأعراف: ٧١] أي: حان عليكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١] يعني بالرجس العذاب، والرجز والرجس واحد، والرجس عند أهل اللغة النتن والرجز العذاب.

قيل لعمر بن الخطاب رحمه الله: «إنّ الزرع قد أصابته ريح فأذهبته». فتمثّل بهذا البيت: [البسيط]

رجزٌ أصابَ زروع الناسِ إذ عملوا   رجزاً فكان ثوابُ الناسِ ما عملوا

ثـمّ قـال: ﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ ﴾ [الأعراف: ٧١] يعني من حجّة وسلطان أن يكون هو أمركم بعبادتها ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١] يعني نزول العذاب بكم. قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ ﴾ [الأعراف: ٧٢] يعني بالدابر أصلهم وعقبهم كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ ﴾ [الأنعام: ٤٥] فالظالم ينتظر العذاب والمحسن ينتظر الرحمة.

حديث صالح النبيّ ﷺ
وهو صالح بن عبير بن عابر
ابن ثمود بن عابر بن إرم بن سام
ابن نوح عليه السلام

حدّثنا أسد بن موسى عن أبي إدريس عن وهب بن منبّه وغيره في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأنعام: ٤٥] ليس يعني أخاهم في الدين ولكنّه أخاهم في النسب وكان رجلاً أحمر إلى البياض سبط الشعر وكان في شرف قومه وكذلك كلّ نبيّ إنّما بعثه اللّه من بيت قومه وشرفهم. فبعث اللّه صالحاً رسولاً إلى قومه وهو ابن أربعين سنة وهو بحجر اليمامة فدعاهم إلى عبادة اللّه وتوحيده وكانوا عبدة أصنام فهو قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣] يعني النبوّة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] وكانت من أعظم الآيات لأنّ اللّه عزّ وجلّ أخرجها لهم من الصخرة حين سألوا صالحاً ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] يعني الكلأ وذلك أنّها شاركتهم في الكلأ فكانت مواشيهم تنفر منها فواعدها بعضهم بالعقر فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣] يعني بعقر: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] يعني مؤلم شديد وهو من الألم والمؤلم الأليم كلّه واحد. قال اللّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] التي أهلكها اللّه بالريح، وذلك أنّه لم يكن بين ثمود وعاد أمّة سواهم، هم أوّل أمّة كانت بعد عاد، وهم وعاد يجمعهم النسب؛ إرم بن سام وثمود إرم بن عابر بن إرم وعاد بن عوص بن إرم.

فأرسل اللّه صالحاً إلى ثمود، وهو منهم وهو أوّل رسول كان بعد هود، كما كانت أمّته أوّل أمّة كانت بعد عاد فهو قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٠] يعني أحملكم وأنزلكم في الأرض ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤] يعني الكهوف ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ يعني نعماء اللّه.

قال عبد الرحمٰن: نِعَم الله أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين.

وقال عبد الواحد: خرجت ليلة من الليالي ادلهمّ الليل وأنا ضجر حيران، فبينا أنا أسير في الليل إذ رأيت شخصاً راعني منظره، فقلت: «أجنّي أنت أم إنسيّ؟». فأجابني: «وفيم الخوف من غير الله؟» أنا رجل أوبقته ذنوبه فهربت منها إلى ربّي، وما أنا بجنّي ولكن أنا إنسيّ مغرور». قلت: «فأين تريد؟». قال: «أجول أطلب صلاح قلبي». قلت: «فمن أين أقبلت؟». قال: «من عند قوم ملؤوا نعم الله ولم يشكروه عليها فخفت أن يسلبهم إيّاها لما رأيت من تضييعهم لشكرها». فهل تدلّ على مرشد يرشد إلى خير أو يدلّ عليه وربّ نعمة قد قوي صاحبها بها على الخطايا فصارت تلك النعمة عليه بليّة.

من أجل ذلك قال الشاعر: [الرجز]

مَا نِعْمَةٌ قَوِتْ عَلَى البَلاَيَا بِنِعْمَةٍ لَكِنْ مِنَ الرَّزَايَا

وأمّا قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] تعثوا بمعنى تعيثوا وهي من العياثة نفسها إلّا أنّ فيها لغتين؛ عثى القوم وعاثوا. وأمّا قوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] فإنّه اجتمعوا لعقرها تسعة رهط وهم الّذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٢٧، ٤٨].

قال عبد الملك رحمه الله: فكم تظنّ يا أخي في مدينتنا اليوم من المفسدين؟

فتولّى عقرها منهم رجلان: مصدع بن بهرج وقدار بن سالف، فأمّا مصدع فرماها بسهم فانتظم عرقوبها، وأمّا قدار فضربها بالسيف فعقرها وصالح نازح عن دار قومه فلمّا بلغه الخبر أتاها وقد قطّعوها وانتشلوها فاستعظم عقرها وأوعدهم العذاب فعندها قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨] يعني الزلزلة فزلزلت أرضهم ليلاً بعد المغرب من ليلة الأحد. فخلع الرعب أفئدتهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] من الجثوم كقوله قد تجثّموا أي: تضجّعوا موتاً، قد هلكوا بالرجفة التي أصابتهم في الزلزلة.

وحدّثنا أسد عن الوليد بن مسلم عن أبي عائذ أنّه قال: لو أنّ ثمود أيقنوا بالمغفرة كما أيقنوا بالعذاب لغفر الله لهم ولرحمهم. وقد جاء في الحديث عن الله عزّ وجلّ: «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي عبدي ما شاء».

حديث لوط بن هاران
ابن تارح بن آزر أبي إبراهيم الخليل ﷺ

قال ابن عبّاس في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] يعني عملهم السوء ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] يعني لم يعمل بتلك الفاحشة أحد قبلهم. وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١] قال: لم يكونوا يقربون النساء اكتفاء بالرجال. وذلك أنّهم أقاموا شهراً بل دهراً لا يولد فيهم مولد ولم يكن فيهم أحد اجتنب عملهم السوء غير لوط وأهل بيته. فذلك قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]. يعني من الهالكين وهذه الكلمة تقولها العرب فيما ذهب وهلك، يقول: إلّا امرأته كانت من الهالكين.

وكان ابن عبّاس يفسّرها على ما بقي يقول: إلّا امرأته بقيت في المدينة فهلكت مع من هلك والكلمة تحتمل المعنيين جميعاً.

تقول العرب: غبر الشيء أي: قد ذهب وتقول: ما كان هذا فيما مضى ولا فيما غبر ولا فيما بقي.

قال: وأمّا قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٤] يعني الحجارة الّتي رموا بها من السماء ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] سمّاهم مجرمين لعظيم جرمهم في المعصية الّتي لم يعص بها أحد قبلهم.

حديث إبراهيم الخليل ﷺ

وهو إبراهيم بن تارح وهو آزر بن ناحور بن شاروغ بن أرغو بن فالغ بن غابر.

حدّثنا سلمة بن صالح عن الربيع عن عثمان عن عطاء عن محمّد بن زياد عن تميم الداريّ قال: سئل رسول الله ﷺ عن معانقة الرجل الرجل إذا قدم من سفر أو غاب عنه. فقال: كانت المعانقة من فعل الأمم الماضية ومن خالص ودّهم. وأوّل من عانق إبراهيم الخليل، بعث ولده إسحاق، وهو غلام يومئذٍ في رأسه ذؤابتان، وهو من أجمل الفتيان، بغنم له وبقر ليرتاد لها موضعاً بناحية بيت المقدس، ثم أتبعه إبراهيم ليعرف موضعه، فبينا هو في مسيره ذلك إذ سمع صوتاً راعه، فقصد نحوه، فإذا هو بشيخ طوله ثمان عشرة ذراعاً أهلب يدعو الله، فقال له: «يا شيخ من ربّك؟». قال: «الّذي في السماء هو ربّي». قال: «فمن رب الأرض؟». قال: «الّذي في السماء». قال: «أتعرف ربّاً غيره؟». قال: «لا، هو الله الّذي لا إله إلّا هو». قال له إبراهيم: «فأين قبلتك الّتي تصلّي إليها؟». فأومأ بيده إلى الكعبة، ثم سأله عن طعامه قال: «هاهنا نخلات قديمات باد أهلها فأنا آكل رطبها وأدّخر تمرها». قال: «فمن أيّ قوم أنت؟». قال: «من قوم عادٍ وما بقي من قوم عادٍ غيري». قال له إبراهيم: «فأين منزلك؟». قال: «منزلي بتلك المغارة». وأشار إلى مغارة في أصل جبل. قال: «فسرْ بنا إليها». قال: «بيني وبينها وادٍ لا يخاض». قال: «فكيف تخوضه أنت؟». قال: «أمشي على الماء ذاهباً وجائياً». قال إبراهيم: «انطلق بنا فلعلّ الّذي يذلّله لك يذلّله لي». فانطلقا يمشيان حتّى انتهيا إليها فأخذ إبراهيم بيده فمشيا جميعاً على الماء كلّ واحد منهما يعجب من صاحبه. فلمّا دخلا المغارة إذا قبلته قبلة إبراهيم، فقال له إبراهيم: «أيّ يوم خلقه الله أعظم؟». قال: «ذلك يوم الدين، يوم يضع الله الجبّار كرسيّه للحساب، ثمّ تزفر جهنّم زفرةً فلا يبقى ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلّا خرّ، تهمّه نفسه». قال له إبراهيم: «فادعُ الله يا شيخ أن يخفّف عليّ وعليك ذلك اليوم». قال الشيخ: «ما تصنع بدعائي ولي دعوة في السماء محبوسة منذ حين، ما استجاب الله لي فيها». قال له إبراهيم: «ألا أخبرك يا شيخ ما الّذي حبس دعاءك؟». قال: «بلى».

قال: «إنّ اللّه إذا أحبّ عبداً حبس مسألته ولم يعجّل له بها، فكلّما دعا أعطاه اللّه من الثواب ما لا يخطر على قلب بشر، فالعبد يرى أنّ اللّه لم يستجب له وقد استجاب له وهو لا يشعر، وإذا أبغض اللّه عبداً عجّل له حاجته وإنْ لم يعجّلها له ألقى اليأس في صدره لكيلا يدعوه لأنّه يبغضه ويبغض صوته فما كانت دعوتك الّتي حبست عنك؟». قال له: «نعم مرّ بي شابّ جميل منذ أربعة أيّام في رأسه ذؤابتان يعني ضفيرتين، وهو يسوق غنماً كأنّما حشيت حشاً من السمن وبقراً كأنّما دهنت فقلت: «لمن هذه الغنم وهذه البقر يا شابّ؟». فقال: «لإبراهيم خليل الرحمٰن». فرفعت بصري إلى السماء وقلت: اللّهمّ إنْ كان لك في الأرض خليل فلا تخرج روحي من جسدي حتّى تجمع بيني وبينه». فقام إليه إبراهيم عليه السلام وعانقه وقال: «يا هذا قد أجاب اللّه دعوتك».

فمن يومئذٍ كانت المعانقة، وإنّما كان السجود من قبل ذلك؛ يسجد هذا لهذا وهذا لهذا وهو السجود الّذي كان في الزمن الأوّل ولم يكن سجود تعبدّ، وإنّما كان سجود خضوع وخنوع وتعظيم لصاحبه ومنه قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] في يوسف وإخوته صلّى اللّه عليهم وسلّم؛ إنّما كان سجودهم سجود خنوع وتواضع.

ثمّ جاءت بعد ذلك المصافحة مع الإسلام، وأوّل من جاء بها أهل اليمن، فيقال إنّها لا تفترق الأيدي حتّى يغفر اللّه لهما إذا كانا صالحين أو مسدّدين.

وأمّا الغدائر والذؤابات وهي الضفائر فإنّما كانت من شأن الناس في الزمان الأول، وقد كانت في رؤوس رجال من أصحاب رسول اللّه ﷺ؛ طلحة بن عبيد اللّه وغيرهم كثيراً.

ولقد قال عاصم بن أبي النجود: لقد أدركت قوماً يشربون النبيذ قبل التحريم، ويلبسون المعصفر، وإنّهم ليتّخذون الليل جملاً. يعني أنّهم كانوا مع شربهم النبيذ ولبسهم المعصفر لا يدعون إحياء الليل بالصلاة، والعرب تقول إذا أحيا الرجل ليله بالصلاة أو سواها أو سافر فيها وأحياها حتّى أصبح: «قد اتّخذ الليل جملاً»، يعنون أنّه قد ركب الليل حتّى أحياه، كما يركب الجمل.

قال اللّه لإبراهيم الخليل: «أتدري لم اتّخذتك خليلاً؟» قال: «يا ربّ لمَ؟». قال: «لأنّي نظرت في قلوب العباد؛ فلم أجد فيهم قلباً يخافني خوف قلبك».

قال: وكان إذا ذكر اللّه يسمع لقلبه وجبة من ثلاثة أميال.

حدّثنا أبو معاوية عن عاصم عن عثمان عن سليمان في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ

إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٧٥] قال: رفعه الله في ملكوت السّماوات فرمى ببصره إلى الأرض فرأى عبداً في فاحشة؛ فدعا عليه: «اللّهمّ أهلكه». فهلك ثمّ نظر إلى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك. ثمّ نظر إلى ثالث في مثل ذلك، فأراد أن يدعو عليه فأوحى الله إليه: «إنّك عبد مجاب الدعوة فلا تدع على المذنبين من خلقي، فإنّ عبدي المؤمن إذا أذنب بين ثلاث خصال: إمّا يستغفرني فأغفر له، أو يتوب فأتوب عليه، وإمّا أن استخرج منه ولداً صالحاً يدعوني ويحبّ ما عندي، فلا تدعو على خلقي».

وحدّثني عن عبد الله بن موسى عن صالح بن إبراهيم عن وهب بن منبّه أنّ داود النبيّ ﷺ قال: «اللّهمّ إنّ ابن آدم ليس منه شعرة في جسده إلّا تحتها منك نعمة، فمن أين يكافيك بما أعطيته». فأوحى الله إليه: «يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وشكره لي جميع ما أنعمت به عليه أن يعلم أنّ ما به من نعمة فمنّي».

قال: وكان إبراهيم ﷺ في زمان نمرود بن كنعان الجبّار، وهو أوّل من تجبّر في الأرض وتكبّر فيها؛ ومنه كانت الجبابرة البرابر، وكان ممّن ملّكه الله في الدنيا. والّذين ملّكهم الله الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران. فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: نمرود بن كنعان وبخت نصر وهو الّذي أمر ببنيان الصرح ليصعد إلى السماء ففعل، فصعد حيث شاء الله، فبعث الله ريح الزمهرير من أربعة أركان الأرض، فبلبل الله قلوبهم وألسنتهم، وهم يومئذٍ اثنان وسبعون قائداً، ولكلّ واحد منهم أمّة؛ ولسان، فكان يتكلّم هؤلاء بلسان لا يفهمه هؤلاء، فلذلك سمّيت بابل، لأنّ ألسنتهم تبلبلت، يعني اختلفت.

ونمرود هذا هو الّذي ألقى إبراهيم عليه السلام في النار وذلك أنّه عاب آلهتهم فقال: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فعملوا له دارة وملؤوها بالحطب، فلمّا احموها وصارت ناراً فمطّوه ثمّ جعلوه في كفّة المنجنيق، فأتاه جبريل فقال له: «أما لك حاجة يا إبراهيم؟ فقال له: «أمّا إليك فلا». فعجّت السّماوات والأرضون والجبال والبحار والدوابّ وقالت: «أي ربّ؛ خليلك يُلقى في النار فائذن لنا نطفئ عنه النار». فقال لهم الله عزّ وجلّ: «إن استغاث بكم عندي فأغيثوه». فلمّا رمي به قال: «حسبي الله ونعم الوكيل». قال الله عزّ وجلّ: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] قال: فبردت النار على أهل المشرق والمغرب، حتّى إنّ كلّ قدر كانت تغلي انطفأ غليانها.

قال: وإبراهيم ﷺ أوّل من صلّى إلى الكعبة، وأوّل من لبس السراويل؛ أتاه

جبريل عليه السلام فقطع له سراويل فقال له: «استتر بهذا». قال وإبراهيم ﷺ أوّل من عقد الألوية، لذلك قال النبيّ ﷺ: «إنّ اللّه أعزّ هذا الدين بالعمائم والألوية».

وإبراهيم أوّل من اختتن وهو ابن مائة وعشرين سنة وقيل ابن ثمانين. اختتن بالقدوم[١]، والقدوم موضع بالشام، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة.

وإبراهيم أوّل من قصّ شاربه وقلّم أظفاره وهو أوّل من أضاف الضيف وأوّل من رأى الشيب. فقال: «يا ربّ ما هذا؟» قال: «وقار يا إبراهيم». قال: «ربّ زدني وقاراً»[٢].

ومن أجل هذا قال النبيّ ﷺ: «من عمّره اللّه في الإسلام أربعين سنة رفع اللّه عنه الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ الخمسين رزقه اللّه الإنابة إليه، فإذا بلغ الستّين خفّف اللّه عنه الحساب، فإذا بلغ السبعين حبّبه اللّه لأهل السّماوات والأرض، فإذا بلغ الثمانين قبل اللّه عنه حسناته ومحا عنه سيّئاته، فإذا بلغ التسعين رفع اللّه عنه القلم وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وسمّي أسير اللّه في أرضه، وشفع في أهل بيته»[٣].

وكان رسول اللّه ﷺ يقول: «إنّ اللّه عزّ وجلّ يحبّ أبناء الثمانين»[٤].

قال مطرّف: وكان مالك إذا سمع هذا الحديث سرّ به وكان من أبناء الثمانين.

قال عبد الملك: وكلّ ما جاء من هذا اللين والتسهيل للشيخ فإنّما هو لأهل التحرّي منهم والخير ومن كان منهم في شيخوخته وسنّه على طاعة اللّه، فأمّا من كان منهم على معصية اللّه وفيما لا يحسن بالشباب أن يكون عليه من قبح الحال فلم يعن أولائك بهذه الأحاديث.

وقال ﷺ: «من لم تكن حياته في تكفير سيّئة واكتساب حسنة فليحتسب حياته».

ومن أجل هذا قال الشاعر: [الخفيف]

وَإِذَا مَا تَشَاءُ لاَقَيْتَ شَيْخاً لَيْسَ فِيهِ خُرُوبَةٌ مِنْ وَقَارِ

(١) رواه أحمد في المسند ج (٢) ص (٤٣٥) وابن حبان في الصحيح ج (١٠) ص (١٢٩).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٨٩).
(٣) ذكره ابن حجر في لسان الميزان ج (٢) ص (٥٢).
(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ج (١٠) ص (٢٠٦) والمتقي الهندي في كنز العمال ج (١٤) ص (٤٠٠).

وقالت الحكماء: إذا أردت أن ترى أطول الناس بلاء وأطولهم عناء وأعظمهم داء فانظر إلى شيخ هرم قد نزلت به الأوجاع، وألحت عليه الأسقام، واستثقله الأهل والإخوان، وهو يعمل المعاصي، فكيف إنْ كان مع هذا بأرض غربة فريداً فيه.

قال الشاعر: [الكامل]

وَإِذا كَبِرْتَ وَقَلَّ مَالُكَ لَمْ تَزَلْ يَلْقَاكَ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ هَوَانُ

وقال آخر: [الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

ومن يصحب الزمان يرَ الهوان.

وبلغني أنّ زياداً قام خطيباً فقال: أيّها الناس إنّي رأيت في ليلتي هذه أربعة نفر كلّهم يجب حقّه فاعرفوا لهم حقّهم وارعوا فضلهم: ذو السنّ وذو الفقه وذو الشرف والحسب وذو الدين، وإنّي عاهدت اللّه عهداً ألّا يأتيني ذو سنّ بشابّ قد استخفّ به إلّا جلدتُه، ولا يأتي ذو حسب أو شرف برجل من السفلة قد ردّ عليه قوله ليضع من حسبه أو شرفه إلّا جلدته، ولا يأتي عالم بجاهل قد ردّ عليه واستخفّ بما يجب له إلّا جلدته، فرحم اللّه عبداً عرف لهؤلاء الحقّ ورعَى لهم الحرمة، وإنّي أستغفر اللّه لي ولكم.

حديث شعيب النبيّ ﷺ وهو شعيب بن نويب بن أخزم بن مدين ابن إبراهيم ﷺ

قال ابن عبّاس: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥] قال: كان مدين رجلاً وليس ببلدة ولا موضع، وإنّما سمّي الموضع مدين بالقوم الّذين سكنوه، قال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥] قال: أمرهم بتوحيد اللّه ونهاهم عن عبادة غيره وذلك أنّ عبادة الأصنام كانت قد فشت في ذلك الزمان. ثمّ قال: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الأعراف: ٨٥] وذلك أنّهم كانوا يطفّفون المكيال والميزان. ثمّ قال: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥] تسمّوا لهم شيئاً وتعطوهم شيئاً دونه: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعرا: ٨٥] يعني ما جاءتكم النبوّة وذلك إصلاحها.

قال مطرّف عن مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيّب أنّه كان يقول: قطع الدنانير والدراهيم في الأرض من الفساد. يعني أنّ قطعها من النقصان الّذي سمّاه اللّه فساداً: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥] لا ينفعكم أن توفوا الكيل والميزان إنْ لم تكونوا مؤمنين كذلك فسّره قتادة. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني توعدون المؤمنين بالقتال ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني تصرفون عن الهدى من أراد الهدى والأمان ﴿ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف: ٨٦] وتبغون طريق الهدى عوجاً هكذا فسّره الحسن وقتادة ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني أنّهم انتشروا من مدين بن إبراهيم وكانوا قليلاً مؤمنين فكثّرهم اللّه حتّى صاروا أهل بيت فكفروا وعصوا رسول ربّهم فانظر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٦] يعني من الأمم السالفة حين كذّبوا رسله كان عاقبة أمرهم أن دمّر اللّه عليهم ثمّ عبّرهم إلى النار.

ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٨٧] كان الّذين آمنوا مستضعفين وكذلك أتباع

النبيين مستضعفين والّذين استكبروا وكذّبوا كانوا مستكبرين أعزّة رؤوساً. فكانوا يؤذون الّذين آمنوا فعند ذلك قال لهم شعيب هذا القول.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٨٨] وهم الذين لم يؤمنوا ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨] يعني لا يكون ذلك إلّا أن نكره عليه مثل قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦] ثمّ قال: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩] جعل المشيئة في الهدى والكفر إلَى اللّه عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ [الأعراف: ٨٩] يعني في الضلالة ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٨٩] أن يعيدنا فيها لأنه أملك بذلك منّا يعني أنّ اللّه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ ﴾ [الأعراف: ٨٩] يعني ملأ ربّنا كلّ شيء علماً ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٨٩] يعني احكمْ بيننا؛ افتحْ واحكمْ واقض واحدٌ.

وأمّا قوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٩١] يعني تحركت بهم الأرض من شدّة الكرب والغمّ وحرارة الشمس التي سلط اللّه عليهم فماتوا في ذلك أجمعين. قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ﴾ [الأعراف: ٩٢] يعني لم يسكنوا فيها والمغاني هي المساكن، والعرب تقول: «غنيت بها دهراً» يعنون سكنت بها دهراً.

ثمّ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢] يعني خسروا الدنيا والآخرة.

ومثله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ [الأعراف: ٩٤] والأسقام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤] إلى اللّه فيرجعون عن معصيته إلى طاعته.

وكذلك قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] فأمّا البركات من السماء فالمطر في أوانه وحين بركته ومنفعته وأمّا البركات من الأرض فالثمار والزرع والكلأ ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] يعني بذنوبهم بانتقاص الحبوب والثمار وذهاب البركات من قبل ذنوب بني آدم ومعصيتهم كما قال شعيب صلوات اللّه عليه ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ [هود: ٨٤] يعني رخص الأسعار وكثرة المعاش ﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤] قيل الجوع.

حدّثنا عليّ بن معبد عن عبد اللّه بن المبارك عن عوف الأعرابيّ عن أبي هريرة قال: كانت الأرض كلّها مباركة روضة واحدة، والجبال كالمرآة تتلألأ حسناً، ولم يكن في الأرض يومئذٍ شجرة لها شوك، فلمّا تكلّم فجرة بني آدم بالكلمة المعلومة الّتي قال اللّه فيها: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] يعني الشرك اقشعرّت الأرض وشاك الشجر وتوعّرت الجبال وذهبت البركات من الأرض، فذلك قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٢].

قال حذيفة بن اليمان: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إنّ جور الأئمّة ممّا يهزل الطير والوحوش والبهائم وكلّها تلعن عصاة بني آدم إذا أجدبت الأرض من أجل ذنوبهم».

روينا عن وهب بن منبّه أنّه قال: أوحى اللّٰه عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران: ما كنت لأعذّب الرعيّة وإن كانت ظالمةً مسيئةً، إذا كانت الأئمّة هادية مهديّة. ولكنّني يا موسى أعذّب الرعيّة وإن كانت هادية مهديّة إذا كانت الأئمّة ظالمة مسيئة، ولا يأتي حساب الرعيّة إذا كانت هادية مهديّة على سيئات الأئمّة.

ولذلك قيل: صلاح الوالي خير من خصب الزمان، ولذلك كان الملك فيما مضى يرى صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده.

وكان الحسن يقول: من أعزّ دين اللّه أعزّه اللّه. وكان الحسن يقول: الحجّاج عقوبة من اللّه فلا تستقبلوا عقوبة اللّه بالسيف ولكن استقبلوها بتوبة واستكانة فيكفيكهم اللّه شرّه.

قال ابن دينار: فاستقبلناها بالسيف فما صنعنا شيئاً.

حديث موسى بن عمران عيه السلام

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمٰن.

قال ابن عبّاس وغيره: هرب موسى عليه السلام من مصر وهو ابن عشرين سنة، وأقام أجيراً بمدين عشرين سنة أيضاً، فخرج من مدين بامرأته وابنته وغنمه راجعاً إلى مصر وهو ابن أربعين سنة، فنبّأه اللّه في خرجته هذه فبينا هو سائر مع أهله ثمّ أخذ زنده وقدّاحته ليوقد لهم النار فيصطلوا، فكلّما قدح زنده لم تأخذ إلّا ندوة، فألقى زنده يائساً منه، فحانت منه التفاتة، فإذا هو بنار عظيمة تضيء له بجانب الطور وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩] آنس يعني أبصر. فقال: ﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [طه: ١٠] يعني من يدلّني على الطريق أو آتيكم بشهاب قبس ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] فانطلق نحو تلك النار حتّى انتهى إليه بجانب الطور الأيمن فإذا هو بنار عظيمة تفور من أصل شجرة خضراء.

قال ابن عبّاس: كانت الشجرة عوسجة فجعلت النار لا تزداد فيما يرى إلّا عظماً وتضرّماً، ولا تزداد الشجرة على شدّة الحريق إلّا خضرةً وحسناً، فأعجبه ذلك منها ووقف متعجباً ووقف ساعة يرجو أن يسقط منها شيء فيقتبسه، فلمّا طال ذلك عليه ارتمّ ضغناً من دقاق الحطب، ثمّ أهوى بها ليقتبس من لهبها. فمالت إليه وطاوعته، فهابها وتأخّر عنها، فوقف متعجّباً متحيّراً لا يدري ما يصنع، ثمّ رمى بطرفه نحو فرعها حيث كان لهيب النار، فإذا به أشدّ ما كان خضرة، والخضرة ساطعة تشقّ الظلام وتجلوه، ثمّ صارت نوراً ساطعاً إلى السماء عليها شعاع كشعاع الشمس يكاد يخطف بصره، ثمّ سمع حسّاً عظيماً اشتدّ منه خوفه وكربه فنودي: «يا موسى». فأسرع الإجابة استئناساً بالصوت لعظيم كربه. قال: «لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، إنّي أسمع صوتك وأحسّ حسّك ولا أرى شخصك، فأين أنت؟» وهو لا يدري ما هو فقال اللّه: «يا موسى أنا فوقك ومعك وأمامك ومن خلفك ومحيط بك وأقرب إليك من نفسك».

فلمّا سمع موسى ذلك عرف أنّ هذه الصفة لا تنبغي إلّا للّه الواحد القهّار فقال: «أنت كذلك يا إلهي أكلامك أسمع أم كلام رسولك؟» فقال اللّه عزّ وجلّ: «أنا الّذي أكلّمك فاذنُ». فذهب يدنو فلم يستطع، كأنّه قد انخلع صلبه وأرعشت ساقاه من الرعب والخوف، فجمع يديه على العصا ثمّ تحمّل حتّى استقل، وما كاد يقوم فارتعدت فرائصُه وارتعدت يداه ورجلاه وانكسر لسانه وطاش عقله فرقاً من اللّه، ثمّ ذهب ليمشي، فلم يتبع منه شيء شيئاً، وصار كالعود اليابس، إلّا روح الحياة فيه، فبعث اللّه ملكاً فشدّ له عضده ورجليه، حتّى انتهى به إلى الشجرة فوقف إليها وأسند ظهره إلى جذعها ومعه عصاه يمسكها ثمّ ناداه اللّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ [طه: ١١، ١٢] اللّه ﴿رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢] والمقدّس المطهّر وقيل المبارك.

وكان ابن عبّاس وكعب يقولان: كانت نعلا موسى من جلد حمار ميّت غير ذكي، فأحبّ أن يباشر بركة القدس بقدميه، وأمّا القدس فيقرأ على وجهين: بالتثقيل وغير التثقيل.

وقال ابن عبّاس: هو اسم الوادي. وأمّا مجاهد فقال: تفسير ﴿طُوٗى﴾ [طه: ١٢] طإِ الأرض حافياً، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿طه﴾ [طه: ١] طإِ الأرض يا محمّد بقدميك في الصلاة.

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: ٨] يعني الشجرة ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨] يعني موسى ومن حولها الملائكة. ثمّ قال عزّ وجلّ مسكّناً لموسى ومذهباً للروع منه ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] «﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٨] يا ربّ». قال: «وما تصنع بها؟». قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨] والمآرب الحوائج.

وكانت عصاه عصاً لها شعبتان؛ كان آدم هبط بها من الجنّة وكانت من شجرة الآس؛ والآس: الريحان. فكان طولها عشرة أذرع ادّخرها اللّه لموسى فلم ينتفع بها أحد قبله ولا انتفع بها أحد بعده. قال اللّه تعالى: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩] فألقاها على حال الرفض لها فإذا هي ثعبان عظيم في مثل بدن الجمل النحيّ؛ إلّا أنّه أطول، يدبّ على أربع قوائم، قد صارت للشعبتان له فماً فيه أنياب وأضراس لها صرير ولها عرف يلتهب ناراً، فجعل يدبّ كأنّه يلتمس شيئاً يأكله، فمرّ بصخرة عظيمة فعضّ بنابيه في أصلها فاقتلعها ثمّ ابتلعها، ومرّ بشجرة عظيمة فابتلعها، حتّى سمع موسى قعقعة الشجرة في جوفه. لمّا عاين ذلك موسى ولّى مدبراً ولم يعقب

حتّى أمعن وظنّ أنّه قد أهجر الحيّة، ثمّ ناداه اللَّه: «ارجع يا موسى». فرجع مطيعاً لربّه مستحيياً منه لهربه. فقال له: «خذها يا موسى». فأقبل نحوها كما أمره اللَّه ليأخذها وهي بعد حيّة تتلمّظ شفتاها وتتوقّد عيناها، فتهيّبها موسى فقال اللَّه له: «خذها ولا تخف». فجعل يلفّ يده في كمّ جبّته، جبّة صوف، كانت عليه وكان كلّ ما كان عليه من صوف؛ جبّته وكساؤه وسراويله، كلّ ذلك من صوف.

فقال عبد الملك: أين أصحاب مطارف الخزّ العتاق والعمائم الدقاق؟ أين الّذين ظلموا العالات وضيّعوا الأمانات أين الّذين أهزلوا دينهم وسمّنوا براذينهم؟ أين الّذين أخلقوا دينهم وجدّدوا ثيابهم؟ أين الّذين اتّكؤوا على شمائلهم وأكلوا غير أموالهم ودعوا برطب بعد يابس وحلو بعد حامض؟ أين الّذين أسخطوا ربّهم وأرضوا شياطينهم ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثمّ رجعنا إلى حديث موسى عليه السلام حين أمره اللَّه بأخذ الحيّة فأتاها من قبل ذنبها فقال اللَّه له: «أخرجْ يدك من كمّك وأدخلْ يدك في فيها ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]». يعني نعيدها عصاً كما كانت. فأدخل موسى يده في فيها كما أمره اللَّه عزّ وجلّ حتّى وجد برد أنيابها على يده، فإذا هو بها عصاً كما كانت.

ثمّ ناداه اللَّه إليه حتّى قام إلى جنب الشجرة، فكلّمه تكليماً ليس بينه وبينه ملك يكلّمه عنه. فقال له: «يا موسى إنّي أقمتك منّي مقاماً لا ينبغي لمن بعدك أن يقوم مقامك هذا؛ أدنيتك منّي وقرّبتك حتّى سمعت كلامي، فاحفظ وصيّتي وانطلق برسالتي، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، فبطر نعمتي وتمثّل بي وعبد دوني، وزعم أنّه لا يعرفني، فأقسم بعزّتي لولا الحجّة لبطشت به بطشة جبّار تغضب لغضبه السّماوات والأرض والجبال والبحار، فإنْ أذنت للسماء حصبته، وإنْ أذنت للبحار أغرقته، وإنْ أذنت للأرض ابتلعته، وإنْ أذنت للجبال دكّكته، ولكنّه هان عليّ وسقط من عيني ووسعته رحمتي واستغنيت بما عندي، وحقّ لي وأنا الغنيّ ولا غنيّ غيري، فأبلغه رسالتي وادعه إلى توحيدي وذكّره أيّامي، وأخبره أنّه لا يقوم شيء لغضبي، وقل له فيما بين ذلك ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]». أمره عزّ وجلّ أنْ يليّن له القول ويكنّيه لجهالته وقلّة عقله وصحبته لهامان وقارون اللّذين كانا مثله أو أجهل منه.

ثمّ قال اللَّه عزّ وجلّ لموسى: «مر فرعون فليخلّ عن بني إسْرائيل، واخرجْ بهم معك من أرض مصر إلى أرض آبائهم المقدّسة الّتي ورّثتهم». يعني الأردنّ

وفلسطين. كذلك كان ابن عبّاس يقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ أوحى إلى خليله إبراهيم إذ كان بالشام أنّ: «هذه الأرض الّتي أنت بها ميراث لولدك من بعدك».

قال ابن عبّاس: كانت عصا موسى تضيء بالليل بعد ما كلّمه اللّه عزّ وجلّ.

حدّثنا أسد بن موسى عن أبي عقيل أنّ موسى بن عمران عليه السلام بعد أن كلّمه اللّه عزّ وجلّ كان لوجهه نور مثل شعاع الشمس لا يستطيعون إلّا أن ينظروا إلى وجهه، فكان ذلك يجعل البرقع على وجهه. وقال رسول اللّه ﷺ: «لما سمع موسى عليه السلام كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الربّ».

وروى ابن عبد الحكم عن بكر بن مضر عن أبي عجلان قال: كلّم اللّه تبارك وتعالى موسى بالألسنة كلّها. فكان أوّل ما كلّمه اللّه بلسان البربر فقال له: «أنا ياكن مقار» يريد: «أنا اللّه أكبر». وقال كعب: لمّا كلّم اللّه موسى بالألسنة كلّها طفق يقول: «واللّه يا رب ما أفقه هذا». حتّى كلّمه بلسانه آخر الألسنة بمثل صوته فقال موسى: «يا ربّ هذا كلامك؟». قال اللّه: «يا موسى لو كلّمتك بكلامي لم تك شيئاً حيّاً». فقال: «ربّ هل من خلقك شيء من يشبه كلامك؟». قال اللّه: «لا يا موسى وأقرب شبهاً بكلامي أشدّ ما يسمع من الرعد والصواعق».

قال عبد الملك: ليّن اللّه كلامه لموسى كي يطيق حمله.

وحدّثنا أسد عن ابن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس أنّه قال: قال اللّه تبارك وتعالى لموسى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] يعني جيب الجُبّة ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] يعني من الخوف والجناح أسفل من الإبط ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢] يعني بيضاء من غير برص فخرجت كالشعل تضيء كالمصباح ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢] يعني أنّ يدك والعصا آيتان ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢].

قال ابن عبّاس: ذكر أنّهما كانتا من أعظم ما رئي من الآيات ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] يعني عمل بالمعاصي ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨] يعني رتّة كانت في لسانه ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] يعني أخاه ﴿هَٰرُونَ ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢] يعني النبوّة والرسالة. قال اللّه تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] يعني قد أعطيت الّذي سألت. ثمّ قال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه: ٤٢] يعني بالآيات التسع ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ [طه: ٤٢] يعني ولا تضعها وهو يومئذٍ في مصر.

وأوحى اللّه إلى هارون يتلقّاه على مسيرة حجرة من مصر، وأخبره بأنّ اللّه

أوحى إليه أن يتلقّاه، فأخبر موسى خبره وما كان من تكليم اللّه إيّاه، فانطلقا حتّى دخلا مصر، فلقي مؤمن من آل فرعون موسى فعرفه وقال: «ما جاء بك إلى هذا الجبّار؟». قال: «ليس إليه من الأمر شيء». فوضع موسى أهله وأخذ عصاه وأقبل إلى باب فرعون ومعه هارون فقال للبوّابين: «استأذنوا لي». فأبوا فضرب الباب بعصاه ضربة تفتّحت له الأبواب كلّها فقال فرعون: «من هذا؟». قال له البوّاب: «هذا رجل عليه جبّة صوف وكساء صوف ضرب الباب بعصاه فتفتّحت له الأبواب». فقال موسى: «أين أصحاب السيوف والقناء والدروع؟ أين أصحاب السلاح الشاكّة؟ أين من تضعف قوّته عن قوّة اللّه تعالى؟ أين من يريد أنْ يغالب اللّه؟». ثمّ أمر فرعون موسى أنْ يدخل عليه فأدخل فلمّا انتهى إلى موسى قال: ﴿ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٦] فلمّا نظر إليه فرعون وسمع كلامه عرفه لأنّه هو الّذي ربّاه وكبر عنده فقال: «أما أنت موسى؟». قال: «نعم». قال: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩] يعني القتيل الّذي وكزه موسى فقضى عليه قال فرعون: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩].

قال ابن عبّاس: كان سجن فرعون لا يخرج منه أحد أبداً حتّى يموت فيه.

قال موسى: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٣٠] بآية بيّنة تدلّ على أنّي رسول من ربّ العالمين ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ٣٠ ـ ٣٢] يعني تحوّلت عصاه ثعباناً أشعر ذكراً، فملأ دار فرعون وأهوى إلى فرعون ليبتلعه، فقام فرعون هارباً منه، وهرب الناس وفرعون يصيح: «خذها يا موسى». فأخذ بذنبها فإذا هي عصاً، فأحدث فرعون يومئذٍ في سريره ولم يكن يحدث إلّا مرّةً في أربعين يوماً. قال فرعون لموسى «هل جئت بشيء قبل هذا؟». قال: «نعم». قال: «وما هو؟». قال: فأدخل يده في جيبه فإذا هي بحالها. فقال فرعون لمن حوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩] يعني عالماً بالسحر ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ [الشعراء: ٣٥، ٣٦] أي: لا تعجّل عليه بالعقوبة ﴿ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧] فأنت أكثر الناس سحراً. فاختار فرعون من بني إسرائيل سبعين رجلاً فأرسل بهم إلى الفرما مدينة على سبع مراحل من مصر، وأمر فرعون أن تبنى له قصبة عالية في مكان مشرف، وأن ترفع في الهواء سبعين ذراعاً وزخرفت، ثمّ نصب سريره فيها ووضعت الكراسيّ عن يمينه وشماله لأشراف أهل

مملكته، واجتمع الناس والسحرة وقالوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ﴾ إذاً ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] يعني أقربكم وأشرفكم على أهل مملكتي كلّهم.

واجتمع الناس، ثمّ خرج فرعون وجلس في سريره وأجلس معه مائتي رجلٍ على الكراسيّ عن يمينه وشماله، عليهم الديباج وأسورة الذهب، وأقبل موسى متواضعاً عليه السلام.

فحدّثنا الحزاميّ عن هشام عن القاسم قال: كانت السحرة يومئذٍ ألفاً، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصاً حتّى جعل موسى يخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى وذلك أنّ السحرة كانوا يسحرون وتعظم حبالهم وجعلت عصا موسى عليه السلام تعظم حتّى ملأت الأفق وابتلعت جميع عصيّهم وحبالهم، ثمّ أهوت إلى قبّة فرعون فوضعت إحدى لحْيَيْها في أسفل القبّة والأخرى في أعلاها وارتفاعها سبعون ذراعاً. ثمّ ضربت بذنبها القبّة من جانب فوقع ذلك الجانب في البحر، ثمّ ضربت الجانب الآخر فوقع ذلك الجانب الآخر في النيل، فلمّا عاين الناس ذلك ولّوا مدبرين؛ يدقّ بعضهم بعضاً، حتّى مات منهم بشر كثير وأحدث فرعون على سريره وجعل يستغيث بموسى، فناداه موسى: «ما أنا ببارح حتّى يحكم اللّه بيني وبينك». فأوحى اللّه تعالى إلى موسى أن: «أمهله».

فانصرف موسى عليه السلام يتعلّق بالحيّة، فتلوذ به وتتبعه وتبصبص حوله كما يبصبص الكلب لسيّده، حتّى انتهى إلى محلّة بني إسرائيل.

ثمّ أقام موسى عليه السلام بعد الرسالة وظهوره على السحرة عشرين سنة.

ثم أوحى اللّه إليه أنْ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣، والشعراء: ٥٢] فأعلم موسى بني إسرائيل ذلك وقال لهم: «لا يشعروا بكم وكيدوهم». فاستعاروا من آل فرعون الحلي والثياب والدوابّ وقالوا: «إنّ لنا عيداً نخرج إليه». فخرج موسى بهم ليلاً وهم ستّمائة ألف وثلاثة آلاف ونيّف.

هكذا كان ابن عبّاس يقول: قال النبيّ ﷺ: لمّا أوحى اللّه إلى موسى أنْ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ وعد أصحابه طلوع القمر، فأبطأ عليهم طلوعه وتأخّر عن وقته، فشاور أصحابه في ذلك فقالوا: «بلغنا أنّ نبيّ اللّه يوسف بن يعقوب عليهما السلام قال لأصحابه: «إنّكم ستخرجون عن قريتكم هذه، فإذا خرجتم فاخرجوا بجسدي معكم». فلمّا سمع موسى ذلك علم أنّ تأخير القمر من أجل ذلك، فخرج مستتراً يتجسّس عن قبر يوسف يقول: «من يدلّني عليه فله ما سأل». حتّى دفع إلى عجوز

قديمة عمياء مقعدة. وكان ابن عبّاس يسمّيها شارخ ابنة أشير بن يعقوب. قالت: «أنا رأيت عمّي يوسف حين دفن؛ فما تجعل لي إنْ دللتك على قبره؟». قال: «حكمك، فسليني ما شئت». قالت: «فادخلْ في ذلك القيطون». فدخل فإذا هو بصندوق من رخام فكشف عنه فإذا هو برمّة يوسف عليه السلام، فساعة احتمله اطّلع القمر فقال للعجوز: «سليني ما شئت». فقالت: «أسألك أن تدعو اللّٰه أنْ يردّ عليّ شبابي وبصري فأكون معك إلى يوم القيامة». فتعاظم موسى ما سألته وقال: «سليني غير هذا». فقالت: «لا أسألك غير هذا». وردّدها موسى وردّدته، حتّى أوحى اللّٰه إلى موسى: «أوفِ لها بعهدها». فدعا اللّٰه لها فأعطاها ذلك، وهو القادر على ما يشاء لا إلٰه إلّا هو.

فخرج موسى ببني إسرائيل من ليلتهم تلك كما أمره اللّٰه عزّ وجلّ، وأخفى اللّٰه أمره على فرعون فلم يشعر بمسيره حتّى أصبح. فلمّا علم بمسيرهم غضب، فأمر بذبح شاة ثمّ قال: «لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع عندي خمسمائة ألف فارس من القبط». ثمّ خرج بعد موسى بيوم وليلة وهو فيما لا يحصى عدده.

وقد اختلف أهل التفسير في عدد مقدّمته فقال ابن أسلم: كانت مقدّمته على عدد أصحاب موسى، ستّمائة ألف وكان فرعون في ألف ألف وخمسمائة ألف سوى المجنّبتين. فمضى موسى وفرعون في أثره، وبعث اللّٰه جبريل في ثلاثة وثلاثين من الملائكة؛ وجبريل عليه السلام على فرس أنثى؛ وفرعون على حصان بأثر فرس جبريل، وجبريل عليه السلام ينادي في آخر أصحاب موسى: «ليلحق آخركم بأوّلكم». وتفرّقت الملائكة في أصحاب فرعون، فلمّا رآهم أصحاب موسى قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فأوحى اللّٰه إلى موسى أنْ يضرب بعصاه البحر إذا انتهى إليه فإنّه سينفرق له. وأوحى اللّٰه إلى البحر أنْ: «أطع موسى وآية ذلك أنْ يضربَك بعصاه، فإذا ضربك بعصاه انفرقْ اثنتي عشرة فرقة حتّى يجوزك موسى ومن معه: ثمّ التف بعد على فرعون وجنوده».

فلمّا خرج أصحاب موسى من البحر انتهى أوائل أصحاب فرعون إلى البحر فدخلوا من آخرهم فلمّا صاروا بأجمعهم سمع بنو إسرائيل وجبة البحر فقالوا لموسى: «يا موسى ما هذا؟». وهم بعد في البرّية قال موسى: «غرّق البحر فرعون وأصحابه».

وكان البحر منذ خلق اللّٰه الدنيا لا يغرق فيه غريق ولا يقع فيه شيء إلّا غاب في جوفه وهبط إلى قعره ولم يظهر أبداً. فلمّا غرّق اللّٰه فرعون وأصحابه أمر اللّٰه

البحر فلفظهم أجمعين بجميع ما كان معهم على جنباته، فما رئي سواد قطّ أكثر من يومئذٍ.

قال: وأمّا قول الله عزّ وجلّ في فرعون فلمّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فإنّ جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: «يا نبيّ الله ما ولد آدم ولا إبليس ولد أبغض إليّ من فرعون؛ فإنّه لمّا أدركه الغرق ضربته موجة فغرّقته فأخرج رأسه ورفع بإصبعيه وقال: «آمنت بالذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. فخشيت أن يعود إليها فيرحمه الله فأخذت قبضة من ماء البحر فألقيتها في فيه فقطعت بها كلامه فأهلكه الله».

قال جبريل لرسول الله ﷺ: لمّا قال فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] أردت أن أضربه بجناح من أجنحتي فأبلغه الأرض السابعة، فناداني عزّ وجلّ: «أما علمت أنّه لا يفوتني شيء، وعزّتي وجلالي لأمهلنّه سبعين سنة لا أريه فيها مكروهاً».

قال عبد الملك: قال خلّاد بن سليمان: سمعت إبراهيم يقول: مكث فرعون أربعمائة سنة ما قد صدع له فيها رأس، والشباب يغدو إليه ويروح.

وجاء عن أبي هريرة أنّ فرعون قال لهامان: «إنّ موسى يعرض عليّ إن آمنت بربّه أن يبقي لي شبابي وملكي ما دمت في الدنيا ثمّ إذا متّ صرت إلى الجنّة». فقال له هامان: «بينما أنت تعبد أردت أن تكون عبداً؟». فردّه عن رأيه. وهكذا يكون صاحب السوء القرين الخبيث المؤذي.

ومن أجل ذلك قال الحكيم: إيّاك وكلّ جليس لا تستفيد منه خيراً لا تجالسه قريباً كان أو بعيداً.

قال الشاعر: [الطويل]

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مُقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُم ... وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

وقال آخر: [الهزج]

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى ... حَلِيماً حِينَ وَاخَاهُ

يُقَاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إِذَا مَا المَرْءُ مَاشَاهُ
كَحَذْوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِذَا مَا النَّعْلُ حَاذَاهُ
وَلِلشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ عَلَامَاتٌ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى القَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

واعلم أنّ كلّ ما شغلك عن الله من أهل أو مال فهو عليك مشؤوم. بلغني عن الحسن البصري أنه تلا يوماً قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ثمّ قال: وأيم الله لو أنّ الناس إذا ابتلوا من قبل سلاطينهم صبروا وشكروا لأوشكوا أن يفرّج الله عنهم؛ كما فرّج عن بني إسرائيل، ولكنّهم فزعوا إلى السيف فوكلوا إليه.

وروينا عن عبد الرحمٰن بن زيد أنّ موسى عليه السلام قال: «أي ربّ إنّك مننت عليّ بكلامك ومناجاتك دون بني آدم ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]». قال: «يا موسى إنّك لن تطيق ذلك؛ كم بينك وبين خلق هذا الجبل في الشدّة؟» قال: «كثير يا ربّ». فقال: «أنظر إلى هذا الجبل إذا تجلّيت له ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]». يقول: إن أطاق هذا الجبل على شدّته وقوّته النظر إليّ فسوف تطيق أنت على ضعف خلقك النظر إليّ. فأنزل الله على موسى ملائكة أمثال الجبل ليربطوا على قلبه فجعلوا يقولون له حين نزلوا إليه فوجاً فوجاً: «يا موسى لقد سألت الله عظيماً».

قال ابن عبّاس: أمرت الظلمة والرعد فأحاطت بالجبل أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، وهو جبل يقال له زبير من جبال مدين أعظم جبل كان بمدين ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قال ابن عبّاس: ساخ في الأرض حتّى ما رئي، وانفلقت منه فلقة فطارت حتّى عادت بالحرم.

وكان قتادة وعكرمة يقولان في قول الله عزّ وجلّ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] لأنّ بعضه على بعض حتى صار أرضاً مستوية ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلولا ما أنزل الله على موسى من الملائكة يربطون قلبه لانخلع وما بدا من نور الله عزّ وجلّ إلّا مثل جناح البعوضة.

قال ابن عبّاس: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] لا أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني أوّل المصدّقين من قومي أنّ أحداً لا يراك في الدنيا.

قال ابن زيد: لمّا أفاق موسى عليه السلام علم أنّ الّذي سأل معصية، فتاب واستغفر.

قال: وأمّا قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فإنّ اللّه كتبها لموسى بيده. ويقال إنّها كانت من زمرّدة خضراء كتبها له بيمينه وموسى يسمع صوت القلم كتب له فيها عشر كلمات، يعني عشر سور، في كلّ لوح كلمة، يعني سورة.

ـ فأوّل الكلمات: أنا اللّه لا إله إلّا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئاً فإنّه حقّ القول منّي لتلفحنّ وجوه المشركين النار.

ـ الثانية: واشكرْ لي ولوالديك أنسئ لَكَ في عمرك وأفكّ المتالف وأحييك حياةً طيّبةً.

ـ الثالثة: ولا تقتل النفس الّتي حرّم اللّه إلّا بالحقّ فتضيق عليك الأرض برحبها والسماء بأقطارها.

ـ الرابعة: ولا تحلِفْ باسمي آثماً ولا كاذباً فإنّي لا أطهّر ولا أزكّي من لم ينزهني ولم يعظّم اسمي.

ـ الخامسة: ولا تشهد بما لم يع سمعك ولم يحفظ عقلك ولم يعقد عليه قلبك، فإنّي موقف أهل الشهادات يوم القيامة على شهاداتهم.

ـ السادسة: ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدّنّ إلى ذلك عينيك، فإنّ الحاسد عدوّ نعمتي مضادّ لقضائي ساخط لقسمي الّذي أقسم بين عبادي.

ـ السابعة: ولا تزنِ ولا تسرقْ فأحجب عنك وجهي وأغلق دون دعوتك أبواب سمائي.

ـ الثامنة: ولا تزنِ بحليلة جارك فإنّه كبر مقتاً عندي.

ـ والتاسعة: وأحبب للناس ما تحبّ لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك.

قال عبد الملك بن حبيب: وحدّثنا عن المغيرة عن الأعمش أنّ رجلاً قال، وهو عبد اللّه بن مسعود: أعطي بنو إسرائيل ما لم يُعْطَ أحد؛ كان أحدهم إذا أصاب الذنب كتب له ما يكفّره.

قال ابن مسعود: أعطيتم أنتم أفضل ممّا أعطوا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]. ثمّ قال: وكان أحدهم إذا أصابتهم جنابة بمكان لا ماء فيه لم يجزه إلّا الغسل بالماء، وأعطيتم أنتم التيمّم مكان الماء إذا لم تجدوا ماءً، ثمّ جعل اللّه لكم الأرض تصلّون منها حيث شئتم، وكان من قبلكم لا يصلّون إلّا في كنائسهم ومساجدهم.

وحدّثنا أبو القاسم عن يوسف بن أبي ظبية عن السريّ بن حيّان عن بعض مشايخه أنّ اللّه عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام: «إنّ فلانة السوداء رفيقتك في الجنّة». فخرج موسى عليه السلام في طلبها فطلبها في أشرف الناس وسراتهم فلم يجدها فأوحى اللّه إليه: «يا موسى بن عمران أما علمت أنّ أهل ولايتي ومحبّتي وسكّان جنّتي إنّما هم من أهل الضعة والفاقة وليسوا من أهل الشرف والغنى». فخرج موسى عليه السلام يطلبها ويسأل عنها حتّى وجدها قاعدةً على تلّ مزبلة، فسلّم عليها فردّت عليه السلام فقال لها: «يا أمة اللّه إنّ اللّه أخبرني أنّك رفيقتي في الجنّة، وما أرى لك من كبير عمل ظاهر، فهل عندك من عمل خفي؟». قالت: «يا موسى إنّ الفقر ليحلّ بي، فما يخطر الغنى ببالي، وإنّ البلاء لينزل بي، فما تخطر الصحّة ببالي، لا تسبق مشيئتي مشيئة اللّه عزّ وجلّ، ولا إرادتي إرادته لا ينتقل رضائي». فقال لها موسى عليه السلام: «بهذا بلغت المنزلة الّتي أعطاك اللّه».

قال عبد الملك: تبارك من أعطى هذه المرأة السوداء الضعيفة ما لم يعط كثيراً من الناس من أنبيائه وأصفيائه وأهل طاعته وهذا من فضله العظيم الّذي يؤتيه ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

حديث ذي القرنين وما كان من شأنه

حدّثنا عبد الملك بن هشام عن ابن إسحاق أنّ ذا القرنين كان من أهل مصر، واسمه فريا بن اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح.

قال ابن هشام وغيره: اسمه الإسكندر وهو الّذي بنى الإسكندريّة وإليه نسبت.

وسئل عليّ رضي اللّه عنه عن ذي القرنين فقال: لم يكن نبياً ولكنّه كان عبداً صالحاً، أعطاه اللّه القوّة وحرمه النبوّة، وإنّما أعطي ما أعطي بأربع خصال كنّ فيه: إذا حدّث لم يكذب؛ وإذا وعد لم يخلف؛ وإذا أؤتمن لم يخن؛ ولم يجمع رزق يوم لغدٍ.

سار بين المشرق والمغرب في اثنتي عشرة سنة، وذلك أنّه سخّرت له السحاب، وبسط له النور، وجعل له الليل والنهار سواء.

حدّثنا عبد اللّه بن ربعي بن مقاتل عن بعض شيوخه قال: مرّ ذو القرنين في مركب بشيخ يصلّي والناس قد ازدحموا ينظرون إلى ذي القرنين وما أعطاه اللّه، ما عدا الشيخ؛ فإنّه أقبل على عبادته ومناجاته في صلاته، فلمّا رأى ذو القرنين من إقبال الشيخ على عبادته وتركه النظر إليه ما رأى أقبل نحوه؛ ونزل عن مركبه، وقصد نحوه حتّى جلس بين يديه، فلمّا انفتل الشيخ من صلاته أقبل عليه ذو القرنين بوجهه فقال له: «ما الّذي منعك من الالتفات إليّ والنظر إلى ملكي كما نظر الناس؟». قال له: «كنت أناجي من هو أعظم منك سلطاناً؛ وأكثر جمعاً؛ وأعزّ جنداً؛ فلو أنّي تركته وصرفت وجهي إليك لم آمن أن يصرف وجهه عنّي، فأخسر حاجتي الّتي قبله». قال له ذو القرنين: «هل لك في صحبتي والكينونة معي؛ والخروج من ضيق ما أنت فيه إلى السعة؟». قال له الشيخ: «إنْ كان معك نعيم لا يزول؛ وصحّة لا سقم معها؛ وشباب لا يتبعه هرم؛ وحيّاة دائمة ليس معها موت؛ وغنى لا فقر معه ذهبت معك وآثرت صحبتك على كلّ أحد». فقال ذو القرنين: «ما أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ولا ممّا ذكرت شيئاً». قال له الشيخ: «فأنا واللّه مع من يملك هذا كلّه وأكثر منه فانقلب راشداً ولا تشغلني».

قال عبد الملك: حديث ما أنفعه وأعظم بركته؛ لقد انتفع ذو القرنين بالشيخ وما انتفع الشيخ به.

ابتداء ملك داود النبيّ ﷺ

حدّثنا عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] قال ابن عبّاس: اسم هذا النبيّ أشماويل وهو من ولد لاوي من السبط الّذي منه موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] إلى قوله: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] قال: كان التابوت من شمشمار وفيه لوح من التوراة وعصا موسى وعصا هارون وثيابهما وشيء من المنّ.

قال عبد الملك: فلمّا فصل طالوت بالجنود وكان إخوة داود في الجيش وكان داود أصغرهم سنّاً وقامةً، كان قصيراً وكان إخوته يستخدمونه في أكثر الخدمة وكان يرعى الغنم فبعثه والده إلى إخوته ليعرف حالهم فوجد إخوته في صفوف العسكر فبرز جالوت ونادى بالمبارزة فلم يخرج إليه أحد فقال داود لطالوت: «ما تفعل بمن قتل هذا الأغلف؟». قال: «أنكحه ابنتي وأعطيه ثلث مالي وثلث ملكي». قال: «فإنّي أخرج إليه». قال: «ومن أنت؟». قال: «داود بن إيشا». فأخذ داود عصاً ثمّ خرج إليه فمرّ بثلاثة أحجار فقلن له «خذنا يا داود ففينا منيّته». فأخذهنّ معه فقال جالوت: «اخترْ إمّا أن ترميني وإمّا أن أرميك». فقال له داود: «أنا أرميك». فرماه بالأحجار فأصابه أحدها.

وآتى الله داود الملك فملك وهو ابن ثلاثين سنة وأقام في ملكه سبعين سنة.

قال الحسن: وكان داود يقول في دعائه: «اللّهم لا تبتلني بمرض يضنيني، ولا بفقر يرديني، ولا بغنى يطغيني، ولكن بين ذلك».

وكان لداود ولد يسمّى أدانيا، أراد أن يولّيه بعده، فلمّا رأى حرصه على الملك بعث في سليمان فسلّكه بين يدي ناثان النبيّ، وحمله على فرسه وأجلسه على كرسيّه، وسليمان يومئذٍ ابن اثنتي عشرة سنة. فلمّا بلغ ذلك أدانيا هرب في الأرض.

فلمّا مات داود خرج سليمان مع كبراء الناس وأشرافهم لدفنه، فاشتدّ على الناس الحرّ وكان يوماً شديد الحرّ، فأرسل إلى النسور فقال لها: «أظلّي الناس

بأجنحتكنّ». ففعلت فأظلّت الأرض، فقال لها: «اقبضي جناحاً وابسطي جناحاً حتّى يجد الناس الرواح». ففعلن، فنال النسور ريح المسك في مسكهنّ. وكان لداود مائة امرأة.

ذكر سليمان بن داود عليه السلام وما أعطاه اللّه عزّ وجلّ

وحدّثني عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال: كان لسليمان ألف امرأة؛ سبعمائة مهريّة وثلاثمائة سرية. وكان له في كلّ يوم كرّ درمك وستّون كشكار وعشر بقرات مسمّنات وعشرون بقرة راعية ومائتا شاة ومن الطير والوحش شيء كثير، وكان له أربعون ألف مزواد، واثنا عشر ألف مركب، وصنع لنفسه ثلاثمائة ترس من ذهب، في كلّ ترس ستّمائة مثقال ذهب، وصنع له كرسيّ من ذهب له عمودان من ذهب.

وبنى سليمان بيت المقدس في سنة أربع من ملكه وملك أربعين سنة.

قال عكرمة: وكان لسليمان قصر أبيض من قوارير زجاج عملته له الشياطين، طوله في السماء عشرة آلاف ذراع وعرضه ألف ذراع، وله ألف ركن مزيّنة بألوان الزينة كلّها، في رأسه علم أخضر يضيء بالليل كالنار، أسفله أشدّ من الحديد وأعلاه رقيق ترى منه الشمس والقمر والنجوم لكلّ امرأة من نسائه ما يكفيها منه، يتحمّل بأهله وجنوده فيه، فيدخل تحت كلّ ركن من أركانه ألف شيطان فيضعونه على مناكبهم، فذلك ألف ألف شيطان ثمّ تأتي الريح فتحمله بأهله وجنوده فيه فتغدو به مسيرة شهر وتروح به مسيرة شهر، تتعاقبه الرياح الأربع، كلّ واحدة تحمله غدوة وروحة. وكان له على كلّ جنس من الطير ممّا يؤكل لحمه كلّ يوم عدّة من فراخ سمان.

وكان عرش بلقيس، وهو السرير، وطوله في السماء ثمانمائة ذراع، وكان على ثمانين أسطوانة مؤخّره مثل مقدّمه مكلّل بالجوهر.

فلمّا مات سليمان ملك بعده أرجيعم ثمّ خلعه قومه وملّكوا على أنفسهم بونام.

قال كعب: أقام بيت المقدس أربعمائة سنة وعشر سنين، وملكهم نحو من عشرين ملكاً، وأقام بيت المقدس خراباً سبعين سنة.

حدّثنا الحزاميّ عن أبي داود قال: بينما داود في محرابه إذ نظر إلى دودة

تدبّ ففكر فيها فقال: «ما يعبأ اللّه بخلق مثل هذا؟». فأنطقها اللّه الّذي أنطق كلّ شيء فقالت له: «يا داود أعجبتك نفسك؟ لأنا واللّه على قدر ما أنا أذكر للّه منك وأشكر».

قال ابن مسعود: كان ممّا وصى داود سليمان: «يا بنيّ اتقّ باب بيت المقدس فإنّ أوّل كلامها أحلى من العسل وألين من الزبد، وإنّ آخر كلامها أمرّ من الصبر وأحدّ من مسامير الحديد، وباب بيتها مثل باب جهنّم».

ومن أخبار سليمان عليه السلام

قال ابن عبّاس: كان سليمان عليه السلام قد أصاب ذنباً فعجّل اللّه تبارك وتعالى عقوبته في الدنيا فابتلي بصخر الجنّي حين نزع خاتمه عند دخول الخلاء وعند جماع النساء. فتصوّر صخر في صورة بعض نسائه التي كان يعطيها ذلك فأخذ الخاتم ولبسه وخرج إلى الناس وجلس على كرسيّ سليمان، فلمّا خرج سليمان من الخلاء طلب الخاتم من بعض نسائه فقال: «ألم أعْطكه؟». قالت: «لا». فذكر سليمان خطيئته، بنفسه وقد سلبه اللّه ملكه وعزّه، وذلك أنّ الخاتم كان عزّه وطاعته، لأنّ اللّه تبارك وتعالى كان جعله لآدم في الجنّة عزّاً، وكان من ياقوتة أشدّ بياضاً من الفضّة ولمعانه مثل البرق الخاطف وقال لآدم: «البسه ما أطعتني فإن عصيتني سلبتكه ورفعته لولدك سليمان يعزّه ويعتزّ به». قال: فتنكّرت حالته وجعل لا يعرفه أحد من الناس، وجعل يطوف بالقرى ويستطعم الناس حتّى خلص إليه الجوع والحاجة، فجعل يكشف نفسه ويقول: «أنا سليمان بن داود النبيّ». فيغضب عليه ويرمى بالحجارة، حتّى لقدكانت العجوز من بني إسرائيل تتفل في وجهه غضباً عليه وإنكاراً له. فلمّا تاب اللّه عليه وغفر ذنبه، تعظّم صخر في نفسه وتجبّر، فكان يأتي نساء سليمان في حيضهنّ فأنكرن ذلك منه وقلن: «ليس هذا من فعل نبيّ اللّه ولا من صفته».

وكان سليمان يؤاجر نفسه عند الملاّحين، بنقل السمك من السفن، وأجرته سمكتين في كلّ يوم؛ يأخذ في الواحدة خبزاً ويشوي الثانية، حتّى خرج خاتمه في إحداهما فلمّا رآه عرفه، فخرّ للّه ساجداً حامداً له شاكراً لمّا غفر له ذنوبه وردّ إليه ملكه. فلمّا لبسه التفت إليه الملاّحون فعرفوه، فأقبلوا إليه فسجدوا للّه ربّ العالمين. فقال: «ما أحمدكم ولا أذنّبكم على ما كنتم تعملون». وأقبل سليمان إلى ملكه وعرفه الناس واستبشروا به واستغفر ربّه. فعند ذلك قال: «ربّ ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [صٓ: ٣٥]». فسخّر اللّه له الريح وسخّر له

الشياطين وسخّر له صخراً أيضاً معهم الّذي كان سلبه خاتمه وصار في حكمه ولم يكن له عليه سبيل قبل ذلك. فأخذه سليمان عليه السلام فشدّه بالنحاس وألقاه في البحر ومكث سليمان في ملكه حيناً راضياً بقضاء ربّه حتّى قبضه اللّه عزّ وجلّ.

عدّة ما كان بين التوراة والزبور وبين الزبور والإِنجيل وبين الإِنجيل والفرقان

قال عبد الملك بن حبيب: كان بين نزول التوراة إِلى نزول الزبور خمسمائة سنة وبين الزبور إلى الإِنجيل خمسمائة سنة وبين الإِنجيل إِلى نزول الفرقان خمسمائة سنة.

وأجمع أهل الحديث أنّ الدُّنيا كلّها من يوم خلق اللّه آدم إِلى انقضائها وانقضاء الخلق فيها سبعة آلاف سنة وأنّه قد مضى منها ستّة آلاف سنة لا محالة.

قال عبد الملك: عاش آدم ألف سنة وكان بينه وبين نوح ألف سنة، فهذه ألفا سنة. وعاش نوح ألف سنة وكان بينه وبين إِبراهيم ألف سنة فهذه أربعة آلاف سنة. ثمّ كان بين إِبراهيم إِلى أن أنزل اللّه التوراة على موسى ألف سنة فهذه خمسة آلاف سنة. ثمّ كان بين التوراة والزبور خمسمائة سنة وبين الزبور والإِنجيل خمسمائة سنة فانغلق الألف السادس، ومضى من عيسى إِلى محمّد ﷺ وعليهم أجمعين خمسمائة سنة.

وسأصف ما مضى من الخمسمائة الباقية إِنْ شاء اللّه. فبقي من إِغلاق الخمسمائة الّتي بها تنغلق السبعة آلاف سنة في رواية ابن حبيب نحو مائتي سنة وفي رواية غيره أكثر.

ذكر بعضهم أنّ من آدم إِلى نوح ألفان ومائتا سنة، ومن نوح إِلى إِبراهيم ألف ومائتان وأربعون سنة، ومن إِبراهيم إِلى موسى خمسمائة سنة وخمس وستّون سنة، ومن موسى إِلى داود خمسمائة سنة وتسع وتسعون سنة، ومن عيسى إِلى محمّد صلّى اللّه عليهم أجمعين خمسمائة سنة، واللّه أعلم أيّ ذلك أصحّ.

حديث عيسى ابن مريم عليه السلام

قال عبد الملك: هو عيسى وهو المسيح، مخفّفة السين، من السياحة وقيل: بل مسحه اللّه بالبركة وكانت في خصلة لم تكن في غيره؛ ولد عالماً ولم يُعلم في الأرض أحد ولد عالماً غيره.

وروى الكلبيّ عن ابن عبّاس أنّه قال في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] قال: هذا وحي إلهام وليس وحي نبوّة، ومثله في القرآن كثير ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [المائدة: ١١١] ألقى ذلك في قلوبها وليس هو من الوحي.

وكان عيسى عليه السلام سائحاً ليس له قرار، وكان الناس يتبعونه فيما بين مستشف بدعائه، وبين ناظر إلى عجائبه، وبين متبرّك بصحبته، ومعهم أزوادهم ونفقاتهم، فأخذ بهم عيسى عليه السلام على البراري والقفار، حتّى نفدت أزوادهم وأصاب الناس مجاعة.

وكان عيسى عليه السلام قد قال: «يا بني إسرائيل هل لكم أن تصوموا للّه ثلاثين يوماً، ثمّ تسألونه فيعطيكم ما سألتموه، فإنّ أجر العامل على من عمل له». ففعلوا وقد نفدت أزوادهم ومسّهم الجوع. فقالوا للحواريّين: إنّ صاحبكم هذا يأتي بالأعاجيب فلو سألتموه أن يسأل اللّه لنا رزقاً يطعمنا فقد ترون حالنا. فأتاه الحواريّون فقالوا له: «يا روح اللّه إنّك قد قلت لنا إنّ أجر العامل على من عمل له فأمرتنا بالصيام فصمنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلّا أطعمنا يوم نفرغ طعاماً؛ فهل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا؟». فقام عيسى عليه السلام فألقى عن نفسه ثياب الصوف ولبس ثياب الشعر ثمّ استقبل القبلة ووضع يده اليمنى على اليسرى ثمّ وضعها على صدره وصفّ قدميه وألصق الكعب بالكعب والإبهام بالإبهام ثمّ طأطأ رأسه خاشعاً للّه ثمّ سالت عيناه بالدموع ثمّ دعا اللّه عزّ وجلّ فأنزل اللّه عليه المائدة وكانت سفرة من أدم حمراء فأقبلت الملائكة بها تحملها بين غمامتين؛ غمامة من فوقها وأخرى من تحتها والناس ينظرون إليها حتّى استقرّت السفرة بين يديه وهي مغطّاة بمنديل ثمّ

قال عيسى: «بسم الله وبالله». فكشف المنديل عنها فإذا سمكة مشوية ليس عليها قشور ولا شوك حولها البقول والخضر وعند رأسها خلّ وعند ذنبها ملح وخمسة أرغف على كلّ رغيف زيتون وخمس رمّانات وتمرات. فاستغنى كلّ فقير أكل منها وبرئ كلّ سقيم ثمّ إنّهم كفروا بعد ذلك فلعنهم عيسى عليه السلام فمسخ الله منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً.

وقد جاء في الحديث: «إنّ الأسواق موائد الله في أرضه فمن أتاها أصاب منها».

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

حديث قصيّ بن كلاب بن مرّة وما كان من شأنه وشأن ولده

قال ابن إسحاق: لمّا كبر قصيّ كان عبد الدار أكبر ولده وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه فقال قصيّ لعبد الدار: «والله لألحقنّك بالقوم ولأشرّفنّك عليهم فلا يدخل الكعبة رجل منهم حتّى تكون أنت تفتحها له ولا يعقد لقريش لواء إلّا أنت بيدك ولا يشرب رجل بمكّة إلّا من سقايتك ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلّا من طعامك ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلّا في دارك». فأعطاه داره دار الندوة وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة.

قال ابن إسحاق: وكان قصيّ قد ملك مكّة وملك على قومه وعلى أهل مكّة.

وفيه يقول الشاعر: [الطويل]

قُصَيٌّ لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعاً بِهِ جَمَّعَ اللَّهُ القَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ

قال ابن هشام: ثُمّ ولد لعبد المطّلب جدّ رسول الله ﷺ عشرة من الولد: منهم العبّاس وحمزة وعبد الله والزبير والحارث وأبو لهب واسمه عبد العزّى والمقوّم وضرار وأبو طالب. فأمّا العباس وحمزة فهما أسلما من أعمامه، وعبد الله هو والد النبيّ ﷺ، والحارث هو أكبر ولد عبد المطّلب وبه كان يكنى عبد المطّلب؛ واسم عبد المطلب شيبة بن هاشم؛ واسم هاشم عمرو، وإنّما سمّي هاشماً لهشمه الثريد زمان المحل.

ومن النساء صفيّة وليلى.

حديث هاشم بن عبد مناف وولده عبد المطلب جدّ رسول الله ﷺ

قال ابن هشام: ثمّ ولي السقاية والرفادة هاشم بن عبد مناف، وكان هاشم فيما يزعمون أوّل من سنّ الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، وكان اسمه

عمرو فسمّي هاشماً لهشمه الخبز وإطعامه الثريد بمكّة، ولذلك قال الشاعر: [الكامل]

كَانَتْ قُرَيْشُ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَالمُحُّ خَالِصُه لِعَبْدِ مَنَافِ
عَمْرُو الَّذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

قال ابن هشام: ثمّ هلك هاشم فولي السقاية والرفادة بعده عبد المطلب. وكانت قريش قد سمّته الفيض لسخائه وفضله. ثمّ مات فرثاه رجل من العرب فقال: [الرجز]

قَدْ ظَمِىءَ الحَجِيجُ بَعْدَ المُطَّلِبْ بَعْدَ الجِفَانِ وَالشَّرَابِ المُنْثَعِبْ

قال ابن إسحاق: وأقبل عبد المطّلب آخذاً بيد ولده عبد اللّه، وهو والد النبيّ ﷺ. فمرّ به على امرأة من بني أسد فنظرت إلى عبد اللّه وبين عينيه غرّة من نور كغرّة الفرس فدعته إلى نفسها ليقع بها فقال لها: «أنا مع أبي ولا يمكنني مفارقته». فمضى حتّى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذٍ سيّد بني زهرة سنّاً وشرفاً، فزوّجه آمنة ابنته، فدخل عليها من ساعته فحملت برسول اللّه ﷺ، ثمّ خرج من عندها فمرّ بالمرأة التي عرضت عليه نفسها فتعرّضها وقال لها: «هل لك فيما دعوتني إليه بالأمس؟». فقالت: «لا قد فارقك النور الّذي كان بين عينيك، فوقعت بآمنة فلا حاجة لي بك».

مولد النبي ﷺ
وما كان من شأنه إلى أن هاجر

حدّثنا عبد الملك عن الحزاميّ عن الواقديّ، وعبد الملك بن هشام عن ابن إسحاق أنّ أمّ النبيّ ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وأمّها أمّ حبيبة بنت أسد.

فرسول اللّه ﷺ أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمّه(١).

(١) قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» [رواه مسلم]، وقال: «إن اللّه خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير القبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» [رواه الترمذي].

وقال أبو طالب يمدح النبيّ ﷺ: [الطويل]

وأَبْلَجُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوَجْهِهِ ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَرَامِلِ(١)

والبلج: هو أن ينقطع الحاجبان فيكون ما بينهما نقياً من الشعر. يقال: رجل أبلج وامرأة بلجاء.

قال ابن عبّاس: فكانت آمنة تقول: حملت برسول الله ﷺ فما حملت قط حملاً أخفّ منه، ورأيت قبل ولادته كأنّ نوراً خرج منّي أضاء ما بين المشرق والمغرب، وقيل لي في المنام: «إنّكِ حملت بسيّد ولد آدم، فإذا وقع في الأرض فقولي: [من الرجز]

أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد

وسمّيه محمّداً فإنّ اسمه في التوراة محمّد». فقالت: «فوالله ما وقع من بطني كما يقع الصبيان؛ لقد وقع ساجداً بالأرض رافعاً بصره إلى السماء».

وحدّثني عن الحزاميّ عن الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ ولد عام الفيل يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل، وتوفّيت أمّه آمنة وهو ابن ستّ سنين.

ولقد مرّ بقبرها وقبر أبيه بعد النبوّة فلمّا نظر إلى قبريهما واقعته الرقّة والتحنّن فاغرورقت عيناه بالدموع وتنفّس الصعداء وقال: «يا ليت شعري ما فعل أبواي». فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩] فما سأل عنهما بعد ذلك حتّى لقي الله عزّ وجلّ.

نبّأ الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ وهو ابن أربعين سنة. فدعا الناس إلى أن يقولوا: لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله ولهم الجنّة. فأجابه من أجاب إلى لا إله إلّا الله، والفرائض لم تنزل بعد. فمن مات قبل نزول الفرائض فهو من أهل

(١) أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق وأغدودق، وانفجر الوادي واخصب النادي والبادي وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال ما قال.

الجنّة. ثمّ أنزل اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥] فصلّى ركعتين غدواً وركعتين عشيّاً من غير فرض في ركوع ولا سجود ولا وضوء. فمضى الناس على ذلك، وهذه كانت صلاة الأنبياء صلّى اللّه عليهم أجمعين؛ حتّى أسرى اللّه تبارك وتعالى برسول اللّه ﷺ إلى السماء، فافترض تعالى الخمس صلوات.

قال ابن عبّاس: فكان كفّار قريش يحجّون في ذلك الزمان يبتغون بذلك الفضل في معايشهم لا في أخراهم لأنّهم كانوا كفّاراً وإنّما كانوا يحجّون ويعتمرون ويدعون اللّه ليصلح لهم دنياهم ومعاشهم فأمّا الآخرة فكانوا لا يؤمنون بها.

فلمّا فرض اللّه عزّ وجلّ الفرائض والحدود وقوي الإسلام وكثر أهله أنزل اللّه عزّ وجلّ على نبيّه عليه السلام: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] يعني الفرائض: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فصار رضى اللّه في كمال الإسلام وتمامه.

ومن أجل هذا بكى عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه حين أنزلت هذه الآية فقال رسول اللّه ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟». فقال: «يا رسول اللّه إنّا كنّا في زيادة من ديننا حتّى أكمله اللّه، فأمّا إذ كمل فإنّه لا يكمل شيء إلّا نقص». قال: «صدقت»[١].

قال الزهريّ: فمن قال، لا إله إلّا اللّه محمّد رسول اللّه بعد نزول الفرائض ولم يعمل بها لم تُغْنِ عنه «لا إله إلّا اللّه محمّد رسول اللّه» شيئاً، ومن عمل بالفرائض ولم يقلها لم تُغْنِ عنه الفرائض شيئاً.

ومنه قول النبيّ ﷺ: «لا تزال «لا إله إلّا اللّه» تدفع عن قائلها، حتّى إذا لم يبالِ ما دخل عليه في أمر آخرته إذا سلمت له دنياه لم تدفع عنه «لا إله إلّا اللّه» شيئاً».

وروى الحسن أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ «لا إله إلّا اللّه» كلمة كريمة على اللّه، فمن قالها مخلصاً دخل الجنّة، وأيم اللّه لا يقولها مخلصاً إلّا من حجزته عن المعاصي».

---

(١) رواه أحمد في المسند ج (٣) ص (١٤٠).

صفة رسول الله ﷺ وأخلاقه الرّضيّة وأفعاله الجميلة وكيف كان قيامه وقعوده ومنطقه وسكوته وكيف كان في ليله ونهاره وسيره مع أصحابه رضي الله عنهم وحشرنا معهم

حدّثنا أبو الحسن في مسجد بيت المقدس عن أبي عبد الله عن سفيان قال: حدّثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمٰن بن أبي جعفر العجليّ قال: حدّثنا رجل من بني تميم من ولد أبي هالة عن أبي هالة، وكان وصّافاً لحلية رسول الله ﷺ عن حليته، وأنا أشتهي أنْ يصف لي منها شيئاً أتعلّق به، قال: كان رسول الله ﷺ قسيماً وسيماً مفخّماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من الصِفْتات المشذّب، عظيم الهامة، رَجْلُ الشعر، إنْ انفرقتْ عقيقته فرق وإلّا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره. أبلج الحاجبين، قليل لحم الناظرين، أقنى العرنين، له نور يعلوه وكأنّ عنقه إبريق فضّة أو جيده جيد دمية في صفاء الفضّة، معتدل الخلق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، كثّ اللحية، سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب، مفلّج الأسنان، دقيق المسربة، شثن الكفّين والقدمين، عاري الثندوتين، إذا زال زال معاً وإذا مشى تكفّأ كأنّما ينحطّ من صبب، إذا التفت التفت معاً لا تغضبه الدنيا ولا ما كان منها ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب اتّصل بها، وإذا غضب أعرض وأشاح. وإذا فرح غضّ طرفه، وإذا ضحك تبسّم، وإذا دخل منزله جزّأ دخوله على ثلاثة أجزاء: جزءاً لنفسه وجزءاً لأهله، ثم يقسم جزءه بينه وبين الناس يساوي بين الخاصّة والعامّة ولا يدّخر عنهم شيئاً في حوائجهم ويحدّثهم بالّذي يصلحهم ويرشدهم ويقول: «ليبلغ الشاهد الغائب». وكان يخزن لسانه إلّا ممّا يعنيه، ويكرم كريم كلّ قوم يؤلّف بين الناس ولا ينفّرهم، أعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مواساة ومؤازرة، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة؛ لا ترتفع فيه الأصوات، يوقّر فيه الكبير ويرحم فيه الصغير ويحفظ فيه الغائب.

وكان ﷺ دائم البشر، سهل الخلق ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مزّاح، قد ترك نفسه من ثلاثة: المراء وما لا يعنيه والإكثار، وترك الناس من ثلاثة: كان لا يذمّ أحداً ولا يعيّره ولا يطلب عورته ولا يتكلّم إلّا فيما رجا ثوابه، إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنّما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلّموا ولا يتنازعون عنده الحديث، يصبر للغريب على جفوته وللأعرابي في لفظه وعجرفته. وكان يقول: «إذا رأيتم طالب الحاجة فأرشدوه وارفدوه فإنّ طالب

الحاجة مبهوت لا يكاد يرشد للصواب». وكان يأخذ بالحسن ليقتدى به، ويترك البذاء، والخنا ليتناهى الناس عنه. وإذا حدّث أعاد، وإذا وعظ جدّ، وإذا دامت المقالة عظّم النعمة، لا يذمّ أحداً، فإذا أوذي أعرض وأشاح، وإذا رأى ما يسرّه تهلّل وجهه وغضّ طرفه يفترّ عن مثل حبّ الغمام ﷺ.

تفسير ما جاء في وصف رسول الله ﷺ من الكلام العجيب

أمّا قوله في صفته عليه السلام إنّه كان: «وسيماً قسيماً» فالوسامة والقسامة: الحسن في الوجه والضياء. تقول العرب: «إنّه لوسيم الوجه وقسيم الوسامة». والقسامة: أي بين الحسن والجمال والضياء والبهاء. وأمّا «الصفتات» و«المشذّب» فالممشوق والممتلئ. وقوله: «وجهه كالبدر» يريد أنّه مدوّر الوجه له ضياء كالبدر، يعني القمر ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة؛ فالقمر في هذه الثلاث ليال بدر، ولا يسمّى بدراً في غير هذه الثلاث.

وأمّا قوله: «عاري الثندوتين» يعني موضع الثديين من المرأة. فالثديان للمرأة والثندوتان للرجل. وقوله: «أبلج الحاجبين» البلج هو أن ينقطع الحاجبان فيكون ما بينهما نقيّاً من الشعر، والعرب تستحسنه وتمدح به ويكرهون القرن.

وأُنشد لأبي طالب يمدح رسول الله ﷺ: [الطويل]

وَأَبْلَجُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

وأمّا قوله: «أزجّ الحاجبين» يعني دقّتهما وسنوعهما مع تقويسهما إلى مؤخر العينين. فقال: «رجل أزجّ وامرأة زجّاء وقوم زجّ الحواجب». وقالوا: «حاجب مزجّج».

وأُنشد للعجاج:

وَفَاحِماً وَحَاجِباً مُزَجَّجَا

وقد يزجّج بعض النساء حواجبهنّ بالإثمد، يعني يطوّلنهنّ حتى تتقوّس وتسودّ.

وأمّا قوله: «قليل لحم الناظرين»، فالناظران عرقان في العينين يسقيان الأنف؛ كلّ واحد منهما ناظر. وأنشد لعتيبة بن مرداس: [الطويل]

قَلِيلَةُ لَحْمِ النَّاظِرَيْنِ يُزَيِّنُهَا شَبَابٌ وَمَخْفُوظٌ مِنَ الْعَيْنِ بَارِدُ

وقوله: «أتلع الجيد»، فالتلع: التمّام، والجيد: العنق. وأمّا قوله: «ريّان الوجه» فالريّان الّذي قد ارتوى من الحسن.

وأمّا قوله: «غير مختلج» فالمختلج الضامر. قال الشاعر: [الكامل]

وَتُرِيكَ وَجْهاً كَالصَّحِيفَةِ لَا ظَمْآنُ مُخْتَلِجٌ وَلَا جَهْمُ

والجهم: الوعر، والظمآن: المهزول.

وأمّا قوله: «إذا حدّث أعاد وإنْ وعظ جدّ» يعني اشتدّ في موعظته بلا استرخاء، وقوله: «إذا أُوذي أعرض وأشاح» يعني ذهب معرضاً نافراً مولّياً.

باب خروج النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة(١)

قال عبد الملك: حدّثني الحزاميّ عن الواقديّ أنّ النبيّ ﷺ أقام بمكّة عشر

---

(١) تتميماً للفائدة سنذكر بعض الحوادث التي جرت مع النبي ﷺ من ميلاده إلى مبعثه:

من الميلاد حتى البعثة

- **١٢ ربيع الأول ٥٣ قبل الهجرة الموافق ليوم الاثنين ٢٠ نيسان عام ٥٧١ للميلاد، ولادة النبي محمد ﷺ.**
- **٤ لمولد النبي ﷺ:** حادثة شق الصدر وعودة النبي ﷺ إلى أمه.
- **٦ للمولد:** وفاة أمه آمنة بنت وهب بالأبواء ودخوله في كفالة جده عبد المطلب.
- **٨ للمولد:** وفاة جده ودخوله في كفالة عمه أبو طالب.
- **١٢ للمولد:** ذهابه مع عمه إلى الشام **وقصته مع الراهب بحيرا.**
- **١٥ للمولد:** وقوع حرب الفجار بين قريش وكنانة ضد قيس عيلان، وعقد حلف الفضول.
- **٢٥ للمولد:** ذهابه بتجارة لخديجة إلى الشام، وزواجه بخديجة بنت خويلد رضي الله عنها بعد عودته بشهرين.
- **٣٠ للمولد:** ولادة بنته زينب رضي الله عنها.
- **٣٥ للمولد:** السيول تجرف الكعبة، والنبي ﷺ يساعد في بناء الكعبة، وقصة الحجر الأسود.
- **٣٧ للمولد:** بدء خلوه بغار حراء.
- **٣٩ للمولد:** ولادة بنته أم كلثوم رضي الله عنها.
- ولادة بنته أم كلثوم رضي الله عنها.
- **٤٠ للمولد:** ولادة بنته فاطمة رضي الله عنها.
- بداية الرؤيا في المنام في شهر ربيع الأول لمدة ٦ أشهر.
- بدء الوحي ودخول السنة الأولى للبعثة وذلك يوم الاثنين في ٢١ رمضان ليلاً من السنة =

سنين بعد أن نبّأه اللّه عزّ وجلّ وتزوّج بها خديجة قبل النبوّة. فولد له منها الطيّب والطاهر والقاسم وزينب ورقيّة وفاطمة وأمّ كلثوم.

= الثالثة لعزلته ويوافق ١ آب ٦١٠م.

من البعثة حتى الهجرة.

ـ **١ للبعثة**: بدء نزول القرآن (أول خمس آيات من سورة العلق).

ـ إسلام خديجة بنت خويلد رضي اللّه عنها.

ـ نزول سورة المدثر.

ـ **٢ للبعثة**: بدء الدعوة السرية.

ـ إسلام طائفة من الصحابة.

ـ تسامع قريش بأخبار المسلمين وبلوغها الخبر إجمالاً.

ـ **٣ للبعثة**: استمرار الدعوة السرية.

ـ دعوة العشيرة الأقربين.

ـ وقوفه على الصفا ودعوته قريشاً.

ـ فرضية الوضوء أول فرائض الإسلام.

ـ اجتماع المسلمين على صلاتي الغداة والعشي.

ـ أول دم يراق في الإسلام.

ـ **٤ للبعثة**: إعلان الدعوة في قريش.

ـ إعلان أبو طالب حمايته للنبي ﷺ.

ـ الاجتماع في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ـ بدء إيذاء المسلمين واضطهادهم من قبل قريش.

ـ وفاة أول شهيدين في الإسلام تحت التعذيب ياسر وسمية، ووفاة ثويبة.

ـ وفاة عبد اللّه ابن النبي ﷺ.

ـ محاولات قريش مفاوضة النبي لترك الدعوة.

ـ كف الحجيج عن الاستماع للنبي واتهامهم إياه بالسحر.

ـ **٥ للبعثة**: اشتداد الأذى على المسلمين.

ـ الهجرة الأولى إلى الحبشة (١٢ رجل و٤ نسوة).

ـ محاولات قريش لاستعادة المسلمين.

ـ بدء الدعوة في الحبشة.

ـ **٦ للبعثة**: قريش تهدد أبا طالب، وتعرض عليه مبادلة النبي ﷺ.

ـ الجهر بالدعوة وبالقرآن في مكة.

ـ إسلام حمزة وعمر رضي اللّه عنهما.

ـ ممثل قريش يفشل في مفاوضة النبي ﷺ.

ـ عودة بعض المهاجرين من الحبشة.

ـ **٧ للبعثة**: الهجرة الثانية إلى الحبشة.

=

وتزوّج عائشة بمكّة قبل متوفى خديجة وهي يومئذٍ ابنة ستّ سنين، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين.

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ قال: قدم رسول اللّه ﷺ المدينة يوم الاثنين، فأقام بها يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء والخميس، ودخل من قباء يوم الجمعة، فجمّع في بني سليم، فكانت أوّل جمعة جمّعها رسول اللّه ﷺ في الإسلام. وكان رسول اللّه ﷺ يمرّ بدور الأنصار داراً داراًيدعونه إلى النزول والمواساة فيقول لهم خيراً ويقول: «خلّوا ناقتي فإنّها مأمورة». حتّى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، وإن المسلمين قد بنوا مسجداً يصلّون فيه فبركت ناقته عنده، فلمّا خرج رسول اللّه ﷺ من المسجد تعلّقت به الأنصار، فقال رسول اللّه ﷺ: «المرء مع رحله». وكان أبو أيّوب الأنصاريّ قد أخذ رحله فنزل على أبي أيّوب.

= ـ بدء الحصار الاقتصادي على المسلمين وتعليق الصحيفة الجائرة في جوف الكعبة.
ـ **٨ للبعثة**: استمرار الحصار، وتعاطف حكماء قريش مع المسلمين.
ـ دخول جماعة من نصارى نجران في الإسلام.
ـ **١٠ للبعثة**: ويسمى عام الحزن.
ـ فك الحصار ونقض الصحيفة.
ـ آخر وفد إلى أبي طالب قبل موته.
ـ وفاة أبو طالب في رجب، وخديجة بعده بثلاثة أيام.
ـ زواجه بسودة بنت زمعة في شوال.
ـ إيذاء النبي ﷺ في جسمه الشريف بعد موت عمه.
ـ ذهابه إلى الطائف للدعوة وما لقيه من الأذى.
ـ إيمان نفر من الجن.
ـ دخول النبي مكة بجوار المطعم بن عدي.
ـ دخول جماعة من أهل المدينة في الإسلام في موسم الحج.
ـ **١١ للبعثة**: استمرار الدعوة بجوار المطعم بن عدي.
ـ معجزة الإسراء والمعراج.
ـ فرضية الصلوات الخمس.
ـ بيعة العقبة الأولى (١٢ رجل).
ـ إرسال أول سفير في الإسلام إلى المدينة مصعب بن عمير.
ـ **١٢ للبعثة**: أول جمعة تقام في الإسلام.
ـ بيعة العقبة الثانية (٧٣ رجل وامرأتان).
ـ شيطان يكشف المعاهدة وقريش تحتج.
ـ بدء الهجرة إلى المدينة.

قال: وفي هذه السنة توفي أسعد بن زرارة ودفن بالبقيع، فهو أوّل ميّت صلّى عليه النبيّ ﷺ. صلّى عليه صفوفاً وكبّر أربعاً.

وقدم رسول اللّه ﷺ المدينة وهو يصلّي ركعتين والناس معه.

ثمّ قال يوماً: «أيّها الناس اقبلوا فريضة ربّكم». فأتمّت الصلاة أربعاً للمقيم، وأقرّت صلاة المسافر لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر بعد مقدمه بشهر، لم يختلف الناس في ذلك.

قال الواقديّ: وفي هذه السنة وجد رسول اللّه ﷺ اليهود يصومون يوم عاشوراء. فقال لهم: «ما هذا؟». قالوا: «يوم صالح، فيه أنجى اللّه موسى وغرّق فرعون فصامه، فنحن نصومه. فقال رسول اللّه ﷺ: «نحن أحقّ بصيامه منكم» فصامه وأمر به[1].

السنة الثانية من الهجرة

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ أنّ في هذه السنة تزوّج عليّ رضي اللّه عنه فاطمة رضي اللّه عنها.

وفيها كانت فريضة رمضان في شهر شعبان وذلك أنّه زار أمّ بشر في بني سلمة فصنعت له طعاماً ولأصحابه فتغذّوا، ثمّ حانت الظهر فصلّى رسول اللّه ﷺ بأصحابه القبلتين ركعتين إلى الشام، ثمّ أمر أن تستقبل القبلة وهو في الركعة الثالثة، فاستدار رسول اللّه ﷺ حتّى جعل وجهه إلى القبلة إلى الكعبة واستدارت الصفوف خلفه، ثمّ صلّى الركعتين الباقيتين، فسمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

وفي هذه السنة كانت وقيعة بدر صبيحة يوم الجمعة لتسع مضين من رمضان، قاتلت الملائكة يومئذٍ فيه ولم تقاتل في غيره، إنّما كانوا يحضرون ولم يقاتلوا.

وروى ابن هشام عن محمّد بن إسحاق عن رجل من أصحاب

(١) ومن الأحداث المهمة في السنة الأولى من الهجرة:
- بناء أول مسجد في الإسلام (مسجد قباء).
- بناء مسجد المدينة (المسجد النبوي).
- عقد المواخاة بين المهاجرين والأنصار.
- موادعة اليهود ومحالفة القبائل المحيطة بالمدينة.
- خروج بعض السرايا لملاقاة عير قريش.

رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «كنت أتّبع رجلاً من المشركين يوم بدر فأنا أريد أنْ أقتله حتّى سقط رأسه وما رأيت أحداً ضربه»(١).

ذكر سنة ثلاث من الهجرة

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ قال: وفي سنة ثلاث من الهجرة تزوّج رسول اللّه ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه في شعبان، وكان عمر قبل تزوّج حفصة قد دعا عثمان بن عفّان إلى تزويجها؛ فقال عثمان: «سأنظر في ذلك». فمكث ليالي، ثمّ إنّ عمر لقي أبا بكر فعرض عليه تزويجها، فسكت أبو بكر ولم يردّ عليه شيئاً. قال عمر فكنت على أبي بكر أوجد منّي على عثمان ثمّ لبثت ليالي فخطبها إليّ رسول اللّه ﷺ فتزوّجها، فلقيني أبو بكر فقال: «لعلّك وجدت في نفسك؟». قلت: «نعم». قال: «فإنّه لم يمنعني من أن أجاوبك فيها بشيء إلّا أنّ رسول اللّه ﷺ قد كان ذكرها ولم أكن لأفشي سرّه». ثمّ لقيني عثمان فقال لي مثل ذلك.

قال عبد الملك: أين من قلّت ثقته ولم يتوكّل على ربّه: هذا عمر رحمه اللّه يعرض ابنته ويختار لها الأزواج نظراً منه لها، فزوّجها اللّه خيراً من الذين عرضها عليهم.

ولقد بلغني عن رجل حكيم أنه أرسل صديقاً له يخطب امرأة فخطبها الرسول لنفسه فتزوّجها، فكان إذا لقي الّذي أرسله في خطبته هرب عنه استحياءً منه، وإنّه فاجأه يوماً فالتقيا جميعاً فاعتذر الّذي تزوّجها وقال: «واللّه إنّي لأستحي منك وما أقدر أن أرفع بصري إليك». فقال له الحكيم: «وأنا أكثر احتشاماً منك». قال: «ولمَ؟». قال: «لأنّي بعثتك أن تخطب لي امرأتك».

قال الواقديّ: ثمّ تزوّج رسول اللّه ﷺ في هذه السنة زينب بنت خزيمة أمّ

(١) ومن الأحداث المهمة في السنة الثانية من الهجرة:
- تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.
- سرايا إلى القبائل المجاورة للمدينة للدعوة إلى الاسلام.
- سرايا لاسترداد أموال المهاجرين.
- غزوات: ودان والأبواء وبواط والعشيرة...
- انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى في ١٧ رمضان.
- موت رقية بنت النبي ﷺ.
- غزوات: بني قينقاع - بني سليم الكدر - السويق.

المساكين، بعد حفصة في شهر رمضان ودخل بها وأصدقها اثنتي عشرة أوقيّة من الفضّة.

قلتُ: ولم سمّيت زينب أمّ المساكين؟ قال: لكثرة صدقتها؛ لم يكن في أزواج النبيّ ﷺ أكثر صدقة منها.

وحدّثنا أسد عن أبي زائدة عن الشعبيّ قال: اجتمع أزواج النبيّ ﷺ عنده يوماً فقلن: «يا رسول اللّه أيّتنا أسرع بك لحاقاً؟» قال: «أطولكن يداً». قالت عائشة: فكنّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول اللّه ﷺ نمدّ أيدينا في الجدار نتطاول بمدّ الأيدي، وكانت زينب امرأة عمّالة صناعة اليد، فكانت تدبغ وتخرز وتغزل وتتصدّق به في سبيل اللّه، فلم تزل تفعل ذلك حتّى توفّيت رحمة اللّه عليها، فعلمنا أنّها كانت أطولنا يداً في الخير والمعروف والصدقة[1].

ثمّ دخلت سنة أربع من الهجرة

فيها ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهما اللّه في ليال خلون من شعبان. وفيها رجم رسول اللّه ﷺ اليهوديّ واليهوديّة في الزنا.

وفيها تزوّج أمّ سلمة بنت أبي أميّة في شوال، ودخل بها فيه. وكان عدّة ما تزوّج من النساء سبع عشرة امرأة؛ أحصن منهنّ ثلاث عشرة وفارق الأربع قبل أن يبني بهنّ، فاللاّتي أحصن من قريش ستّ وواحدة أسديّة وواحدة خزاعيّة واثنتان من نساء بني إسرائيل وثلاث قيسيّات. فالقرشيّات: خديجة الأسديّة وعائشة وسودة بنت زمعة العامريّة وأمّ سلمة بنت أبي أميّة بن المغيرة المخزوميّة وحفصة بنت عمر بن الخطّاب رحمه اللّه وأمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب الأمويّة. والقيسيّات: ميمونة بنت الحارث الهلاليّة وزينب بنت خزيمة التي كان يقال لها أمّ المساكين وفاطمة بنت الضحّاك بن سفيان الكلابيّة. والأسديّة: زينب بنت جحش الأسديّ. والخزاعيّة: جويرية بنت الحارث.

(١) ومن الأحداث المهمة في السنة الثالثة للهجرة:
- ظهور النفاق في المدينة.
- غزوة ذي أمر.
- قتل كعب بن الأشرف.
- غزوة نجران.
- غزوة أحد ومقتل حمزة ومصعب وسبعين من الصحابة.
- غزوة حمراء الأسد.

والإسرائيليّتان: صفية بنت حيي وريحانة بنت زيد. والأربع الّتي لم يَبْن بهنّ: مليكة بنت داود الليثيّة وأسماء بنت النعمان الكنديّة؛ عاذتا بالله منه حين دخلتا عليه ففارقهما، وامرأة من بني كلاب رأى بها بياضاً ففارقها وليلى بنت الخطيم الأنصاريّة كانت غيرى فاستقالته فأقالها[١].

ثمّ دخلت سنة خمس من الهجرة

فيها كانت غزوة ذات الرقاع. قلت: ولم سمّيت ذات الرقاع؟. قال: بجبل يقال له الرقاع، وذلك أنّ فيه سواداً وبياضاً وحمرةً فسمّيتْ الغزوة بذلك الجبل، كما سمّيت غزوة بدر، وإنّما كان في ذلك الموضع بئر لرجل يسمّى بدراً.

ويومئذٍ صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف.

وفيها خسف القمر في جمادى الآخرة، وكان أوّل ما خسف به في الإسلام، فقام رسول الله ﷺ فأطال القراءة والناس وراءه قد شمّروا الأزر وتحزّموا الأردية، وما يظنون إلّا أنها الساعة، واجتمع اليهود وأوقدوا النيران وضربوا بالطساس وصاحوا: سحر القمر. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١] فصلّى رسول الله ﷺ ركعتين.

وفيها تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش وفيها أنزلتْ آية الحجاب: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وذلك أنّ عمر بن الخطّاب دخل على رسول الله ﷺ وهو يأكل حيساً في قعب هو وعائشة، فدعاه ليأكل معه، فأصابت إصبع عمر إصبع عائشة فقال: «أوّه، لو أطاعني فيكنّ ما رأتكنّ عين». فقالت عائشة: «وإنّك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا؟». فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾.

قال الواقديّ: وكان سبب تزويج رسول الله ﷺ زينب أنّها كانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فجاء رسول الله ﷺ إلى بيت زيد يطلبه، فأعجلت امرأته عن أنْ تلبس خمارها حين قيل لها رسول الله ﷺ بالباب، ولم يكن للبيوت يومئذٍ

---

(١) ومن الحوادث المهمة في هذا العام (٤ للهجرة):
- سرية أبي سلمة.
- بعث الرجيع والمأساة التي حصلت.
- غزوة بني النضير في ربيع الأول.
- غزوة نجد.

أبواب، فقامت عجلى فضلى فقالت: «ليس هو هاهنا فادخل بأبي أنت وأمّي يا رسول اللّه». فأبى رسول اللّه ﷺ أنْ يدخل، فأعجبت رسول اللّه ﷺ وكانت جميلة كما قال الشاعر: [السّريع]

يَرْحَمُهَا النَّاظِرُ مِنْ حُسْنِهَا وَالْحُسْنُ صِنْفٌ مِنْهُ مَرْحُومُ

فولّى رسول اللّه ﷺ وهو يهمهم بكلام لا يفهم عنه، إلّا أنّه ربّما أعلن بسبحان اللّه العظيم وسبحان مصرّف القلوب، فجاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب أنّ النبيّ ﷺ أتى منزله فقال لها: «ألا قلت له ادخل؟». قالت: «قد عرضت عليه الدخول فأبى». قال: «فسمعته يقول شيئاً؟». قالت: «سمعته حين ولّى يتكلّم بكلام لا أفهمه إلّا أنّه قال: «سبحان اللّه العظيم سبحان مصرّف القلوب»». فخرج زيد حتى أتى رسول اللّه ﷺ فقال: «يا رسول اللّه بلغني أنّك جئت منزلي فهلّا دخلت بأبي وأمّي أنت؟ لعلّ زينب أعجبتك فأفارقها وأعتزلها». فقال له رسول اللّه: «أمسك عليك زوجك». فبينا رسول اللّه ﷺ عند عائشة يحدّثها إذ أخذته غميّة الوحي ثمّ سرّي عنه وهو يتبسّم ويقول: «من يذهب إلى زينب فيبشّرها فيقول لها بأنّ اللّه قد زوّجنيها من السماء؟». وتلا ﷺ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] يعني أنّه أخفى في نفسه إنْ أنت فارقتها تزوّجتها أنا.

قالت عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد لما بلغني من جمالها وأخرى هي أعظم الأمور وأشرفها، ما صنع اللّه لها، زوّجها من السماء، فقلت: «ستفخر علينا بهذا». قالت عائشة: فخرجت سلمى خادم رسول اللّه ﷺ تخبرها بذلك، فأعطتها أوضاحها تعني أسورتها.

وفيها غزا النبيّ ﷺ بني المصطلق من خزاعة، ففتح اللّه له وسبي، وكانت في ذلك السبي جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فدخلت على رسول اللّه ﷺ فقالت: «يا رسول اللّه أنا ابنة سيّد قومي؛ وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، وقد صرت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبني على تسع أواقي فضّة، وقد رجوتك أنْ تقضيها عنّي». فقال رسول اللّه ﷺ: «أوخير من ذلك؟». فقالت: «وما هو؟». قال: «أؤدّيها عنك وأتزوّجك». قالت: «أفعلْ». فدعا رسول اللّه ﷺ ثابتاً فأعلمه فقال: «هي لك؛ وقد وضعت عنها ما كان عليها». قال: فلمّا ملّكها نفسها خطبها إلى أبيها وأصدقها أربعين أسيراً من قومها.

قال: وفيها سقط عقد عائشة رضيَ اللّه عنها. قال عَمّار بن ياسر: فأقمنا على التماسه حتّى أصبحنا ولا ماء معنا ولسنا على ماء، فنزلت آية التيمّم فقلنا: «ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر». فانبعث البعير الّذي كانت تركب فإذا العقد تحته.

وفيها دعا رسول اللّه ﷺ في المسجد يوم الاثنين والثلاثاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء، فعرفنا الإجابة في وجهه، فما نزل بي أمر غمّ قطّ إلّا جرّبته تلك الساعة من ذلك اليوم فأعرف الإجابة.

وفيها مات سعد بن معاذ، وأمر رسول اللّه ﷺ بغسله، فغسله أسيد بن الحضير وسلمة بن سلامة، ثمّ وضع في أكفانه على سريره، فحمل رسول اللّه ﷺ سريره بين العمودين حتّى خرج من داره، فقال رسول اللّه ﷺ: «لقد نزل لشهود جنازة سعد سبعون ألف ملك ما هبطوا إلى الأرض قبلها». فلمّا انتهوا به إلى قبره وضع في لحده ورسول اللّه ﷺ قائم على القبر. قال: لو نجا أحد من ضمّة القبر لنجا منها سعد بن معاذ، لقد تضايق عليه قبر وضمّ فيه ضمّة ثم فرّج اللّه عنه. فلمّا سوي عليه قبره عزّى رسول اللّه ﷺ أمّه على قبره. قال: وأخذ رجل من تراب قبر سعد قبضةً فنظر إليها بعد أخذه لها فإذا هي مسك بحت.

ثمّ دخلت سنة ستّ من الهجرة

قال الواقديّ: في هذه السنة كان من أمر أهبان بن أوس مع الذئب ما كان، وذلك أنه كان في غنم له فشدّ الذئب على شاة فاحتملها، فأتبعه أهبان فهجهجه، يعني هاجمه وقاتله حتّى انتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه وهو يقول: «ويحك لم نزعتني رزقاً رزقنيه اللّه؟». فصَفّق الأسلميّ بيده وقال: «يا عجباه يتكلّم الذئب». فقال الذئب: «أتعجب منّي أنْ أتكلّم واللّه أنطقني وأعجب من هذا محمّد رسول اللّه يدعو الناس إلى أشياء كانت وأشياء تكون، ويقول للناس: «قولوا لا إله إلّا اللّه فيكذّبونه». فأتى الأسلميّ إلى النبيّ ﷺ فأخبره، فأعجب رسول اللّه ﷺ ثمّ قال: «والّذي بعثني بالحقّ لا تقوم الساعة حتّى يخرج الرجل من أهله فيخبره نعله أو سوطه بما يحدثه أهله».

وفيها كسفت الشمس، فصلّى رسول اللّه ﷺ بالناس صلاة الكسوف.

وفي هذه السنة أجدب الناس جدباً شديداً، فاستسقى لهم رسول اللّه ﷺ في رمضان، فصلّى بهم ركعتين جهر فيهما بالقراءة، ثمّ خطب الناس مقبلاً عليهم

بوجهه ﷺ. ثمّ استقبل القبلة وحوّل رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن، فدعا رسول الله ﷺ ودعا معه الناس. ثمّ انصرف، فجاء أعرابيّ يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب على المنبر فقال: «يا رسول الله، أجدبت البلاد وهلكت الماشية فادْعُ الله يسقينا». فدعا رسول الله ﷺ فمطروا سبعة أيّام، ثمّ جاء هو أو غيره فقال: «يا رسول الله انقطعت السبل وتهدّمت البيوت فادْعُ الله لنا». فدعا رسول الله ﷺ، فانجابت السحابة من المدينة(١).

ثمّ دخلت سنة سبع من الهجرة

ففيها كانت غزوة خيبر، وكان بعض أهل خيبر قد تحصّنوا في حصن، فحصبه رسول الله ﷺ، يعني رماه بحصيات، فساخ في الأرض، فأخذ أهلها أخذ اليد، فاصطفى رسول الله ﷺ صفيّة بنت حيي لنفسه، فأعتقها ثمّ تزوّجها وأعرس بها هناك. فلمّا أراد أن يحملها على البعير نصب لها فخذه لتضع رجلها عليه فلوت ساقها وأعظمت أن تجعل رجلها على فخذه ﷺ. وكانت صفيّة هذه قبل أنْ تسبى عند كنانة بن أبي الحقيق اليهوديّ. فرأت في منامها كأنّ قمراً أقبل من المدينة حتّى وقع في حجرها، فقصّت رؤياها على زوجها اليهوديّ فلطمها لطمةً شديدة وقال لها: «لعلّك طمعت في هذا الرجل الصابئ الذي يدعو الناس بالمدينة إلى نفسه». يعني رسول الله ﷺ، فصدقت رؤياها وصارت لرسول الله ﷺ، ولم تزل تلك اللطمة في خدّها حتّى سألها رسول الله ﷺ عن ذلك فأعلمته برؤياها.

وفي هذه السنة أهدت زينب بنت الحارث شاةً مشويّةً إلى رسول الله ﷺ، فلمّا قدّمت بين يديه ومعه نفر من أصحابه تكلّمت الشاة فقالت: «يا رسول الله لا تأكلني فإنّي مسمومة». فدعا زينب فاعترفت فعفا عنها. وفي رواية أخرى، رواية موسى بن محمّد عن أبيه، أنّ رسول الله ﷺ أمر بها فقتلت(٢).

---

(١) أهم حوادث هذه السنة:
- حادثة الإفك.
- غزوة الحديبية وبيعة الرضوان.

(٢) من حوادث هذه السنة:
- إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة.
- إرسال الرسل والرسائل إلى الملوك.
- غزوة خيبر في محرم.
- عدة سرايا وغزوات.
- عمرة القضاء.

ثمّ دخلت سنة ثمان من الهجرة

فيها طلّق رسول اللّه ﷺ سودة بنت زمعة، وكانت قد أسنّت، فلم يكن يستكثر منها. فقعدت له على طريقه بين المغرب والعشاء فقالت: «يا رسول اللّه أرجعني، فواللّه ما بي حبّ الرجال ولكنّي أحبّ أن أحشر مع أزواجك وأهب يومي لعائشة طيّبة بذلك نفسي» فراجعها رسول اللّه ﷺ.

قال: وفي هذه السنة غلا السعر جداً فقال الناس: «يا رسول اللّه سعّرْ لنا». فقال: «إنّ غلاء السعر ورخصه بيد اللّه عزّ وجلّ، وإنّي لأرجو أنْ أخرج من الدنيا ولم أقطع على مسلم في ماله، ولكن لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا يَسُمِ الرجل على سَوْم أخيه، ولا يبع حاضر لبادٍ، ودعوا الناس يرزق اللّه بعضهم من بعض».

وكان عطاء السلميّ إذا اشتدّ الرعد والبرق يقوم ويقعد ويقول: «لو مات عطاء استراح». قال: وكنّا إذا قلنا له: «غلا السعر». قال: «هذا من أجلي لو متّ لاستراح الناس».

وكان الناس في زمان مالك بن دينار إذا أجدبت الأرض وغلا السعر يقولون له: «ادع اللّه يسقينا». فيقول لهم: «أنتم تستبطؤون المطر وأنا أستبطئ الحجارة»[1].

ثمّ دخلت سنة تسع من الهجرة

ففيها غزا رسول اللّه ﷺ تبوك، فعطش الناس والمسلمون، حتّى كادوا أن يهلكوا، وكان مع رجل إداوة فيها شيء من ماء، فأمر رسول اللّه ﷺ به، فصبّه في إناء فمضمض منه ثمّ ردّه في إنائه ووضع فيه يده. قال أنس: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه حتّى فاض وشرب العسكر وسقوا دوابّهم وهم ثلاثون ألفاً، الإبل اثنا عشر ألفاً والخيل عشرة آلاف، والماء يسيل على وجه الأرض.

---

(١) ومن حوادث هذه السنة:
- عدة سرايا وغزوات.
- فتح مكة.
- إسلام أهل مكة وأكابرهم.
- النبي ﷺ يؤدي العمرة.
- غزوة حنين.

وفيها ماتت أمّ كلثوم بنت رسول اللّه ﷺ. فجلس فصلّى رسول اللّه ﷺ على قبرها وعيناه تدمعان ﷺ(١).

ثمّ دخلت سنة عشر من الهجرة

ففيها حجّ رسول اللّه ﷺ حجّة الوداع وحجّ معه نساؤه كلّهنّ، ثمّ قال لهنّ: «هي هذه». ثمّ ٱلْزَمْنَ قاع البيت.

وفي هذه السنة مرض سعد بن الربيع، فاستأذن رسول اللّه ﷺ في الوصيّة فقال: «الثلث والثلث كثير».

قال الواقديّ: كانت جميع مغازي رسول اللّه ﷺ سبعاً وعشرين مغزاة وكانت بعوثه ثلاثة وعشرين بعثاً.

قال: وفي بعض هذه البعوث أخرج رسول اللّه ﷺ عمرو بن العاص فغنم وأسرع الرجعة. قال عمرو: فرأيت رسول اللّه ﷺ قد امتلأ سروراً، فرجوت أن أكون أحبّ الخلق إليه فقلت: «يا رسول اللّه من أحبّ الناس إليك؟». قال: «عائشة». قلت: «لست أسألك عن النساء إنّما أسألك عن الرجال». قال: «أبوها».

ثمّ دخلت سنة إحدى عشرة من الهجرة

ففيها مرض رسول اللّه ﷺ يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر وتوفيّ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل حين زاغت الشمس. فكان مقامه في المدينة عشر سنين.

ويومئذٍ خيّر رسول اللّه ﷺ بين خزائن الدنيا والخلود فيها ثمّ الجنّة وبين لقاء ربّه فاختار لقاء ربّه والجنّة.

ويومئذٍ أمر رسول اللّه ﷺ أبا بكر أن يصلّي بالناس.

قال: فحدّثني الحزاميّ عن الواقديّ عن ابن أخي الزهريّ عن عمّه عن

(١) ومن حوادث هذا العام:
- عدة سرايا.
- غزوة تبوك.
- بعث أبي بكر أميراً على الحج.
- قدوم الوفود إلى النبي ﷺ للدخول في الإسلام.

عبد اللّه بن زمعة قال: دخلت على رسول اللّه ﷺ أدعوه فقال لي: «يا عبد اللّه مر الناس يصلّوا». قال: فخرجت فلقيت رجالاً لم أكلّمهم حتّى لقيت عمر فقلت له: «صلّ بالناس». فلمّا كبّر وسمع رسول اللّه ﷺ تكبير عمر أخرج رأسه من حجرته وصاح كالمغضب: «لا لا لا، ليصلّ بالناس ابن أبي قحافة». فانصرف عمر من صلاته وانتقضت الصفوف؛ وكان أبو بكر غائباً، فما برحنا حتّى جاء فصلّى بالناس. فلّما انصرفوا قال عمر لعبد اللّه بن زمعة: «يا ابن أخي، أمرك رسول اللّه ﷺ أن تأمرني؟». قال: «إنما قال لي: يا عبد اللّه مر الناس فليصلّوا. فلمّا رأيتك كلّمتك». فقال عمر: واللّه ما ظننت ذلك منك إلّا بأمر رسول اللّه ﷺ ولولا ذلك ما تقدّمت. فصلّى أبو بكر بالناس في موضعه سبع عشرة صلاة.

وكان رسول اللّه ﷺ قبل أن يمرض خطب الناس فقال: «توبوا إلى ربّكم قبل أن تموتوا، وبادروا إليه بالأعمال الصالحة، وصِلُوا الّذي بينكم وبين ربّكم بكثرة ذكره وكثرة الصدقة في السرّ والعلانيّة تُنصروا وتؤجروا وترزقوا، واعلموا أنّ اللّه قد فرض عليكم الجمعة فريضة مفترضة مكتوبة عليكم في عامي هذا في شهري هذا في يومي هذا في ساعتي هذه، فمن تركها في حياتي أو بعد وفاتي إلى يوم القيامة جحوداً بها واستخفافاً بحقّها مع إمام عادل أو جائر فلا جمع اللّه شمله ولا بارك له في أمره، ألا لا صلاة له، ألا لا زكاة له، ألا لا حجّ له، ألا لا صيام له، ألا لا صدقة له، ألا ولا برّ له، فمن تاب تاب اللّه عليه».

قال: فالجمعة فريضة على كلّ مسلم إلّا على ثمانية: المملوك والمسافر والمريض والمرأة والصبيّ والكبير الفاني والأعمى الّذي لا قائد له والمحبوس.

وقال ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاث مرّات من غير عذر ولا علّة طبع اللّه على قلبه»[1].

وقال في حديث آخر: «فهو منافق بيّن النفاق».

قال عبد الملك بن حبيب: فتارك الجمعة من غير عذر أقبح حالاً من تارك الصلاة، لأنّ تارك الصلاة يقضيها بمثلها وتارك الجمعة إذا تاب لا يقضيها بمثلها أبداً.

وقال بعضهم: هي المصيبة الّتي لا تنجبر.

وكان مالك يقول: من ترك الجمعة من غير عذر ولا علّة لم تجز شهادته ولا

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن ج (١) ص (٣٥٧).

إمامته، ولا يرغب في الصلاة عليه إذا مات.

وكان سعيد بن المسيّب يقول: لأن أشهد الجمعة مع المسلمين أحبّ إليّ من حجّة تطوّعاً.

وجاء عن رسول اللّه ﷺ قال: «من راح في الساعة الأولى فكأنّما قرّب بدنةً، ومن راح في الساعة الثانية فكأنّما قرّب بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنّما قرّب كبشاً، حتّى بلغ إلى الدجاجة والبيضة»[1].

ففسّر بعض أهل العلم أنّ هذه الساعات كلّها إنّما هي في ساعة واحدة وهذا محال من القول وغلط من التفسير يدلّ على ذلك تباعد ما بين الصدقتين لمن راح في الساعة الأولى ولمن راح في الساعة الثانية. فجعل للأولى بدنة وللثانية بقرةً، فالبدنة بعشرين مثقالاً، والبقرة بمثقال وأكثر، فالفضل والثواب الجزيل لمن راح في الساعة الأولى على من راح في الساعة الثانية، لأنّ القارئ يمكن أن يقرأ ربع القرآن في ساعته، فإذا جاء الثاني في الساعة الثانية كان قد سبقه الأوّل بقراءة ربع القرآن، فلهذا فاق الأوّل الثاني، والثاني الثالث، والثالث الرابع.

وفي حديث صعيعة عن عبد الرحمٰن بن زيد عن جابر عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة ثمّ غدا وابتكر ومشى ولم يركب ثمّ دنا واستمع كان له بكلّ خطوة خطاها عمل سنة صيامها وقيامها. فهل يكون الغدو والبكور إلّا في الساعة الأولى؟»[2].

وتفسير قوله: «من غسّل واغتسل» فاغتساله لجنابته ولجمعته إذا نوى ذلك وغسّل أوجب الغسل على أهله بالجماع.

ولقد قيل لعبد اللّه بن عمرو بن العاص: «يا أبا محمّد، متى الرواح يوم الجمعة؟». فقال: «من حين تصلّي الصبح فَرُحْ إنْ شئت».

وقال ابن وهب وغيره من أهل العلم: الرواح من وقت صلاة الصبح فخرجا بعد ما صلّيا ثمّ ثبتا عند باب المسجد يتذكران بعض الفقه إذ أقبل رجل فسلّم على ابن وهب فردّه عليه وتحفّى به وأقبل عليه يكلّمه، حتّى مضى الرجل ودخل المسجد. قال ابن أبي عيسى: فالتفت إليّ ابن وهب وقال: «يا أندلسيّ، إنْ أحببت أنْ تنظر إلى من يروح في الساعة الأولى إلى الجمعة فانظرْ إلى هذا».

---

(١) رواه الشافعي في الأم ج (١) ص (٢٢٥).
(٢) رواه أحمد في المسند ج (٤) ص (١٠).

قال: وأمّا غسل الجمعة فاختلف فيه. أمّا مالك رحمه اللّٰه فروى عن المقبريّ عن أبي هريرة أنّه كان يقول: غسل يوم الجمعة واجب على كلّ محتلم كغسل الجنابة.

وروى الأوزاعيّ عن مكحول أنه قال: السنّة سنّتان، سنّة الأخذ بها فضيلة وتركها غير خطيئة، وسنّة الأخذ بها فضيلة وتركها خطيئة.

وحدّثنا راشد بن سعد في مسجد بيت المقدس عن أبي الدرداء قال: سمعت سفيان الثوريّ يقول: غسل الجمعة مستحبّ وليس بواجب. وسألت عنه الحسن فقال: «إنّ عبد اللّٰه بن عبّاس راح إلى الجمعة ولم يغتسل فعوتب في ذلك فقال: هذا يوم بارد ولو كان النهار دافئاً لاغتسلنا».

وحدّثنا حرملة عن عبد الرحمٰن بن زياد عن الربيع بن صبيح عن يزيد الرقاشيّ عن أنس بن مالك أنّ رسول اللّٰه ﷺ قال: «من توضّأ يوم الجمعة فبها ونعمت ومن اغتسل فالغسل له أفضل»(١).

وروى الضحّاك بن مزاحم عن عبد اللّٰه بن عبّاس قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «الجمعة حجّ المساكين، فالحمد للّٰه الّذي قرّب حجّ المساكين وبعّد حجّ الأغنياء»(٢).

ذكر وفاة رسول اللّٰه ﷺ

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ أنه قال: لمّا كان اليوم الّذي قبض فيه رسول اللّٰه ﷺ كبّر أبو بكر بالناس في صلاة الصبح فصلّى بهم ركعةً، ثمّ أقبل النبيّ ﷺ فجلس إلى جنب أبي بكر، فلمّا سلّم أبو بكر قام رسول اللّٰه ﷺ وقضى الركعة الّتي فاتته، ثمّ توفّي رسول اللّٰه ﷺ من يومه ذلك، وهو يوم الاثنين وصلّى الناس عليه فرقاً بغير إمام، تصلّي فرقة ثمّ تخرج، وتدخل أخرى، وغسله العبّاس وعليّ والفضل وشقران ونزلوا في قبره وولوا تكفينه.

وتوفّي وهو ابن ستّين سنة وقيل ثلاث وستّين سنة.

فلمّا دفن ﷺ اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، فجاء الخبر إلى أبي بكر، فخرج ومعه عمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجرّاح. فقالت الأنصار: «منّا

(١) رواه ابن ماجه في السنن ج (١) ص (٣٤٧).
(٢) رواه النسائي في السنن ج (٣) ص (٩٠).

أمير ومنكم أمير». فلمّا رأى ذلك عمر بن الخطّاب ضرب بيده على يد أبي بكر فبايعه وبايعه أبو عبيدة بن الجرّاح ثمّ أسيد بن الحضير، ثمّ رجع الناس إلى المسجد فصلّى أبو بكر بالمسلمين الظهر. وتخلّف عن بيعة أبي بكر علي ومكث ثلاثة أشهر لا يبايع، وبايعه الزبير، فتكلّم علّي بكلام فقال: «أرضيتم، يا بني عبد مناف، أن يلي هذا الأمر عليكم رجل من تيم؟». فبلّغ عمر كلامه إلى أبي بكر فلم يحقدها عليه فمكث عليّ ثلاثة أشهر. ثمّ مرّ به أبو بكر ظهراً وهو في داره فقال: «أتحبّ أن أبايعك يا أبا بكر؟». فقال: «أحبّ أن تدخل فيما دخل فيه الناس». فجاء بعد الظهر فبايعه.

وكان أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد ما بويع قد قام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنّ الّذي رأيتم منّي لم يكن حرصاً على ولايتكم، ولكنّي خفت الفتنة عليكم والاختلاف فيما بينكم فدخلت فيه لهذا، وقد رجع الأمر إلى أحسن ذلك وهذا أمركم اليوم قد رددته إليكم، فولّوا من أحببتم وأنا كأحدكم». فأجابه الناس جميعاً: «رضينا بذلك حظاً وقسماً وأنت الرضي وثاني اثنين وخليفته على صلاتنا وهو حيّ». ثمّ أحدثوا بيعة أخرى.

وحدّثني أبو القاسم أنّ عائشة بنت طلحة قالت لفاطمة بنت رسول الله ﷺ: «صفي لي أباك فإنّي لم أره». قالت: «فهلّا سألت عنه أباك؟ فلقد كان به طبًّا، تعني عارفاً، خبيراً، قد والله علم أبوك أنّ أبي كان إذا ادلمسّ الليل ونامت كلّ عين إلّا ما شاء الله وقّد ناظراه وابلقّ جفناه واختلفت فكّاه ورطب أصغراه يعالج الوحي عن ربّه ويستخبره عن نفسه، يثوي في الثرى إذا خرّ ساجداً، يناجي ربّه الأعلى جاعلاً محشر الناس موعده، يستقلّ وارديه وإن كثرت، ويتشوّف إليها إذا حزمت له عند ذلك رجلاه، رجل عند شمال الميزان ورجل عند منحرف الصراط، تقول له الملائكة: «قُلْ، يا محمّد، تسمعْ واشفع إلى ربّك في أمّتك تشفّع» قد علم رسول الله ﷺ وعلمنا أنّ ذلك اليوم كائن وما نحن له بمعجزين؛ لقد هيّجت عليّ بذكرك شجناً ما أنساه، ونكأت كَلماً أداويه يا ليتني ولا أليّة لي على ربّي أذقت الحمام يوم أذيقه، وأودعت العفر يوم أودعه ﷺ، وشرّف وكرّم صلى الله على حبيب كان يؤنسني قربه، ويحزنني فقده، كرّمني الله برؤيته، وجمع بيني وبينه في دار جنّته».

تفسير غريب قول فاطمة رضي الله عنها

قولها: «ادلمسّ الليل» تعني أظلم، و«وقّد ناظراه» تعني عينيه، و«ابلقّ جفناه» بالبكاء و«اختلفت فكّاه» تعني اختلفت شفتاه بقراءة القرآن، وقولها: «رطب

أصغراه» تعني قلبه ولسانه، وقولها: «يثوي في الثرى» تعني أنه كان إذا سجد قام في سجدته حيناً لأنّ العبد اقترب ما يكون من ربّه في سجوده لقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]. يريد: أقرب منّي. وقولها: «يا ليتني أذقت الحمام يوم أذيقه وأودعت العفر يوم أودعه» فالحمام الموت؛ تمنّت به يوم مات ﷺ وحقّ لها، و«العفر» التراب تمنّت لو قبرت يوم قبر.

قال: ثمّ توفيت فاطمة رضي اللّه عنها بنت رسول اللّه ﷺ ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان بعد وفاة أبيها ﷺ بستّة أشهر. وقيل: بثلاثة أشهر. وغسلها عليّ رضي اللّه عنه وأسماء بنت عميس، وصلّى عليها العبّاس بن عبد المطّلب وهي يومئذٍ بنت تسع وعشرين سنة أو نحوها، وكان عليّ رضي اللّه عنه أكبر منها بسنين قليلة.

وفي هذه السنة مات عبد اللّه بن أبي بكر الصدّيق رضي اللّه عنه.

تاريخ
الخلفاء الراشدين[1]

(١) أبو بكر الصديق ٦٣٢ ـ ٦٣٤.
عمر بن الخطاب ٦٣٤ ـ ٦٤٤.
عثمان بن عفان ٦٤٤ ـ ٦٥٦.
علي بن أبي طالب ٦٥٦ ـ ٦٦١.

ثمّ دخلت
سنة اثنتي عشرة من الهجرة(١)

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ قال: في هذه السنة تزوّج عمر بن الخطّاب عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وخطب عمر بعد وفاة أبي بكر إلى عائشة أمّ كلثوم بنت أبي بكر فأطمعته وقالت: «أين المذهب بك عنك؟». فلمّا ذهب عمر قالت الجارية لعائشة: «تزوّجيني من عمر وقد علمت غيرته وفظاظته وخشونة عيشه، والله لئن فعلت لأخرجنّ إلى قبر النبيّ ﷺ ولأصيحنّ بأبي ولأبكيَنّ عنده، إنّما والله أريد فتى من قريش يصبّ عليّ الدنيا». فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص وقالت: «حيلتك يا عمرو». قال: «أنا أكفيكه». فدخل عمرو على عمر فقال: «يا أمير المؤمنين، لو جمعت إليك امرأة؟». قال: «كأنّي قد رأيت ذلك أيّامك هذه». قال: «ومن ذكر أمير المؤمنين؟». قال: «أمّ كلثوم بنت الصالح». قال: «يا أمير المؤمنين، ما لك ولجارية غريرة تنعي لك أباها غدوة وعشيّة؟. أيّ عيش يطيب مع هذا؟». فنظر إليه عمر وقال: «ألَقيت عائشة؟». قال: «نعم». فقال: «منها لعَمْرُ الله قد تركتها». فتزوّجها طلحة بن عبيد الله فصبّ عليها الدنيا صبّاً.

وفي هذه السنة أُتِيَ أبو بكر بالأشعث بن قيس الكنديّ مغلولة يده إلى عنقه، بعث به زياد بن لبيد وكتب إليه زياد: «إنّما أنزلناه على حكمك وقد بعثنا به إليك بأهله وماله فرأيك فيه». فجعل أبو بكر يعدّد عليه غدراته وما فعل ويقول: «فعلت وفعلت». وهو أمامه في الحديد مغلولة يداه إلى عنقه، فقال له الأشعث: «استبقني لحربك وزوّجني أختك». ففعل أبو بكر ما سأل.

---

(١) بعد وفاة النبي ﷺ اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة وتشاوروا فيمن ينبغي أن يخلف رسول الله ﷺ في قيادة المسلمين ورعاية أمورهم، وبعد المذاكرة والمداولة واستعراض طائفة من الاقتراحات اجتمعت كلمتهم جميعاً على أن يكون أول خليفة لرسول الله ﷺ من أمره على الحج وخلفه على الصلاة وصدّيقه الأكبر ومؤنسه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثمّ دخلت سنة ثلاث عشرة من الهجرة

قال الواقديّ: وفي هذه السنة كانت وفاة أبي بكر رضي الله عنه[١] مرض يوم الاثنين لسبع ليال خلون من جمادى الأولى، ومات ليلة الثلاثاء لثمان مضين من جمادى الآخرة، فكان مرضه خمس عشرة ليلة، وكان بدء علّته أنّه اغتسل في يوم بارد فحمّ، فكان يثقل كلّ يوم ولا يقدر على خروج إلى الصلاة، فكان يأمر عمر فيصلّي بالناس ويدخلون عليه ويعودونه في داره التي أقطع له فيها رسول الله ﷺ قبالة دار عثمان اليوم. وكان عثمان ألزمهم له، فكان عنده ليلة حتّى ذهب أكثر الليل، ودخل عليه نساؤه أسماء بنت عميس وحبيبة بنت خارجة بن زيد وبناته عائشة وأسماء وابنه عبد الرحمٰن. فقالت عائشة رضي الله عنها: «أتريد أن تعهد إلى الناس؟». قال: «نعم». قالت: «فافعل وبيّن للناس حتّى يعلموا منِ الوالي بعدك». قال: «نستخير الله في ذلك وننظر إن شاء الله». فقالت عائشة: «إنّ أولى الناس بهذا الأمر بعدك عمر». قال أبو بكر: «نعم الوالي، يعني عمر، وما هو بخير له إنْ يلي أمّة محمد، ونعم الرجل هذا الخارج». يعني عثمان. فقال عبد الرحمٰن بن أبي بكر: «إنّ قريشاً تحبّ ولاية عثمان وتكره ولاية عمر». قال: «ولم يا بنيّ؟». قال: «لغلظة عمر ومجانبته لهم». فقال: «أما إنّه لا يقوى عليهم غيره؟ أي بنيّ إنّ عمر لذو لين وذو شدّة، ولو كان والياً لان واشتدّ». فلمّا أصبح دعا نفراً من المهاجرين فاستشارهم رجلاً رجلاً في عمر، ثمّ دعا عثمان فقال: «يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر». قال: «أنت أخبر به منّي». فقال أبو بكر: «على ذلك يا أبا عبد الله». فقال عثمان: «اللّهمّ إنّ سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله». فقال أبو بكر: «رحمك الله يا أبا عبد الله إن كنت لها لأهلاً ولو تركتها ما عدوتك، وما أدري لعلّي تاركه والخير لمن لا يلي أمركم، ولوددت أنّي خلو من أمركم، يا أبا عبد الله لا تذكر ممّا قلت لك شيئاً».

ثمّ خرج ودعا عبد الرحمٰن بن عوف فقال: «يا أبا محمّد أخبرني عن عمر». فقال: «يا خليفة رسول الله، هو والله الأفضل وفيه غلظة». قال أبو بكر:

---

(١) أهم ما قام به أبو بكر الصديق في مدة خلافته:
- تجهيزه وتسييره جيش أسامة.
- تجهيز الجيوش لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة.
- بعث خالد إلى العراق، ففتح بلاداً كثيرة وعاد منتصراً.
- جمع القرآن الكريم (الجمع الأول).

«ذلك لأنّه خلو، ولو أفضت إليه الأمور لترك كثيراً ممّا هو عليه، وقد رمقته فرأيته إذا غضبت على الرجل في الشيء أراني الرضى عنه، وإذا لنت له أراني الشدّة عليه، لا تذكر يا أبا محمّد ممّا قلت لك شيئاً». ثمّ دعا سعد بن أبي وقّاص فقال له مثل قوله لصاحبيه. ثمّ دعا سعيد بن يزيد بن عمرو بن نفيل فسأله فقال له مثل قول أصحابه. ثمّ دعا من الأنصار أسيد بن الخضير، وكان أبو بكر رضي اللّه عنه لا يقدّم على أسيدٍ أحداً من الأنصار فقال له: «يا أبا بحر إنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «المستشار مؤتمن» فما تقول في عمر؟». فقال: «هو ما علمت يرضى الرضى ويسخط السخط، والّذي يسرّ من الخير أكثر من الّذي يعلن ولا يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه». قال: «لا تذكر لأحد ممّا ذكرت لك شيئاً».

قال: وسمع بعض أصحاب رسول اللّه ﷺ بدخول هؤلاء النفر على أبي بكر فأتاه رجل فدخل عليه فقال: «يا أبا بكر ما أنت قائل لربّك إذا سألك عن استخلاف عمر وأنت تعلم غلظته علينا وأنت بين أظهرنا فكيف إذا ولّيته وجعلت أمرنا إليه؟ واللّه ليسألنك اللّه عنه فما أنت قائل لربّك؟». فقال: «أجلسوني أباللّه تخوّفني؟ خاب من تزوّد من أمركم ظلماً؛ أقول: اللّهمّ إنّي أستخلف عليهم خيرّهم». فقال القائل: «أما واللّه إنّي لرسول من ورائي». قال: «أبلغهم عنّي ما قلت لك». ثمّ اضطجع فدعا أبو بكر عثمان فقال: «اكتب: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها حين يؤمن الكافر ويتّقي الفاجر ويصدق الكاذب: إنّي استخلفت عليكم عمر بن الخطّاب فإنْ عدل واتّقى فذلك ظنّي به، وإنْ بدّل وغيّر فالخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]». ثمّ بعث بها مع عثمان ورجل معه فجاءا النّاس قالا: «هذا عهد أبي بكر فإن تقرّوا به نقرأه وإن تنكروه نرجعه». فقال طلحة: «اقرأه وإن كان فيه عمر». قال له عمر: «وبما علمت ذلك؟». قال: «ولّيته أمس وولّاك اليوم». فقال عليّ رضي اللّه عنه: «اقرأ رحمكما اللّه وإن كان فيه عمر».

وأوصى أبو بكر أن تغسله أسماء ابنة عميس، وكفّن في ثلاثة أثواب منها ثوب كان يلبسه، وصلّى عليه عمر، ونزل في قبره عمر وعثمان وطلحة بن عبيد اللّه وعبد الرحمٰن ابنه، ودفن ليلاً رضي اللّه عنه.

فروى الشعبي عن عليّ أنّه قال: كنت جالساً مع رسول اللّه ﷺ يوماً فأقبل أبو بكر وعمر، فلمّا رآهما رسول اللّه ﷺ مقبلين قال: «هذان سيّدا كهول أهل

الجنّة من الأوّلين والآخرين إلّا النبيّين والمرسلين، لا تخبرهما يا عليّ».

وقال رسول اللّه ﷺ: «أريت أنّي دخلت الجنّة، فإذا أكثر أهلها الضعفاء والمساكين وأطفال المؤمنين، واطّلعت في النار فإذا أكثر أهل النار الأغنياء والنساء، وأتيت بميزان على باب الجنّة فوضعت في كفّة ووضعت أمّتي في الأخرى، فرجحت بهم، ثمّ أتي بأبي بكر فوضع في كفّة ووضعتْ أمّتي في كفّة فرجح بهم، ثمّ أتي بعمر فوضع في كفّة ووضعتْ أمّتي في الأخرى، فرجح بهم، ثمّ رفع الميزان».

فخلف من بعد رسول اللّه ﷺ أبو بكر الصدّيق، واسمه عبد اللّه بن أبي قحافة، إلّا أنّه كان يقال له عتيق، وأمّه أمّ الخير بنت صخر بن عامر. فلبث في خلافته بعد رسول اللّه ﷺ سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال. ثمّ قبض بالمدينة ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو يومئذٍ بسنّ رسول اللّه ﷺ.

ثم خلف من بعد أبي بكر عمر بن الخطاب

حدّثنا الحزاميّ عن الواقديّ أنّ عمر رضي اللّه عنه ولّي سنةَ ثلاث عشرة من الهجرة، فافتتحت تلك السنة دمشق وكورها إلى حمص، وحجّ بالناس تلك السنة. وفيها أمر عمر بالقيام في شهر رمضان، وذلك أنّه نظر إليهم في المسجد أوزاعاً متفرّقين يصلّي كلّ رجل لنفسه فقال: «لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أحسن». ففعلوا، فكان بعد ذلك ينظر إليهم فيقول: «نعمت البدعة هذه والّتي تنامون عنها أفضل». يعني آخر الليل، وكان الناس يقومون أوّله.

وفي هذه السنة ضرب عمر عبد الرحمٰن ابنه الحدّ في ريح مسكر وجدها عليه. فضربه الحدّ وهو مريض فقال: «يا أبت ما أنت قائل لربّك إن قتلتني؟». قال: «أقول: يا ربّ قتلته فيك». ثمّ قال: «واللّه لتموتنّ تحت السياط أحبّ إليّ من أنْ تموت والحدّ في عنقي». فمات من ذلك.

وفيها كانت وقيعة اليرموك على يدي أبي عبيدة بن الجرّاح، وهي الوقيعة الّتي كسر اللّه بها الروم، وجاء فيها هرقل من أنطاكيّة القسطنطينيّة، ولم تكن في الروم وقيعة تشبهها.

وكانت وقعة القادسية وافتتاحها على يدي سعد بن أبي وقّاص.

وفيها افتتح عمر بنفسه مدينة بيت المقدس بصلح وعهد وكتب لهم كتاباً.

حدّثني عبيد بن آدم العسقلانيّ عن أبيه وعمر بن يوسف عن عمرو بن بكر عن الحارث بن سعد الهمدانيّ أنّ عمر بن الخطّاب لمّا قدم بيت المقدس خرج رجل من أصحابه ليستقي من جبّ سليمان، وهو جبّ داخل المسجد، فجرّت دلوه في الجبّ، فنزل فيها ليستخرجها، فبيناه يطوف بالجبّ إذ أتاه ملكان، فأخذا بعاتقه فذهبا به حتّى أدخلاه الجنّة، فجعلا يسيران به فيها، فكان كلّما مرّ على شجرة لها ثمر مدّ يده إلى ثمرها، فيأخذه الملكان. حتى مرّا به على شجرة ذات أفنان فمدّ يده فأخذ ورقة واحدة فقال له الملكان: «لو ملكت يدك لسرنا بك فيها إلى يوم القيامة». ثمّ انصرفا به إلى الجبّ فخرج عند صلاة الظهر فأتى عمر بن الخطّاب فأخبره بالّذي كان، وبسط يده عن الورقة فقال له عمر: «اضمم يدك عليها». ثم بعث إلى كعب الأحبار فأتاه فقال له: «يا أبا إسحاق، هل تجد في علمك أنّ رجلاً من أمّة محمّد ﷺ يدخل الجنّة في الدنيا ثمّ يخرج منها؟». قال: «نعم يا أمير المؤمنين». قال: «فهل تسمّيه؟». قال: «نعم هو شريك بن خباشة النميريّ». قال: «فانظر هل تراه؟». فنظر كعب مليّاً ثمّ قال: «هو ذا». فقال عمر لكعب: «صف لنا الورقة». قال: «نعم كانت هي مثل الكفّ العظيمة أشبه بورق الدرّاقن». يعني الخوخ.

ففي بيت المقدس اثنا عشر جبّاً ليس فيها جبّ أطيب ولا أبرد ولا أعذب من هذا الجبّ، وهو يسمّى ببئر الورقة.

ذكر ابتداء التأريخ

قال الواقديّ: وفي هذه السنة كتب عمر بن الخطاب التأريخ بعد سنتين ونصف من ولايته، وهو أوّل من كتب التأريخ، بمشاورة عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه. وذلك أنّ العرب لم تكن تؤرّخ التأريخ من قبل على أصل معلوم، وإنّما كانوا يؤرّخون بالقحط والعامل يكون عليهم، حتّى كان زمن الفيل، فأرّخوا بالفيل، ثمّ بعده ببنيان الكعبة، فلم تزل العرب على هذا؛ حتّى كان زمن عمر، فافتتح بلاد الأعاجم ودوّن الدواوين، وجبى الخراج، وأعطى الأعطية.

حدّثنا أميّة بن خالد الآزديّ قال: حدّثنا قرّة السدوسيّ عن محمّد بن سيرين قال: قام رجل إلى عمر بن الخطّاب فقال: «أرّخوا». فقال عمر: «هذا حسن فأرّخوا». فقال: «من أيّ السنين نبدأ؟». فقالوا: «من مبعثه ﷺ». وقال بعضهم: «بل، من وفاته». ثمّ اجتمعوا على الهجرة. فقالوا: «من أيّ الشهور نبدأ». فقالوا:

«من رمضان». وقال بعضهم: «من المحرّم وهو منصرف الناس من حجّهم وهو شهر حرام». فأجمعوا على المحرّم.

فالتأريخ اليوم قبل الهجرة بشهرين واثني عشر يوماً وذلك أنّ رسول اللّه ﷺ هاجر في ربيع الأوّل.

حدّثنا عبد الأعلى عن محمّد بن إسحاق عن الزهريّ قال: قدم رسول اللّه ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل. فقدّموا التأريخ قبل الهجرة إلى غرّة المحرّم.

قال: والفصحاء يكتبون في ثلاثة أشهر من السنة «شهر»، فيقولون: في شهر رمضان وشهر ربيع الأوّل وشهر ربيع الآخر. ولا يذكرون الشهور إلّا في هذه الثلاثة. والشهور كلّها عندهم مذكّرة إلّا شهران، يقولون: هذه جمادى الأولى وجمادى الآخرة. وباقي الشهور على التذكير.

والعرب تقول: أهللنا هلال كذا وكذا. ولا تقول: أهلّ الهلال واستهلّ. ومن قال ذلك فقد أخطأ، لأنّه لم يهلّ هو، ولا استهلّ هو، وإنّما هو مفعول به، تقول: أهلّ واستهلّ أيّ: فعل ذلك به.

وفي سنة ستّ عشرة

رجم عمر امرأةً بالجابية، أقرّت على نفسها بالزنا.

وفي سنة سبع عشرة من الهجرة

بعث عمر رضي اللّه عنه عتبة بن غزوان إلى البصرة، فاختطّ منازلها وبنى مسجدها بقصب. ثمّ مات وولّى عمر بعده أبا موسى الأشعريّ، وأمره أن يشخص إليه المغيرة بن شعبة لما كان شهد عليه أبو بكرة وصاحباه. فلمّا قدم أبو بكرة على عمر سمع صوته وبينه وبينه حجاب فقال: «أبو بكرة؟». قال: «نعم». قال: «لقد جئت بشرّ». قال: «إنّما جاء به المغيرة». ثمّ قصّ عليه أنّ المغيرة أتى أمّ جميل من بني هلال وكان لها زوج هلك قبل ذلك يقال له الحجّاج بن عتبة، فكان المغيرة بن شعبة يدخل عليها. فبلغ ذلك أهل البصرة فأعظموه، فخرج المغيرة يوماً من الأيّام وقد وضعوا له الرصد، فانطلق القوم الذين شهدوا جميعاً، فكشفوا الستر فرأوه قد واقعها. فقدم المغيرة على عمر وقد تزوّج امرأةً من بني مرّة فقال له عمر: «إنّك لفارغ القلب». ثمّ دعا بالشهود فشهد أبو بكرة وشبل بن معبد البجليّ

ونافع بن كلدة أنّهم رأوا ذكره في فرجها كالمرود في المكحلة. وكان الشاهد الرابع زياد فقال: «لا أحقّ الّذي أحقّوا قد رأيت مجلساً قبيحاً». فجلد عمر الشهود الثلاثة، وقال لأبي بكرة: «إنْ تبت قبلنا شهادتك».

وفي هذه السنة اتّخذ عمر دار الدقيق والسويق والزبيب لما يحتاج إليه لمن قطع به في سفره والضيف إذا نزل.

وفيها كتب عمر مواقيت الصلاة إلى البلدان.

وفيها رجم عمر ساحراً حفر له إلى عنقه ثمّ رجم حتّى مات.

وفي سنة ثماني عشرة

استسقى عمر، وأمر الناس أن يصبحوا صياماً، فخرج متبذلاً متواضعاً عليه برد لا يبلغ ركبتيه يرفع صوته بالاستغفار وعيناه تذرفان الدموع على خدّيه، فصلّى ركعتين جهر فيهما بالقراءة ثم قام خطيباً. قال: فلم أر يوماً كان أكثر باكياً منه. وأخذ بيد العبّاس عمّ النبيّ ﷺ فأوقفه إلى جنبه وقال: «اللّهمّ إنّي استشفعت إليك بعمّ رسولك». فلم يزل يدعو ويبكي ويستغفر حتّى كان قريباً من نصف النهار، فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى سقينا.

وفي هذه السنة كان طاعون عمواس، وهي على عشر مراحل من بيت المقدس، مات فيه يومئذٍ ستّة وعشرون ألفاً.

وفيه مات أبو عبيدة بن الجرّاح، والحارث بن هشام، وهشام، وسهيل، ويزيد، ومعاذ بن جبل.

وبهذه القرية مات بلال مؤذّن رسول اللّه ﷺ. ولمّا كثر الموت أحدث الناس: كيف أصبحت وكيف أمسيت.

قال عبد الملك: وقع الطاعون في سنة تسع عشرة في شوال، هلك في ثلاثة أيّام سبعون ألفاً.

حدّثنا أبو الحسن عليّ بن الهيثم قال: قال لي رجل: رأيت في المنام أيّام الطاعون أنّه أخرج من داري اثنتا عشرة جنازة وأنا مع عيالي اثنا عشر، فمات أحد عشر وبقيت أنا، فقلت في نفسي: أنا ثاني عشر فخرجت من الدار. ثمّ رجعت إليها من الغد، فإذا بلصّ قد دخل ليسرق، فأصابه الطاعون فكان ثاني عشر.

قال: ورأى نافع أيّام الطاعون رجلاً قد هرب من البصرة على حمار خوفاً من

الطاعون، فجعل نافع يقول: «انظر إليه يهرب من اللّه عزّ وجلّ على حمار».

وحدّثنا عليّ بن عاصم يرفعه قال: قال الطاعون: «ألحق بالشام». وقال الخير والرخاء: «وأنا معك». وقال الجوع والعري والشقاء والبلاء: «ألحق بالبادية». فقالت الصحّة: «وأنا معك».

وفي سنة تسع عشرة

احتكر الناس الطعام بالمدينة حتّى غلا السعر فيها، فنهى عمر عن ذلك، وأمر بالطعام أنْ يخرج إلى السوق.

وفيها افتتحت جلولاء من أرض العراق.

وفيها زاد عمر في مسجد رسول اللّه ﷺ.

وفيها قدم رجل من أشجع على عمر من ناحية خيبر فأخبره أنّ ناراً خرجت هنالك، فسالت في أرض، حتّى فزع الناس، وتحوّل كلّ من كان قريباً منها، فخطب عمر الناس وقال: «تأهّبوا لقتال النار». ثمّ رأى غير ذلك وقال: «أيّها الناس تصدّقوا فإنّ الصدقة تطفئها». فتصدّق الناس فطفئت النار.

وفيها افتتح عمرو بن العاص مصر والإسكندريّة.

وفيها رجفت المدينة، وولّى عمر عمّار بن ياسر الكوفة على الصلاة، وابن مسعود على بيت المال، فشكا أهل الكوفة عمّار وقالوا: «هذا رجل لا يعرف شيئاً». فاستعفى عمّار، فدعا عمر جبير بن مطعم خالياً فولّاه الكوفة وقال: «لا تذكره لأحد». فبلغ المغيرة بن شعبة أنّ عمر خلا بجبير مطعم فحذر أنه ولّاه، فأتى المغيرة عمر فقال: «بارك اللّه لك فيمن ولّيت فإنّه وإنّه». فقال عمر: «ومن ولّيت؟». فقال: «جبيراً». قال على ذلك: «أيّ الرجلين أحبّ إليك؛ أنْ أولّي رجلاً صحيح الدين ضعيف العقل، أو رجلاً ضعيف الدين فاجراً عاقلاً؟». قال: «يا أمير المؤمنين أمّا الصحيح الدين الضعيف العقل فإنّ صحّة دينه له وضعف عقله على الرعيّة، وأمّا العاقل الفاجر فإنّ فجوره لنفسه وعقله وجميل نظره لرعيّته». فقال عمر: «واللّه ما أدري ما أصنع، إنْ ولّيت تقيّهم كان ضعيف العقل، وإنْ ولّيت قويّهم كان فاجراً». ثمّ التفت إلى المغيرة فقال له: «أنت القويّ الفاجر». فولّاه الكوفة، فلم يزل عليها حتّى مات عمر.

ونهى عمر أنْ يتّخذ أهل مكّة الدوابّ بمكّة وقال: «ليست بأرض دوابّ إلّا تغلي السعر على الناس».

وفي سنة ثلاث وعشرين

حجّ عمر رحمه الله، واستأذنه أزواج النبيّ ﷺ في الحجّ معه فأذن لهنّ، فخرجن في الهوادج عليهنّ الطيالسة، وكان أمامهنّ عبد الرحمٰن بن عوف، ووراءهنّ عثمان بن عفّان، فكانا لا يدعان أحداً يدنو منهنّ.

وكان عمر إذا أراد الحجّ يكتب إلى أمراء الأجناد أنْ يقدموا عليه، فيخرجون معه إذا خرج متجرّدين للإحرام، فنظر إلى معاوية وكان جلده جلد عذراء، وكان من أبيض الناس وأجملهم، فوضع إصبعه في عضده ثمّ رفعها عن مثل الشراب حمرة قد اتّبع الدم أثر إصبع عمر من تحت الجلد فقال: بخ بخ يا معاوية، نحن إذاً خير الناس إن أعطينا نعيم الدنيا والآخرة». فعرف معاوية ما أراد فقال: «يا أمير المؤمنين نحن بأرض الأرياف والحمامات، فلذلك تدقّ جلدنا». فقال عمر: «لا والله ولكن شدّة الحجاب وإغلاق الباب، وإلطافك نفسك بطيّب الطعام، وتصبّحك حتّى ترتفع الشمس، وقلّة نظرك في حوائج المسلمين، ويحك يا معاوية؛ من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثمّ احتجب عنهم احتجب الله عنه يوم القيامة».

قال: فلمّا انصرف عمر من حجّه أتاه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال له: «كلّم مولاي يضع عني من خراج». قال: «وكم خراجك؟». قال: «دينار كلّ يوم». قال: «وما عملك؟» قال: «أعمل الأرحاء». قال: «فبكم تبيع الأرحاء؟». قال: «بكذا وكذا». قال: «ما أرى أن أكلّمه وما هذا بكثير». ثمّ قال له عمر: «ألا تعمل لي رحى؟». قال: «بلى والله لأعملنّ لك رحى يتحدّث بها». فلمّا كان سحراً اختفى له أبو لؤلؤة، فلم يشعر به عمر، فطعنه رحمة الله عليه ورضوانه ولعنة الله على قاتله.

حديث عمر رحمه الله يوم طعن

قال عمر بن ميمون: شهدت عمر يوم طعن، وما منعني أنْ أكون في الصفّ الأوّل إلّا هيبته، وكان مهيباً، فكنت في الصفّ الثاني، وكان عمر لا يكبّر حتّى يستقبل الصفّ المقدّم بوجهه، فإنّ رأى متقدّماً من الصفّ أو متأخّراً ضربه بالدرّة، فذلك منعني منه، فأقبل عمر فعرض له أبو لؤلؤة فناجاه غير بعيد ثمّ طعنه ثلاث طعنات، وماج الناس، فجرح ثلاثة عشر رجلاً وشدّ عليه رجل من خلفه فاحتضنه فقال قائل: «الصلاة رحمكم الله» فطعنت في صدر عبد الرحمٰن بن عوف فصلّى

بأقصر سورتين في القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١] و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فاحتمل عمر، ومات من الّذين جرحوا معه ستّة، فلمّا انتهي به إلى منزله أغمي عليه، فجعلنا نناديه فلا ينتبه فقلنا: «إنْ كان شيء ينبهه فالصلاة». فقلنا الصلاة، ففتح عينيه وقال: «لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة» فصلّى وجرحه يثعب دماً ثمّ قال: «ادعوا لي عثمان وعلياً وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص». فلم يكلّم منهم غير عليّ وعثمان فقال: «يا عليّ لعلّ هؤلاء القوم يعرفون لك حقّك وقرابتك من رسول اللّه ﷺ، وما أتاك اللّه من الفقه والعلم فإن وليت هذا الأمر فاتّقِ اللّه». ثمّ دعا عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه فقال: «لعلّ هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك وسنّك وشرفك، فإن وليت هذا الأمر فاتّقِ اللّه، ولا تحمل بني أبي معيط على رقاب المسلمين». ثمّ قال: «ادعوا لي صهيباً». فقال: «صلّ بالناس ثلاثاً». فلمّا ارتفع القوم قال عمر: «إن يولوها الأجلح يسلك بهم الطريق». فقال له ابنه: «فما يمنعك؟» قال: «أكره أنْ أتحمّلها حيّاً وميّتاً». ثمّ قال: «ادعوا لي طبيباً» فدعي له فقال: «اسقوه لبناً» فسقي فخرج اللبن من الجرح. فقال الطبيب: «ما أرى أن تمسي فما كنت فاعلاً فافعله». فقال: «اللّه أكبر» وأيقن بالموت. وجعل من حوله يثنون عليه فنظر إليهم وقال: «إنّ المغرور لمن غررتموه». ثمّ قيل له: «استخلف» فقال: «أنا أستخلف وقد رأيت من حرصكم على الدنيا ما رأيت».

قال: ولمّا خلا عمر بعثمان وعليّ قال لولده عبد اللّه: «اخرج». فقال له المغيرة بن شعبة: «لم يخرج فواللّه إنّه لأهل». قال عمر: «أقعدوني واللّه ما أردت بها وجه اللّه ليت عبد اللّه يحسن أن يطلّق زوجته فكيف يحسن القيام بأمر الرعيّة». ثمّ قال: «واللّه لوددت إنّي خرجت منها كما دخلت فيها لو كان لي ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطّلع». وكان رأسه في حجر عبد اللّه فقال له: «ضع رأسي على الأرض». ففعل فجعل يحكّ خدّه بالأرض وهو يقول: «الويل لعمر ولأمّ عمر إن لم يغفر اللّه له».

قال عبد الملك: لبث عمر في خلافته عشر سنين وثلاثة أشهر ثمّ طعن يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجّة سنة أربع وعشرين من الهجرة فلبث في طعنته ثلاثاً يصلّي في ثيابه الّتي طعن فيها ثمّ توفّي وهو يومئذٍ بسنّ رسول اللّه ﷺ.

وكان الشيطان يهاب عمر أن يأمره بمعصية وإنّ في القرآن لرأياً من رأيه وكلاماً من كلامه رضي اللّه عنه.

ثم خلف من بعد
عمر عثمان بن عفّان رضي اللّٰه عنهما
في سنة أربع وعشرين من الهجرة

قال الواقديّ: بويع لعثمان بن عفّان في غرّة المحرّم من سنة خمس وعشرين من الهجرة. فأقام حتى حضر الحجّ فأرسل عبد الرحمٰن بن عوف فأقام الحجّ للناس. ثمّ حجّ عثمان من بعد ذلك بالناس عشر سنين. ثمّ عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولّاها عبد اللّٰه بن أبي سرح فغضب عمرو وكان بدء الشرّ.

ثمّ زاد عثمان في المسجد ووسّعه وابتاع من قوم وأباه آخرون فهدم عليهم فصاحوا بعثمان فأمر بهم إلى الحبس وقال: «قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيحوا عليه».

ثمّ أجمع عثمان على غزوة إفريقية، وشاور في ذلك أصحاب رسول اللّٰه ﷺ، وكان عمر يكره فتحها ويقول: «لا تحتمل القيروان والياً مقتصداً» فوجّه إليه عثمان عبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح في جمع من المسلمين، فلقوا جمعاً كثيراً ففضّه اللّٰه له، وطلب القوم الصلح فصالحهم عبد اللّٰه بن سعد بن أبي سرح على ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار.

فلمّا دخلت سنة ثمان وعشرين

تزوّج عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبيّة، وكانت من أهل السماوة على النصرانيّة قبل أن يدخل بها، ثمّ أسلمت قبل البناء، فلمّا أدخلت عليه قال عثمان: «إنّي شيخ كبير فلا تنكري ذلك» فقالت: «واللّٰه إنّي لمن نسوة أحبّ الأزواج إليهنّ الكهل السيّد مثلك». قال لها: «أتقومين إلينا أم نقوم إليك؟». قالت: «ما جئتك من أرض السماوة وأنا أريد أن أثني إلى عرض البيت؟». بل أقوم إليك وكرامة». فقامت إليه فقال: «ضعي رداءك» فوضعته ثمّ قال لها: «اخلعي درعك» فخلعته ثمّ قال لها: «حلّي مئزرك» فقالت له: «أنت وذاك».

وفي هذه السنة فتحت مدينة قبرس. قال جبير بن نفير: فنظرت إلى أبي الدرداء يبكي فقلت له: «ما يبكيك؟ هذا يوم أعزّ اللّٰه فيه الإسلام وأهله وأذلّ فيه الشرك وأهله؟» فضرب على منكبي بيده وقال: «ثكلتك أمّك يا جبير ما أهون الخلق على اللّٰه إذا تركوا أمره بينا هي أمّة ظاهرة قاهرة في عزّ وملك إذ تركوا أمر اللّٰه فصاروا إلى ما ترى: سلط اللّٰه عليهم السباء وأفقرهم بعد الغنى».

وفي سنة تسع وعشرين من الهجرة

ضاق مسجد رسول اللَّه ﷺ على الناس، فكلّموا عثمان في توسعته، فابتدأ عمله في شهر ربيع الأوّل، وكان يباشر عمله ويقوم على رجليه والعمّال يعملون، وربّما نام في المسجد، فبناه بالحجارة المنقوشة وجعل سقفه الساج، وجعل طوله ستّين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع.

وفيها رجم عثمان امرأة من جهينة دخلت على زوجها فولدت لستّة أشهر من يوم تزوّجها، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه عليّ بن أبي طالب فقال: «إنّ اللَّه يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فسنتان للرضع وستّة أشهر للحمل فهو أوّل الإتمام». فأرسل عثمان في أثر المرأة فوجدها قد رجمت، فلمّا بلغ الولد اعترف به أبوه وكان أشبه الناس به، فما خرج من الدنيا حتّى تساقط عن فراشه عضواً عضواً.

وفي سنة ثلاثين من الهجرة

سقط خاتم النبيّ ﷺ من يد عثمان في بئر أريس، على ميلين من المدينة، وهذه البئر كانت في جنان عثمان، فجلس على حافتها مع بعض أصحابه، فجعل يحيل خاتم النبيّ ﷺ في يده من اليمنى إلى اليسرى، فسقط الخاتم من يده في البئر، وكان نقشه «محمّد رسول اللَّه» وكانت البئر من أقلّ الآبار ماء، فما أدرك لها قعر من يومئذٍ، فبات عليها عثمان ثلاث ليال يماح ماؤها الليل والنهار، فلا يزداد الماء إلّا كثرة، وكان قبل أن يقع الخاتم في البئر قد مات رجل من الخزرج، فلمّا وضع موضع الجنائز، وتقدّم الإمام ليصلّي عليه تكلّم وهو في أكفانه كلاماً مفهوماً: «أبو بكر الصدّيق: الليّن في نفسه القوي في أمر اللَّه صدق صدّق. عمر بن الخطّاب: القوي في أمر اللَّه صدق صدّق. عثمان بن عفّان: بئر أريس وما بئر أريس». فلم يدر الناس ما بئر أريس حتّى سقط فيها خاتم رسول اللَّه ﷺ. فحبّس عثمان تلك الجنان التي سقط فيها الخاتم. وإنّما سمّيت هذه البئر بأريس لأنّها نسبت إلى رجل من اليهود كانت له هذه البئر يسمّى أريس.

فيقال: من يومئذٍ نقم الناس على عثمان.

ثمّ مات عبد الرحمٰن بن عوف وهو ابن خمس وسبعين سنة، والعبّاس بن عبد المطّلب وهو ابن ثمانين سنة.

ثمّ كانت غزوة الصواري من أرض مصر، فواعدهم المسلمون أن يلتقوا في

البحر، فقرّبوا سفنهم إلى الشطّ، ثمّ ربط المسلمون سفنهم إلى سفن الروم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، أشدّ قتال رئي قطّ، ولم يكن في قتالهم رمي بسهم ولا طعن برمح ولا رمي بحجرة، إلّا الضرب بالسيف والطعن بالخنجر، وصبر الفريقان جميعاً، حتّى كان الظفر للمسلمين، فقتلوا من الروم ما لا يحصى، حتّى صارت أجسادهم كأمثال الجبال.

وفي سنة خمس وثلاثين

حوصر عثمان تسعة وأربعين يوماً، وكان الذين حاصروه من مصر ستّمائة رجل، والذين قدموا عليه من الكوفة مالك بن الحارث الأشتر النخعي وعدي بن حاتم، وقدم حكيم بن جبلة العبدي من البصرة في نحو مائة رجل، وهؤلاء قدموا لقتله، فعطش عثمان في حصره حتّى شرب ماء بئره، وكان عثمان قد اشترى بئر رومة بالعقيق بأربعمائة ألف دينار من المزني، فتصدّق بها على المسلمين، وكان يصوم الدهر، وأراد الناس أن يقاتلوا معه فأبى وقال: «سنجتمع وإيّاهم عند اللّه وسيرون بعدي أموراً يتمنّون أنّي عشت لهم، وقد عرفت أنّهم خدعوا وغرّوا، واللّه لو لم أقتل لمتّ وما لي في الحياة مستمتع، لقد كبرت سنّي ورقّ عظمي وسلس بولي وجاوزت أسنان أهل بيتي، وهؤلاء القوم لا يريدون تركي، واللّه ما أرغب في إمارتهم، لولا كان قول رسول اللّه ﷺ: «إنّ اللّه سيقمّصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه» لجلست في منزلي وتركتهم عن إمارتهم، وواللّه لو فعلت ما تركوني، اللّهمّ فاطلبهم وشتّت أمرهم وخالف بين كلمهم وانتقم لي». فكان كما قال.

فقتل يوم الجمعة، لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة عام خمسة وثلاثين من الهجرة، ودفن بين المغرب والعشاء يوم السبت، وأخفوا قبره، وتوفي وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، قتله خارجة الكوفة ومصر، وكان الّذي ولي قتله حمران بن سودان من أهل مصر، ولبث في خلافته اثنتي عشرة سنة كملاً.

ثم خلف من بعد عثمان
عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه

لمّا بويع لعليّ بن أبي طالب أتاه الأشتر فساقه، وإنه لجالس في بيته فاجتمع الناس طلحة والزبير وغيرهما، فقام الأشتر وقال: «قم يا طلحة ويا زبير فبايعا». فقاما وبايعا، وهما يظنان والناس قبل البيعة أنّها شورى. ثمّ خرجا من عند عليّ

وهما يقولان: «بايعناه بأيدينا ولم نبايعه بقلوبنا وكانت السيوف السالّة على رؤوسنا». فبايع الناس عليّاً، وتخلّف عن بيعته سبعة نفر: سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمّد بن مسلمة وأسامة بن زيد ولم يتخلّف أحد من الأنصار.

وقال سليمان الأنصاريّ: «بايعت عليّاً فرآني أبو بكرة وأنا متقلّد سيف فقال لي: ما هذا؟. قلت: بايعت عليّاً فقال: لا تفعل يا ابن أخي فإنّ القوم يقتتلون على الدنيا، وإنّما أخذوها من غير مشورة».

وحدّثنا عن الأعمش عن أبي صالح أنّ عليّاً حين أخذت السيوف مأخذها من هام الرجال قال: «وددت أني متّ قبل هذا بعشرين سنة».

وقال الحسن: «لودّ عليّ أنّه لم يعمل ما عمل، ولود عمّار بن ياسر أنّه لم يعمل ما عمل، ولودّ طلحة والزبير أنّهما لم يدخلا فيما دخلا فيه».

قال: ولما رأى ابن عمر رؤوس أصحاب ابن الزبير على الرماح والقصب قال فيهم: «يتهادون بالرؤوس ولا يدرون ما صارت إليه الأرواح».

وفي تلك السنة سار قسطنطين بن هرقل في ألف مركب يريد المسلمين، فسلّط الله عليهم عاصفاً من الريح، فغرّقها ونجا قسطنطين، حتى انتهى إلى صقليّة، فصنعوا له حماماً فدخله فقتلوه فيه.

ذكر ما كان في سنة ستّ وثلاثين

وفي هذه السنة خرج عليّ رضي الله عنه من المدينة، وخرج طلحة إلى مكة، وعائشة يومئذ بها، فأجمعوا على المسير إلى البصرة، فخرجوا من مكة، وخرج عليّ من المدينة في ستّ مائة رجل من طيئ وستّ مائة من غيرها. فمضى عليّ إلى البصرة، فالتقى هو وطلحة والزبير وعائشة فاقتتلوا قتالاً شديداً، وظهر عليّ وقتل طلحة والزبير، ورجعت عائشة إلى المدينة، فأقام عليّ بالبصرة خمسة عشر يوماً، ثمّ سار إلى الكوفة وكتب إلى البلدان بما فتح الله عليه، ويرغّبهم في الجماعة والطاعة.

وسئل مالك عن خروج عليّ رضي الله عنه فقلال: «كان خروجه خطأً».

ثمّ خرج معاوية من الشام إلى صفّين وجاء عليّ من العراق، فالتقوا وكان معاوية قد سبق عليّاً إلى الماء، فاقتتلوا عليه حتّى صار الماء بينهم، فكان هذا أوّل قتال وقع بينهم.

ثمّ خرج عمرو بن العاص في أربعة آلاف، فلقي محمّد بن أبي بكر خارجاً من مصر، فاقتتلوا حتّى انهزم محمّد، فاختفى عند جبلة بن مسروق، فدلّ عليه، فخرج محمّد فقاتل حتّى قتل، فأمر به معاوية بن حديج فأدخل في جوف حمار فأحرق فيه.

وفي هذه السنة اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعريّ عند انقضاء المدّة، ولم يواف عليّ ووافى معاوية وعبد اللّه بن عمر وسعيد، فخرج عمرو وأبو موسى وواطأه في السرّ على خلع عليّ ومعاوية وتغليب الأمر عبد اللّه بن عمر. فلمّا اجتمع الناس قدّمه عمرو في الكلام، فتكلّم بخلع عليّ ومعاوية وتولية ابن عمر، ثمّ قام عمرو فخالف ما كان بينه وبين أبي موسى، فتكلّم بخلع عليّ وإثبات معاوية، فصاح الناس واختلفوا.

ذكر قتل عليّ رضي اللّه عنه وتولية معاوية بن أبي سفيان

قال الواقديّ: وفي سنة أربعين قتل عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ودفن ليلاً وأخفي قبره ومات من يومه وكانت إمارته أربع سنين وثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً وكان الّذي قتله عبد الرحمٰن بن ملجم المراديّ لعنه اللّه.

بويع لمعاوية بن أبي سفيان وولّى معاوية على المدينة مروان بن الحكم في سنة اثنتين وأربعين.

ومات عمرو بن العاص يوم الفطر بمصر، وكان قد عمل على مصر في خلافة عمر بن الخطّاب، فاحتبس النيل ولم يخرج، فسأل عن ذلك أهل مصر فقالوا: «إنّه لا يخرج حتّى يلقى فيه جارية بكر». فأعظم عمرو ذلك وكتب إلى عمر بالخبر فكتب عمر رضي اللّه عنه في سحاءة: «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم: من عمر بن الخطّاب إلى نيل مصر أمّا بعد: فإن كنت تخرج بحولك وقوّتك فلا تخرج أبداً، وإنْ كنت تخرج بحول اللّه وقوّته فاخرج والسلام». ثم أمر بالسحاءة فألقيت في النيل فخرج النيل.

قال عبد الملك بن حبيب: فسألت بعض علماء مصر عن أيّام خروج النيل وجريته من أوّل ما يبدأ إلى آخره فقالوا: يجري سبعة وثمانين يوماً، فأوّل ما يبتدئ فلخمس بقين من يونيه بالقبطيّة، وهو يوفيه أيضاً بالعجميّة وحزيران بالسريانيّة،

فيجري في خمس بقين من يونية ثمّ شهر آب كلّه وأمشير كلّه، وهو أغشت بالعجميّة وخمساً من شهر المس أو ستّاً إذا كانت السنة كبيسة وسبع عشرة من توب وهو الصليب عند النصارى، وفي ذلك اليوم تفتح الشرّع كلّه بمصر، فجريه كلّه ثلاثة أشهر إلّا خمسة أيّام أو ستّة.

ووجد عمرو بن العاص المعظم من جهة الشرق من مدينة مصر فحصاً أفيح قد سلم من البنيان والغرس والعمارة فسأل دهاتهم عن ذلك، فأعلموه أنّهم سمعوا سماعاً يحكون عن أوائلهم أنّ هذا الفحص سيغرس فيه غرس من غراس الجنّة، فلذلك تركناه من غير عمارة. فكتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب فكتب إليه: «إنّا لا نعلم في الدنيا من غروس الجنّة إلّا أجساد المؤمنين؛ اجعل ذلك الفحص مقبرةً». ففعل فكان عمرو بن العاص قد عمل على مصر أربع سنين في زمان عمر، وفي خلافة عثمان مثله، وفي خلافة معاوية سنتين.

فحدّث عبد الملك عن الحزاميّ عن الواقديّ عن سعد بن راشد عن سويد بن قيس أنّه لمّا نزل به الموت تململ وتلهّف على ما فرّط وتأسّف على ما صنع وندم على ما فعل وقال: «كنت أشهد على نفسي شهادتين أثبّت فيهما على نفسي: كنت مشركاً، فلو متّ وأنا على تلك الحال لكنت من أهل النار لا شكّ فيه، ثمّ أسلمت وبايعت رسول اللّه ﷺ وقلت: أبايعك على أن يغفر اللّه لي ما تقدّم من ذنبي». فقال: «يا عمرو؛ الإسلام يمحو ما كان قبله ولا يمحو ما كان بعده؛ إلّا لمن أحبّ اللّه وأطاعه، وكذلك الهجرة تمحو ما كان قبلها ولا تمحو ما كان بعدها إلّا لمن خاف مقام ربّه وأطاعه في سرّ أمره وعلانيته». قال عمرو: «فصحبت رسول اللّه ﷺ سامعاً مطيعاً واللّه إنْ كنت لأشدّ الناس حياءً منه ما ملأت عينيّ منه ولا راجعته فيما أراد حتّى قبضه اللّه، فلو متّ أنا حينئذٍ وأنا على تلك الحال لكنت من أهل الجنّة لا شكّ فيه، ولقال الناس: هنيئاً لعمرو لقد مات على خير. ثمّ طلبت الدنيا وتلبّست بالسلطان وركبت الدنيا وركبتني وأحببتها وأحبّتني، ودخلت في أشياء وددت واللّه أنّي لم أحضرها ولم أتلبّس بها، فرفعتني أمور وخفضتني أمور، فلا أدري على ما أقدم عليه، إلّا أنّي لم أزل راجياً لعفوه ورحمته، فإنْ يعذّب فبذنبي، وإنْ يَعْفُ ويرحم فذلك رجائي فيه».

ثمّ قال عبد اللّه لأبيه عمرو بن العاص: «يا أبتاه كثيراً ما كنت أسمعك تقول إنّي لأعجب من الرجل ينزل به الموت ومعه عقله ولسانه؛ كيف لا يصفه؟». قال: «يا بنيّ إنّ الموت أعظم من أن يوصف، ولكنّي سأصف لك منه شيئاً، واللّه لكأنّ على كتفيّ جبل رضوى، ولكأنّ روحي يخرج من ثقب إبرة، ولكأنّ في جوفي

الهراس؛ يعني الشوك، ولكأنّ السماء انطبقت على الأرض وأنا بينهما». ثمّ قال: «اللّهمّ أمرتني فتركت، ونهيتني فركنت، ولا يسعني إلّا مغفرتك، فمهما يكن من ذلك فإنّي أمسك نفسي بلا إله إلّا اللّه». ثمّ قبض يده ورفعها على الأخرى، وقبض الأخرى ورفعها ثمّ قال لولده: «إذا أنا متّ فلا تبكينّ عليّ باكية ولا تغال في أكفاني، واشدد عليّ الإزار، فإنّي مخاصم، ولا تستر بدني بطوبة ولا خشبة ولا حجارة، فما جنبي الأيمن أحقّ بالتراب من الأيسر، فإذا واريتني فاجلس على قبري ساعة كي أستأنس بك، وأكثر زيارة قبري والاستغفار لي». فلمّا مات فعل عبد اللّه كلّ ما أمره به، وقال الشفيق: «لقد ورّثتك الذنوب يا عمرو أسفاً طويلاً وداءً في مضمر الأحشاء دخيلاً، ولقد أسهرتك ليلاً طويلاً، وأيم اللّه ما أخرج هذا الكلام منك إلّا شجو حرقات كانت قعيد قلبك، ولهذا اعترفت عند الموت بسوء ما جنت يدك، ولقد أبكاني ما ذكرته من نفسك، ومثّلت لنفسي اعترافك، فشرقت بمثل غصّتك هذه، وقد جاهدت في اللّه وأنكأت أعداء اللّه، وافتتحت المدائن والحصون، فما لي لا أحذو فعالك ولا أشاركك في تضرّعك، أيشفق الصالحون من أصحاب رسول اللّه ﷺ وقد حسنت أعمالهم، وزكت في الدنيا أعمارهم، ولا أرى أحداً يقفو سبيل آثارهم، يخاف المتقون على كثرة إحسانهم، ويفرح المذنبون بقليل ما عندهم، ما لقلوبنا لا تلين كما تلين قلوب المتّقين»[1].

---

(١) تلخيص هذه الفترة:
دام حكم الخلفاء الراشدين الأربعة من سنة ٦٣٢ حتى سنة ٦٦١م، في هذه الفترة استطاعت جيوش المسلمين أن تقهر الروم في موقعة اليرموك (٦٣٦م) وأن تهزم الفرس في معركة القادسية (٦٣٨)، وقد شملت رقعة الدولة الإسلامية في هذه الفترة إلى جانب الجزيرة العربية بلاد فارس والعراق وبلاد الشام ومصر وإفريقيا حتى طرابلس الغرب، وكذلك أرمينيا وأواسط آسيا حتى نهر جيمون (أموداريا).

تاريخ بني أمية

تاريخ بني أمية

قال عبد الملك: وفي سنة ثلاث وأربعين كتب معاوية إلى مروان بن الحكم أنْ: «اجمع الصيعان على صاع رسول اللَّه ﷺ ثمّ ابعث بها إليّ». ففعل وذلك أنّه قيل له صاع مروان. فقال هو: صاع رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان.

ثمّ عمل مروان المقصورة بالمدينة وعملها معاوية بالشام. قال مالك: فكان مروان أوّل من عمل المقصورة، وكان سبب عملها أنّ رجلاً من أهل اليمن جلس لمروان حين خرج إلى الصلاة فطعنه فأخطأه. فأخذ فقال مروان: «لم فعلت هذا؟». قال: «لأنّ عاملك على موضع كذا وكذا ظلمني». فأمر مروان بمقصورة فعملت له من طين، وجعل لها تشبيكاً.

وروى مطرّف عن مالك أنّه قال: لم يكن في زمان رسول اللَّه ﷺ ولا في زمان أبي بكر وعمر سجن ولا حرس، وأوّل من عمل السجن والحرس معاوية.

قال: وفي هذه السنة أخرجت المنابر إلى المصلّى في العيدين، وكان الأمر على غير ذلك: إنّما كان رسول اللَّه ﷺ يخطب على الأرض.

وفي سنة خمس وأربعين

ماتت حفصة زوجة النبيّ ﷺ، وصلّى عليها مروان، فلمّا فرغ من دفنها أرسل مروان إلى ابن عمر بعزيمة في الصحف الّتي كانت عند حفصة، فأرسل بها إليه فمحاها.

وفي سنة ستّ وأربعين

هنات كرهنا ذكرها وبعد ذلك حجّ معاوية بالناس.

قال عبد الملك: حدّثني ابن الماجشون قال: لمّا استقامت لمعاوية الأمور قدم المدينة حاجّاً فدخل المسجد فصلّى فيه ثمّ أخذ بيد الحسن بن عليّ فخاصره، يعني أخذ بيده وماشاه، حتّى وقف بدار عثمان، فبعث إلى بناته وعياله بالسلام فشهقن بالبكاء، وذكرن عثمان في بكائهنّ، وصرخت عائشة بنت عثمان بالبكاء

وهي يومئذٍ أكبر بناته وأفضل أهل داره وصاحت: «واأبتاه واثأر والداه» ثمّ هدأت أصواتهنّ من البكاء، فرددن السلام، وأرسلت عائشة بنت عثمان إلى معاوية تقول له: «كيف تقف علينا بابن قاتل أبينا، وصالحته من ثأر الشهيد المظلوم على أن تكون أمير المؤمنين». فأرسل إليها معاوية: «يا ابنة أخي، إنّ الناس أعطونا سلطاناً وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا وباعونا هذا فإنْ أعطيناهم غير ما اشتروا منّا شحوا بحقّهم، ومع كلّ إنسان منهم سيفه، وهو يرى مكان شيعته، فإنْ نكّبناهم نكّبوا عنّا، ولم نَدْرِ الدائرة على من تكون، أعلينا أم لنا؟ فلأنْ تكوني ابنة أمير المؤمنين خير لك من أن تكوني أمة من إماء المسلمين، وأمّا قولك في أبي محمّد يعني الحسن أنّه ابن قاتل أبيك، فليس كذلك، ولكنّه من أنصار أبيك، وممّن بذل نفسه دونه، ودعاه إلى القتال معه، فأبى وهو بعد ابن عمّك، ولي مع ذلك حاجة، أنت جديرة بإسعافي فيها والانتهاء فيها إلى مسرّتي». قالت: «حاجتك يا أمير المؤمنين غير مردودة، وأنت اليوم بمكان أبينا فسل ما بدا لك». فقال: «خطبت إليك نفسك على أبي محمّد». وضرب على يده من غير أن يكون شاوره في ذلك وذاكره، ولكنّه أحبّ الألفة وقطع الفرقة، فبكت عائشة ثمّ أرسلت إليه: «ذلك بيدك يا أمير المؤمنين». فقال: «قد زوّجتك إيّاه وأصدقتك عنه عشرة آلاف دينار، فانظري فيما يصلحك إلى صدري من الحجّ». فأرسل إليها بالمال وأشهد على نكاحها ومعه الحسن بن عليّ، فلمّا صدر إلى المدينة بقي عليها وأصلح من شأنه.

فانتبه الحسن ليلة بنائه، فجلس على الفراش يمسح النوم عن وجهه وهو يريد القيام لبعض حاجته، فإذا برجله منتشبة في أسفل الثوب الّذي عليهما، والثوب منتشب في خلخال عائشة، فلمّا تحرّكت عائشة لانتشاب أقدامهما في أسفل الثوب قال لها: «ما هذا؟». فقالت: «إنّ الدار متثلّمة من فعل الغواة، فخشيت أن تقوم ليلاً ولا تعرف حال الدار، فيصيبك بعض ما تكره، فأردت أنْ أعرف قيامك فأحذّرك». فجازاها خيراً ثم قال: «قد علمت العرب أنّي مطلاق للنساء والله لا أفارقك ما بقيت». فلم تزل عنده بأحسن حال حتّى توفّاه الله، وإنّ جلّ ولده لمنها.

ثمّ إنّ الحسن قال لها بعد عشرين سنة: «أمرك بيدك». فقالت له عائشة: «كان بيدك منذ عشرين سنة فأحسنت حفظه ورعيته، ثمّ إنّك رددته إليّ فقبيح بي أن أضيّعه بل أردّه إليك ولا أحكم فيه». فأعجبه قولها فأمسكها حتّى مات.

وقال المحسّن: للخبر حديث ما أعجبه وأكثر فوائده لمن فهمه وتدبّره، فلله

أقوام كانوا خلقوا التحسين ما قبّحت الدنيا فسهلت عليهم ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفسهم، فبذلوا أموالهم، وصانوا أعراضهم، حتّى ما يجد المادح فيهم مزيداً، ولا العائب فيهم مطمعاً؛ ذهبت أبدانهم، وبقيت أخبارهم، فتركتهم في الدنيا حديثاً حسناً، وفي الآخرة أحسن.

وقال معاوية لولده يزيد: يا بنيّ آثرت من أجلك الدنيا على الآخرة، وحملت الوزر على عنقي ليعلو قدرك، وليوطّأ عقبك، ويمضي أمرك، ثمّ وطّأت لك الأمور، وذلّلت لك أهل العزّ كافّة، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال، وجمعت لك أفضل ما جمع والد لولده، فافعل وافعل ما قد يطول ذكره.

كلام ما أنفعه للدنيا وأضرّه للآخرة، وما أشبه هذا الحديث بحديث معاوية حين أرسل إلى الأحنف بن قيس فقال له: «يا أبا بحر ما تقول في الولد؟». فقال: «يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، نحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كلّ جليلة، إنْ طلبوا فأعطهم، وإنْ سخطوا فأرضهم، يمنحوك ودّهم ويحبّوك جهدهم، ولا تكُ عليهم فظّاً فيملّوا حياتك ويحبّوا وفاتك ويكرهوا قربك». فرضي معاوية عنه وأثابه على مقالته.

ما أحسن كلام الأحنف في الظاهر وأقبحه في الباطن، فاسمعْ بعض ما جاء به القائل، ما أحسن الكلام لولا الجواب، لقد كان للأحنف أولاد يحبّهم، ولمعاوية مثل ذلك، «وحبّك الشيء يعمي ويصمّ» وكلّ من أحبّ شيئاً أعماه حبّه عن مساوئه.

وقول الأحنف لمعاوية في الولد: «إن طلبوا فأعطهم وإن سخطوا فأرضهم يمنحوك ودّهم ويحبّوك جهدهم» فلعمري لو أنّ الروم والإفرنج والعجم الّذين أمرنا بقتالهم ومجاهدتهم فعلنا هذا بهم لكانوا أبرّ العالمين بنا، وأحرصهم علينا، فما بال الأحنف يحضّ على برّ من لا يبرّونا إلّا ذكرنا ولا يحبّونا إلّا بإباحتنا لهم أموالنا وما حوته أيدينا وما به تمام جاهنا وقدرنا قوام ديننا.

وقول اللّه تعالى أصدق واتباع ما أخبرنا به عنهم أحقّ حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. فأخبرنا جلّ وعزّ بعداوتهم وحذرنا شأنهم ومكرهم وغائلتهم.

هذا يطول ويكثر، إنْ ذهبنا نستقصيه قصر الكتاب عنه، غير أنّا نقول ونختصر: من لم يكن له ولد توسّع في عيشه بما أمكن، وكفاه القليل من النفقات،

وكان مع امرأته في نقاوة وطراوة وحسن ملبس وطيب عيش وقلّة همّ مع صقالة وجهها واهتمامها بكحل عينيها وخضاب يديها، وكذلك الأَمَة قبل أن تحمل همّها في صقالة وجه وكحل راتب وخضاب مردّد، فإذا حملت دخلها النقص، وإذا وضعت ذهبت نضارتها وجمالها، وتبدّلت بالطيب الوسخ، وبالعطر والزينة المرّة والتفل، ونقصت في منظرها نصف قيمتها، ثمّ لا تزال تنقص حتّى تذهب قيمتها.

ثمّ رجعنا إلى ما كنّا فيه.

قال: لمّا حجّ معاوية بالناس قال في حجّته: «إنّي رأيتُ ألّا أتركَ منبر رسول اللّه ﷺ وعصاه بالمدينة وبها قتلة عثمان وأعداؤه». فطلب العصا وكانت عند سعد القرظ فجاءه أبو هريرة وجابر بن عبد اللّه فقالا: «يا أمير المؤمنين نذكّرك اللّه ألّا تفعل هذا، تخرج منبر رسول اللّه ﷺ وتخرج عصاه إلى الشام، إنْ كنت أجمعت على هذا فانقل المسجد معك». فمضى على رأيه، فلمّا حرّك المنبر انكسفت الشمس وظهرت النجوم وأظلمت الأرض، فلمّا رأى ذلك أمسك وزاد في المنبر ستّ درجات، فهو اليوم من ثمان درجات[1].

ثمّ بعث معاوية عقبة بن نافع الفهريّ إلى افريقية، فهو الّذي افتتحها وبنى مسجدها وكانت غيضة لا ترام من الحيّات والسباع وغير ذلك من الدوابّ فدعا اللّه عليها فلم يبق منها شيء إلّا خرج هارباً حتّى أنّ السباع وغيرها لتحمل أولادها.

وكان عقبة خير وال وخير أمير.

وفي هذه السنة ماتت صفيّة زوجة النبيّ ﷺ، والمغيرة بن شعبة، وأبو موسى الأشعريّ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

وفي سنة ثلاث وخمسين

حجّ بالناس سعيد بن العاص، وسقى الناس بعرفة شراب العسل وشراب الرمّان والسكّر، وإنّما كان الناس قبل ذلك يسقون السويق واللبن.

ثمّ ماتت عائشة زوج النبيّ ﷺ رحمها اللّه ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان، وأمرت أن تدفن ليلتها، فاجتمع الناس وحضروا، فلم تر ليلة قطّ أكثر ناساً منها، ودفنت بعد القيام والوتر ومعها جرائد النخل قد لفّت فيها الخرق بالزيت موقّدة، واجتمع النساء كأنّه عيد، وصلّى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها

(١) راجع تاريخ الطبري (٥/٢٣٨).

عبد اللَّه بن الزبير وعروة بن الزبير والقاسم وعبد اللَّه ابنا محمّد بن أبي بكر.

ثمّ ماتت أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ وصلّى عليها أبو هريرة أيضاً.

ثمّ مات أبو هريرة وهو ابن ثمان وسبعين سنة، واسمه عبد اللَّه بن عمرو الدوسي، وكان أبو هريرة قد أوصى أهله وهو في الموت ألّا يعمّموه ولا يقمّصوه، فإنّ رسول اللَّه ﷺ لم يعمّم ولم يقمّص. فاجتمع الناس لحضور جنازته، وكان ولد عثمان بن عفّان رضي اللَّه عنه الّذين ولوا حمل سريره حفظاً لما كان من حسن رأيه في عثمان، ومضى ابن عمر أمام جنازته فأكثر الترحّم عليه ويقول فيه: «كان ممّن يحفظ حديث رسول اللَّه ﷺ». وكان الّذي صلّى عليه الوليد بن عتبة، وهو أمير يومئذٍ، وشهدها مروان بن الحكم وهو معزول.

وكتب الوليد إلى معاوية بموته فكتب إليه أنْ: «ادفع إلى ورثته عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، فإنّه كان ممّن نصر المظلوم عثمان».

ثمّ خلا معاوية بجماعة من قريش فقال لهم: «إنّي رأيت أفواه الناس فاغرة إلى ما تحوي أيدي السلطان، فهل لكم في أن أستعملكم في أعمال السلطان وخدمته، وأصحاب دواوينه، فيشرفون بذلك ويحتاج الناس إليكم؟». فقالوا له: «يا معاوية؛ واللَّه ما أردت إلّا أن تستذلّنا بخدمتك، وتجعلنا من شرطك وأتباعك، وتلحقنا بالسفلة، والموت أحبّ إلينا من إجابتك، وللفقر أعود علينا من دعائك، وللأباعد أوصل لنا من وجهك». فقال معاوية: «لا رأي لمن لا يطاع، ولا نصيحة لمن يستغشّ ويتّهم، ولتعلمنّ نبأ قولي بعد حين». فخرجوا عنه متغاضبين. فما كان إلّا ريث أعوام قلائل حتّى احتاجوا وأضرعوا واستجادوا إلى ما كانوا بالأمس يستهينون به، ثمّ تلهّفوا على ما كان معاوية دعاهم إليه وحضّهم عليه، فعضّوا أناملهم ندماً على ما فاتهم.

قال عبد الملك: حدّثنا عبد الملك الماجشون أنّ حبيب بن مسلمة الفهريّ قال: إنّي لأسير يوماً مع معاوية في سكّة من سكك دمشق إذا نحن برجل بذّ الهيئة قصير القامة، فرأيت معاوية قد أعظمه ورماه بعينه، ورأيت الرجل غير مكترث، فعجبت من ذلك حتى وقفنا عليه، فواللَّه ما سلّم على معاوية ولا سلّم عليه معاوية، فقال له معاوية: «أراغباً جئت أم طالباً؟». فقال: «معه سقاؤه وحذاؤه يراه اللَّه ولا يراه». فمضى معاوية وتركه، فقلت: «من هذا يا أمير المؤمنين؟». قال: «هذا معبد الجهنيّ». قلت: «واللَّه ما أعلم قرشيّةً ولدتْ قرشياً أذلّ منك». قال: «ويحك أكون كذلك وقد رأيت أمري مع عليّ بن أبي طالب وابن أبي طالب حيث هو». قلت: «كيف لا». ثمّ قال: «أيهما أحبّ إليك، أحلم عنهم ويجتمعون لي، أم أجهل عليهم

فيتفرّقون عني؟». قال: «لا بل تحلم عنهم ويجتمعون لك». قال: «دعني، فوالله ما ولدت قرشيةٌ قرشياً في صدره مثل هذا القلب». وضرب بيده على صدره.

ولمّا أجمع معاوية على البيعة ليزيد ولده، واجتمع الناس لذلك، فأظهر قوم كراهة، قام رجل من عذرة فاخترط سيفه شبراً ثمّ قام على رأس معاوية فقال: «أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية «فإنْ يمت فهذا» وأشار إلى يزيد «فمن أبى فهذا» وأشار أو ضرب على قائم سيفه، فقال معاوية: «اقعد فأنت سيّد الخطباء».

وحدّثنا عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنّ المسور بن مخرمة قدم وافداً على معاوية، فقضى حاجته ثمّ دعاه فأخلاه فقال: «يا مسور ما فعل طعنك على الأئمّة؟» قال: «دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له». قال معاوية: «لا والله حتّى تكلّمني بذات نفسك وبالّذي تعيبت عليّ». قال المسور: فلم أترك شيئاً كنت أعيبه عليه إلّا بيّنته له فقال له: «لا بريء من الذنب؛ فهل يعدّ لنا يا مسور ممّا نلي من الإصلاح في الرعية فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، أم تترك الحسنات وتعدّ السّيئات؟». قال المسور: «لا والله ما تذكر إلّا ما نزل من هذه الذنوب». قال معاوية: «فأعترف والله بكلّ ذنب أذنبته وأنت يا مسور ما لك ذنوب في خاصّتك تخشى أن يهلكك الله بها إنْ لم يغفر لك؟». قال: «نعم والله». قال معاوية: «فما يجعلك أحقّ أنْ ترجو المغفرة منّي؟ فوالله ما إليّ من الإصلاح أكثر ممّا إليّ من غيره، ولكنّي والله لا أخير بين أمرين أحدهما لله والآخر لغيره إلّا اخترت الله على ما سواه، وإنّي لعلى دين يقبل الله فيه العمل ويجزي فيه بالسّيئات، إلّا أن يعفو عن من يشاء، فأنا أحتسب كلّ حسنة عملتها بأضعافها مع أمور عظام لا أحصيها، وإن عددتها لك ممّا علمه الله في إقامة صلوات المسلمين والجهاد في سبيله والحكم بما أمر الله به نبيّه مع أمور لست تحصيها، وإن عددتها لك فتفكّر في ذلك ثمّ لمني بعد ذلك أو دع». قال المسور: «فعلمت أنّ معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر». قال عروة: فلم أسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلّا دعا له وصلّى عليه.

كيف يحاسب الله الناس
يوم القيامة ويجازي بالحسنات والسيّئات

قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] يعني يكتب له بالحسنة عشر حسنات ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] يعني من عمل سيّئة كتب عليه سيّئة واحدة.

وكان رسول اللّه ﷺ يقول: «ويل لمن غلبت واحدته عشراته» يعني لمن كثرت سيّئاته الّتي تكتب واحدة، حتّى تصير أكثر من حسناته الّتي تكتب عشرات.

قال: وإنّما تقاس السيّئات يوم القيامة بالحسنات أن تحسب كلّ سيئة بحسنة فإن نفدت السيّئات وقد فضل من الحسنات فضل دخل الجنّة فهو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣] وإن نفدت الحسنات وقد فضل من السيّئات فضل فذلك الّذي يخاف عليه، وهو الّذي للّه فيه مشيئة، يعذّب إن شاء ويغفر إن شاء، كما وصف نفسه في كتابه، وإن نفدت الحسنات بنفاد السيّئات فأولئك قوم يحبسون على سور بين الجنّة والنار يقال له الأعراف، حتّى يقضى بين الناس.

وروى مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «والّذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك، يقول اللّه عزّ وجلّ: إنّما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلي فهو لي وأنا أجزي به»(١).

فقد علمنا أنّ أعمال البرّ كلّها للّه وهو يجزي بها، ولكن معناه ليس يظهر من ابن آدم بلسان ولا عمل فتكتبه الحفظة كما تكتب الذكر الّذي هو باللسان، وكما تكتب الصلاة الّتي هي بحركة البدن، وكما تكتب الصدقة الّتي هي بالعطية، فالصيام يخالف أعمال البرّ كلّها، لأنّه بنيابة القلب وإمساكه عن حركة المطعم والمشرب وحركة الفرج بالالتذاذ. يقول اللّه عزّ وجلّ: «فأنا أتولّى جزاءه على ما أحبّ من التضعيف، وليس على كتاب كتبه حفظتي على عبادي، فالصيام فوق الأعمال كلّها في الثواب».

وحدّثنا عن محمّد بن عبيد قال: حدّثنا الوليد بن مسلم قال: حدّثنا زهير بن محمّد عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «شفاعتي يوم القيامة لأهل الذنوب من زادتْ حسناته على سيّئاته، فذلك الّذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوتْ حسناته وسيّئاته فذلك الّذي يحاسب حساباً يسيراً، ومن زادتْ سيّئاته على حسناته دخل النار، إلّا أنْ يعفو اللّه عنه بكرمه ورحمته».

وفي سنة ستّين من الهجرة

مات معاوية للنصف من رجب وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر.

وكان معاوية يقول: أمّا أبو بكر فحبّته الدنيا ولم يحبّها، وأمّا عمر فلم تحبّه

(١) رواه البخاري في كتاب (الصوم) باب (فضل الصوم) حديث رقم (١٧٩٥).

الدنيا ولا أحبّها، وأمّا عثمان فأخذ منها وترك، وأمّا أنا فركبتني الدنيا وركبتها.

ثم خلف من بعد معاوية ابنه يزيد المكنّى بأبي خالد فلبث في خلافته أربع سنين إلاّ أربعة أشهر

قال الواقديّ: في ولاية يزيد قتل حسين بن عليّ بموضع يقال له كربلاء.

وفي ولايته قتل أهل المدينة يوم الحرّة.

قال: وقتل حسين بن عليّ في سنة إحدى وستّين من الهجرة يوم عاشوراء. قتله عمر بن سعد بن أبي وقّاص واجتزّ رأسه خولي، وحمل رأسه إلى يزيد بن معاوية، وهو أوّل رأس حمل في الإسلام، وأوّل رأس رفع على خشبة.

ثمّ هاجت فتنة الحرّة بالمدينة، فقتل رجال من أصحاب رسول الله ﷺ وأبنائهم وخيار التابعين، وكانت الوقعة بحرّة بني زهرة، وهو الموضع الّذي وقف فيه رسول الله ﷺ فاسترجع وقال: «هاهنا يقتل خيار أمّتي بعد أصحابي».

وفي سنة أربع وسبعين

هدم ابن الزبير الكعبة حتّى سوّاها بالأرض، وذلك أنّ الحصين بن نمير لمّا حاصر ابن الزبير بمكّة اقعها[١] النار وحتّى اسوّد البيت، وانصدع الحجر، فلذلك هدم ابن الزبير البيت.

فلمّا اشتدّ حصار الحجّاج[٢]، وضيّق على ابن الزبير وتفرّق الناس عنه إلّا القليل دخل على أمّه حين رأى الناس قد خذلوه فقال: «يا أمّه خذلني الناس، حتّى ولدي وأهلي فما رأيك؟». قالت: «أنت والله يا بنيّ أعلم بنفسك؛ إنْ كنت تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكّن من رقبتك، وإنْ كنتَ أردتَ الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكتَ من قتل معك، وإنْ قلت: كنت على حقّ فلمّا أصابني الوهن ضعفت نيّتي، فليس هذا من فعل الأحرار ولا أهل الدين». فدنا منها وقبّل رأسها ويدها وقال: «هذا والله رأيي والّذي له قمت، وما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، ولا دعاني إلى الخروج إلّا الغضب لله، وأنا يا أمّه مقتول في يومي هذا، فلا يشتدّ جزعك عليّ وسلّمي

---

(١) هكذا وردت في الأصل.

(٢) وذلك في خلافة الوليد بن عبد الملك.

الأمر للّه». فقالت أمّه: «إنّي لأرجو أنْ يكون عزائي فيك حسناً إنْ تقدّمتني، وإنْ تقدّمتك ففي نفسي الهمّ والحزن حتّى أنظر إلى ما يصير إليه أمرك». فما بقيت بعده إلّا خمساً أو عشراً حتّى ماتت.

وكان ابن الزبير إذ دخل على أمّه رأت عليه الدرع قالت: «ما تصنع بهذه؟ ولا تدفع عنك الموت إذا جاء». ثمّ شدّ ابن الزبير قميصه وجبّة خزّ تحت القميص فأدخل أسفلها في المنطقة ثمّ قال لأصحابه: «احملوا على بركة اللّه وعونه». ثمّ حمل فضرب بآجرّة فأصابه في وجهه فانبعث الدم فأنشأ يقول: [الطويل]

وَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدِّمَا(١)

فقتل يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة رحمه اللّه.

ثمّ بنى الحجّاج الكعبة وأعادها على بنائها الأوّل.

وفي سنة خمس وسبعين

أمر عبد الملك بن مروان بنقش الدنانير والدراهم وضربها وهو أوّل من أحدثها. وإنّما كانت المثاقيل قبل ذلك مثاقيل الجاهليّة؛ في المثقال اثنان وعشرون قيراطاً إلّا حبّة، وكانت العشرة من الدراهم وزن سبعة، وإنّما كان يجري بين الناس الوزن، وإنّما كانت تسمّى دنانير ودراهم على وزنها. فأحدث عبد الملك ضربها ونقشها، فاستحسنه الناس ولم يكره منها إلّا نقش كتاب اللّه فيها، لأنّ اليهود والنصارى يمسكونها وهم أنجاس، فكره ذلك بعض العلماء.

وفي هذه السنة أمر الحجّاج بقتل ابن القرّيّة، أيّوب. وكان ابن القرّيّة مع ابن الأشعث على الحجّاج في حربهما، فلمّا انهزم ابن الأشعث صار إلى الكوفة، وكان مع حوشب بن يزيد، فبينما هو ذات يوم عنده إذ أتاه كتاب الحجّاج فيه: «أمّا بعد: إذ صرت كهفاً ومأوىً لمنافقي أهل العراق فإذا نظرت في كتابي هذا فأرسل إليّ بابن القرّيّة مشدودة يده إلى عنقه مع ثقة من قبلك». فلمّا قرأ حوشب الكتاب رمى به إلى ابن القرّيّة فقرأه فقال: «سمعاً وطاعة». فبعث به إلى الحجّاج موثوقاً، فلمّا دخل على الحجّاج قال: «يا ابن القرّيّة، ما أعددت لهذا الموقف؟». قال: «أصلح اللّه الأمير، ثلاثة صروف كأنّها ركب وقوف؛ دنيا وآخرة ومعروف». قال:

(١) البيت للحصين بن الحمام المري، ديوان الحماسة للمرزوقي (١٩٨).

«اخرج ممّا قلت». قال: «أفعل، أمّا الدنيا فمال حاضر يأكل منها البرّ والفاجر، وأمّا الآخرة فميزان عادل ومشهد ليس فيه باطل، وأمّا المعروف فإنْ كان لي اعترفت وإنْ كان عليّ اعتذرت»، فقال له الحجّاج: «أمّا الآن فاعترف بالسيف إذا وقع عليك». قال: «أصلح اللّٰه الأمير أقلني عثرتي، وأبلعني ريقي، فإنّه ليس جواد إلّا له كبوة ولا شجاع إلّا له نبوة ولا حليم إلّا له هفوة». قال الحجّاج: «كلّا واللّٰه لأوردنّك جهنّم». قال: «فأرسلني فإنّي أجد حرّها». فأمر به فضربت عنقه.

ثمّ خلف من بعد يزيد
معاوية المكنّى بأبي عبد الرحمٰن

وأمّه فاختة بنت أبي هاشم بن عتبة بن عبد الشمس. فلبث في خلافته ثلاثة أشهر، ثمّ توفّي في سنة أربع وستّين من الهجرة؛ في السنة الّتي مات فيها أبوه.

ثمّ خلف من بعد معاوية
ابن يزيد مروان بن الحكم بن أبي العاص
ابن أميّة بن عبد شمس

وأمّه آمنة بنت علقمة بن صفوان بن أميّة الكنانيّ. فلبث مروان خليفةً من بعد معاوية بن يزيد تسعة أشهر وأيّاماً ثمّ توفّي سنة خمس وستّين.

ثمّ خلف من بعد مروان
ابن الحكم ابنه عبد الملك المكنّى بأبي الوليد

وأمّه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن العاص بن أميّة.

فبعث عبد الملك إلى الزبير الحجّاجَ فقتله. ثمّ خرج عبد الملك بنفسه إلى مصعب بن الزبير فقتله. فلبث عبد الملك في خلافته إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصف.

قال عبد الملك بن حبيب: فحدّثني أبو العبّاس القرشيّ قال: أهديت إلى عبد الملك جارية من العرب فنظر إليها فأعجبه ما رأى من جمالها فقال لصاحبة جواريه: «أصلحي أمرها وقومي عليها، فإذا رأيت طهرها فإيتيني بها». ففعلت حتّى كان أوّل ذلك جاءته بها، فبينما هي أمامه وعند بعض جلسائه إذ جاءه رجل من

بعض أطرافه يعلمه بأنّ مصعب بن الزبير ثار عليه فقال: «يا فلانة ردّيها». فقال جلساؤه: «يا أمير المؤمنين لو ألممت بها إلمامةً؟» قال: «ويحكم فأين قول الأخطل: [البسيط]

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُم ... عَنِ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ»(١)

ثمّ أمر بالغزوِ وشمّر فيه وأبرز حجره وسرادقاته. ثمّ دعا بدابّة فركبها ثمّ جعل يودّع نساءه واحدةً واحدةً حتّى أتى على منزل عاتكة بنت يزيد فقامت إليه فقالت: «يا أمير المؤمنين لو كنت أقمت وبعثت إليه كلباً مثله؟ فإنْ ظفر به كان الّذي أردت، وإنْ هو هزم كنت أنت فئته، فإنّ أبي وجدّي كانا كذلك يفعلان». وأسكبت دموعها، فقال عبد الملك: «قاتل الله كثيراً، كأنه كان ينظر إليّ وإليك حيث يقول: [الطويل]

إِذَا مَا أَرَادَ الغَزْوَ لَمْ تَثْنِ هَمَّهُ ... حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمُ دُرٍّ يُزِينُهَا
نَهَتْهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ ... بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَاهَا قَطِينُهَا»(٢)

ثمّ ضرب وجه دابّته ونهض لوجهته وقتل عدوّه.

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجّاج بن يوسف: «إنّه ليس شيء من الدنيا ولذّاتها أصبت منه وإنّ أحبّ الأشياء إليّ مناقلة الإخوان الحديث وقبلك عامر الشعبيّ وهو بحر زمانه فابعث به إليّ».

فدعا الحجّاج الشعبيّ فأعلمه وبعث به إليه حتّى إذا كان بباب عبد الملك بن مروان قال للحاجب: «استأذن لي» قال: «ومن أنت؟» قال: «عامر الشعبيّ» قال: «حيّاك الله». قال الشعبيّ ثمّ مضى وأجلسني على كرسيّ ثمّ خرج فقال: «ادخل رحمك الله». قال: فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسيّ وبين يديه رجل أبيض الرأس واللحية فسلمت عليه وقعدت عن يساره فردّ عليّ السلام وأومأ بقضيبه إليّ ثمّ قال للّذي كان بين يديه: «ويحك من أشعر الناس؟» قال: «أنا يا أمير المؤمنين». قال الشعبيّ: فأظلم ما كان بيني وبين عبد الملك فلم أصبر أنْ قلت: «ومن هذا الّذي يزعم أنّه أشعر الناس؟». فعجب عبد الملك من عجلتي قبل أن يسألني عن حالي فقال: «هذا الأخطل النصرانيّ». فقلت: «أشعر منك والله يا أخطل الّذي يقول: [السريع]

هَذَا غُلَامٌ حَسَنٌ وَجْهُهُ ... مُسْتَقْبَلُ الخَيْرِ سَرِيعُ التَّمَامْ

---

(١) البيت للأخطل، ديوان الحماسة للبحتري (٣٤).

(٢) البيتان لكثير عزة.

الحَارِثُ الأَكْبَرُ وَالحَارِثُ الـ ـأَصْغَرُ وَالأَعْرَجُ خَيْرُ الأَنَامْ
ثُمَّ لِهِنْدٍ وَلِهِنْدٍ وَقَدْ أَسْرَعَ فِي الخَيْرَاتِ مِنْهُ إِمَامْ
سِتَّةُ آبَاهُم مَا هُمُ مِنْ خَيْرِ مَنْ يَشْرَبُ صَوبَ الغمام»[1]

قال: فردّدتها على عبد الملك حتّى حفظها. فقال الأخطل: «من هذا يا أمير المؤمنين؟». قال: «الشعبيّ» قال: «والحلوان، ما استعذت من شرّ هذا قطّ؛ والله يا أمير المؤمنين النابغة أشعر منّي». قال عبد الملك: «وإنّما سمّي النابغة لأنّ الشعر نبغ منه» يعني خرج. قال الشعبيّ: ثمّ أقبل عليّ عبد الملك وقال لي: «كيف أنت يا شعبيّ؟». قلت: «بخير فلا زلت به يا أمير المؤمنين». ثمّ أقبل عليّ فقال: «ما تقول في النابغة؟». قلت: «يا أمير المؤمنين قد فضّله عمر بن الخطّاب في غير موضع على جميع الشعراء؛ خرج عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يوماً وببابه وفد غطفان. فقال: يا معشر غطفان، أيّ شعرائكم الّذي يقول: [الوافر]

إِلَى ابْنِ مُحَلِّقٍ أَعْمَلْتُ نَفْسِي وَرَاحِلَتِي وَقَدْ هَدَتِ العُيُونُ
أَتَيْتُكَ عَارِياً خَلَقاً ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تَظُنُّ بِي الظُّنُونُ
فَأَلْفَيْتُ الأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ»

فقال الأخطل: «وددت يا أمير المؤمنين أنّي كنت قلت أبياتاً قالها رجل منّا كان والله معرّف القناع قصير الذراع». يعني القطاميّ، عمرو بن شييم التغلبيّ: [البسيط]

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّها الطَّلَلُ وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطِّيَلُ
لَيْسَ الجَدِيدُ به تَبْقَى بَشَاشَتُهُ إِلّا قَلِيلاً وَلَا ذُو خُلَّةٍ يَصِلُ
وَالعَيْشُ لَا شَيْءَ إِلّا مَا تَلَذُّ بِهِ عَيْنٌ ولَا حَالَ إِلّا سَوْفَ تَنْتَقِلُ
إِنْ تَرْجِعي مِنْ أَبِي عُثْمَانَ مُنْجِحَةً فَقَدْ يَهُونُ عَلَى المُسْتَنْجِحِ العَمَلُ
والنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قَائِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِي ولأُمِّ المُخْطِئِ الهَبَلُ
قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

قال الشعبيّ: فكنت أوّل داخل على عبد الملك وآخر خارج، ومكثت بذلك سنتين، وألحقني في ألفين من العطاء، وعشرين رجلاً من ولدي وأهل بيتي في ألفين ألفين.

---

(١) راجع الأغاني (١١/ ١٩).

قال: وبنى عبد الملك بن مروان رحمه اللّه مسجد بيت المقدس في سبعين من التأريخ، وحوّل إلى بنيانه خراج مصر سبع سنين، وبنى القبّة الّتي على الصخرة، وجعل على الخابئة الّتي في أعلى القبّة ثمانية آلاف صفيحة من نحاس مطليّة بالذهب، في كلّ صفيحة سبعة مثاقيل ذهباً ونصف مثقال، وأفرغ على رأس الأعمدة مائة ألف مثقال ذهب وهي ثلاث قباب متجاورات؛ قبّة الصخرة وقبّة المعراج وقبّة السلسلة الّتي كانت في زمان داود عليه السلام وفيها قال بعض الشعراء: [السريع]

مَضَى مَعَ الوَحْيِ زَمَانُ العُلَا وَارْتَفَعَ الجُودُ مَعَ السِّلْسِلَةْ

ذكر هشام بن عبد الملك وبنيانه الرصافة

حدّثنا أبو القاسم عن أبي عبد الرحمٰن عن عبد اللّٰه بن عبد الوهّاب بن محمّد بن صالح قال: خرج هشام بن عبد الملك في عام قد بكّر وسميّه وأخذت الأرض زهرتها من أنواع نباتها، فنزل منزلاً من الرصافة كأنّ ترابه تراب كافور وقد ضرب له سرادق من حبرات كان قد عمله له يوسف بن عمر، وهو الّذي ينسب إليه الوشي اليوسفيّ، ولبس دراعة مثلها وقيمصاً وعمامة من جنسها، ثمّ أذن للناس فدخلوا عليه، فلمّا أخذوا مجالسهم نظر إلى خالد بن صفوان كالمستنطق له، فلمّا رآه خالد نظر إليه قال: «أتمّ اللّه عليك يا أمير المؤمنين نعمته وسوّغ لك كرامته وتباع لك المزيد من فضله وشكره؛ إنّي لا أعلم يا أمير المؤمنين شيئاً أبلغ في قضاء حقّك وتوفير مجلسك من حديث رويته عن بعض من سلف من الملوك فإنْ أذن لي أمير المؤمنين أصلحه اللّه حدّثته». قال: «قد أذنت لك فهات». قال: «بلغني يا أمير المؤمنين أنّ ملكاً فيما خلا اجتمع له جمال الوجه وحداثة السنّ وصحّة البدن وسعة الملك وكلّ هذا يدعو إلى الأشر والبطر فنزل منزلاً بناحية الخورنق في أرض الشام في عام مثل هذا العام فنظر فأبعد النظر فرجع البصر حاسراً قاصراً عن بلوغ أقصى غاية النظر من أنواع ما له من الخيل والإبل والبقر والغنم فقال لجلسائه: «لمن هذا؟» فقالوا: «لك أبيت اللعن». ثمّ نظر من ناحية الغرب إلى بياض الأنهار الجارية والأشجار العالية والأغصان الناظرة والثمار المؤنقة فقال: «لمن هذا؟». فقيل: «لك أبيت اللعن». فأعجبته نفسه وما بسط اللّه له، فقال لجلسائه: «هل أوتي أحد مثل ما أوتيت؟». فقام إليه رجل من الرافضيّة، ولم تخل الأرض من أنْ يكون فيها قائم بحجّة اللّه، وللباقين بعد الماضين، فمثل بين يديه وقال: «سألت عن أمر فائذنْ لي في الجواب». قال: «أذنت لك». قال:

«فحدّثني عمّا أعجبك من مالك» أشيء لم يزل لك ولم تزل فيه أم شيء كان لغيرك فصار إليك؟» قال: «كذلك هو» قال: «فقد علمت أنّ الّذي صار إليك ميراثاً عمّن قبلك، هو صائر إلى من بعدك كما صار إليك ممّن كان قبلك». قال: «كذلك هو» قال: «فقد صار عجبك فيما يفنى ولا يبقى، وينقطع ولا يدوم، ويزول عنك حتّى لا تراه عيناك ولا تسمعه أذناك؛ فتكون فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً فإذا الّذي أعجبك ممّا أنت فيه قد زال عنك نعيمه وبقيت عليك تبعته» قال: «فكيف المخرج وأين المذهب؟» قال: «إمّا أنْ تقيم في ملكك هذا فتعمل فيه بطاعة اللّه وإمّا أنْ تطرح عليك المسوح وتطرح ثياب الملك فتلحق بهذا الجبل فتعبد ربّك حتّى يأتيك أجلك». قال: «فأطرق الملك ملياً ثمّ رفع رأسه فقال: يا ابن الخير وطالبه فإذا أنا فعلت ذلك فما حالي عند ربّي؟» قال: «لك عنده ملك دائم وتكون فيه شاباً لا تهرم وصحيحاً لا تسقم وغنياً لا تفتقر». قال: «وأبيك لقد دعوت إلى خير ودللت عليه وأنا مختار لنفسي إحدى الخصلتين؛ فإنْ أقمت في ملكي فأنت وزيري وصاحبي ولا أعصي ولا أخالف هواك وإنْ اخترت بعض خلوات الأرض فأنت رفيقي مؤنسي فإذا كان عند السحر فاقرع عليّ باب كذا وكذا فتعرف موقع رأيي إنْ شاء اللّه». فلمّا كان عند السحر أتى الباب الواحد الّذي أمره فوجد الملك قد خلع ثيابه ثياب الملك وألقى عليه أمساحه وتهيأ للسياحة فقال: «وفقك اللّه أيّها الملك. فخرجا جميعاً فساحا ولزما عبادة ربّهما حتّى ماتا».

فأطرق هشام ملياً، ثمّ رفع رأسه إلى الحاجب فنظره، وأومأ الحاجب إلى الناس، فخرجوا فلمّا صاروا في الباب أقبلوا على خالد يعذلونه ويؤنبونه ويقولون: «ما رأينا أحداً فعل فعلك؛ خرج أمير المؤمنين إلى ألذّ معاشه وأنزه مجالسه وقد رجونا أنْ يقضي لنا حوائجنا ونصل إلى عطايا جزيلة فأفسدت على الملك مجلسه ونغّصت عليه عيشه». فندم خالد على ما كان منه، فلمّا دخل الحاجب إلى هشام كان أوّل ما لقيه به أنْ قال: «للّه درّ خالد أي رجل كان في غداتنا هذه». فاستبشر الحاجب وكان له صديقاً فأرسل إليه أي: «ابشر بما يسرّك فإنّي رحت إلى أمير المؤمنين فكان أوّل ما لقيني به أنْ قال كذا وكذا، وإنّ من قال للّه أعانه اللّه ومن تكلّم في اللّه نصره اللّه فاغد بالغداة مع من يغدو وتظفر بحاجتك إنْ شاء اللّه». فغدا خالد إلى هشام فرفّع مجلسه وأعلى درجته وقضى حاجته وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وحدّثنا أبو عمرو قال: بينما هشام يخطب على الأرض إذ قام إليه رجل فقال: «يا أمير المؤمنين أذكّرك بيوم الأذان». فقال هشام: «وما يوم الأذان لا أمّ

لك؟» قال: «قوله عزّ وجل: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. فنزل هشام إلى الأرض وألصق خدّه بها وقال: «ويحك ومن ظلمك؟». قال الرجل: «عاملك على موضع كذا وكذا؛ غلبني على أرضي وصيّرها داخل أرضك». فدعا بكاتبه والدموع تسيل من عينيه فقال له: «اكتبْ إلى عاملي أنْ ينزله في كلّ مكان لي في الأرض والدور والبساتين والخدم والغلمان والبقر لعلّ اللّه يرحمني ولا يجعلني من الظالمين».

ذكر خلافة الوليد بن عبد الملك

ثمّ خلف من بعد عبد الملك بن مروان ابنه الوليد بن عبد الملك، أبو العبّاس وأمّه أمّ الوليد بنت العبّاس بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة من عبس. فلبث في خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، ثمّ توفيّ في جمادى الآخرة سنة ستّ وتسعين من الهجرة وهو ابن ستّ وأربعين سنة.

فولّى الوليد على إفريقية وما وراءها موسى بن نصير، وكان مولد موسى بن نصير سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطّاب، فولّى موسى بن نصير طارقاً مولاه طنجة.

ثمّ تتابع ولاة المشرق، فتركنا ذكرهم من زمان الوليد ورجعنا إلى ولاة الأندلس. وأنا أذكر عددهم وكيف تتابعوا بأسمائهم وأنسابهم وأعمارهم وجميع شأنهم من أوّلهم إلى آخرهم إنْ شاء اللّه.

قال الواقديّ: وفي سنة ثمان وثمانين هدم الوليد مسجد رسول اللّه ﷺ، وزاد فيه، وبعث إلى صاحب الروم يعلمه أنّه قد أمر بهدم مسجد رسول اللّه ﷺ، وأنّه يريد تجديده والتوسعة فيه، ويسأله أن يبعث إليه بناة، فبعث إليه الطاغية بمائة ألف دينار ومائة دينار، وبعث إليه بأربعين حملاً من الفسيفساء.

تاريخ الأندلس

باب استفتاح الأندلس

قال عبد الملك بن حبيب: حدّثنا ابن وهب قال: وجّه موسى بن نصير مولاه طارقاً إلى تلسمان وأمره أن يتعاهد سواحل البحر ومراسيه، ويجعل عليها رصداً لعلّه أن يصيب من سفن الروم فيجد فيها شيخاً عنده علم ففعل، فظفر به فقال له: «هل تعرف في علمك من يفتتح الأندلس؟». قال: «يفتتحها معكم قوم يقال لهم البربر وهم على دينكم». فكتب طارق بذلك إلى موسى بن نصير، فحشد البربر ويعث إليه منهم ألف رجل، وكتب موسى إلى طارق، وكان من أعلم الناس بعلم النجوم: «إنّك ستنتهي إلى صخرة على شاطئ البحر، فاشحن سفنك عندها، واطلب فيمن عندك رجلاً يعرف أسماء الشهور بالسريانيّة، فإذا كان يوم أحد وعشرين من أيّار وهو بالحساب الأعجمي مايه فاجسر على بركة اللّه وعونه، وامضِ على تأييده ونصره، حتّى يستقبلك جبيل أحمر في أسفله عين شرقيّة، إلى جانبها تمثال صنم على صورة ثور؛ فاكسر ذلك التمثال واعمد إلى رجل طوال أشقر، بعينه قَبَل، وبيديه شلل، فاعقد له على مقدّمتك».

فلمّا انتهى الكتاب إلى طارق، كتب إلى موسى بن نصير: «إنّي سأنتهي إلى ما أمرتني به، وأمّا صفة الرجل الّذي أمرتني به فلم أجد صفته إلّا في نفسي».

ثمّ سار طارق بألف رجل وسبعمائة رجل ثمّ تحاشد البربر إليه حتّى صاروا اثني عشر ألفاً من البربر إلّا ستّة عشر رجلاً من العرب فلم تلحقه هذه العساكر إلّا بعد فتحه الأندلس فمضى طارق بالألف والسبعمائة في رجب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة.

وكان ملك الأندلس في وقت نزول طارق بها قد غزا عدوّاً له، واستخلف ملكاً من ملوكه يسمّى تدمير وكانت تدمير يومئذٍ كلّها له فلذلك سمّيت به ونسبت إليه فلمّا بلغ تدمير نزول طارق بمن معه من المسلمين كتب إلى لذريق وهو يومئذٍ ملك الأندلس: «إنّه وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الأرض خرجوا». فلمّا بلغ ذلك لذريق أقبل راجعاً إلى طارق في سبعين ألف عنان ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع وهو على سريره بين دابّتين عليه قبّة مكلّلة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومعه دوابّ تحمل الحبال لا يشكّ في أسرهم.

فلمّا بلغ طارقاً دنوه منه قام في أصحابه فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ حضّ الناس على الجهاد ورغّبهم في الشهادة ثمّ قال: «أيّها الناس: أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم فليس لكم واللّه إلّا الصدق والصبر، إلا وإنّي صادم إلى طاغيتهم بنفسي لا أقصّر حتّى أخالطه أو أقتل دونه».

وكان لذريق من أصبهان، وأصبهان تسمّى بالأندلس إشبان وهم القوطيون، ملوك عجم الأندلس. فزحف طارق إلى لذريق وزحف لذريق إلى طارق فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثمّ إنّ الطاغية لذريق انهزم جيشه كلّه فأصاب الناس من الذهب والفضّة والمتاع ما لا يحصى قدره ولا يدرى قيمته فغلّ الناس يومئذٍ ثمّ ركبوا البحر يريدون طنجة فلمّا توّسطوا البحر سمعوا منادياً ينادي: «غرّق بهم فإنّهم قد غلّوا». فوثبوا إلى المصاحف فعلّقوها من رقابهم ثمّ دعوا اللّه عزّ وجلّ ورغبوا إليه، ثمّ نادى مناد فانكفأت بهم السفينة فما سلم منهم إلّا من شاء اللّه.

ثمّ خرج موسى بن نصير يريد الأندلس إلى مولاه طارق في رجب، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، وسار نحو الأندلس في عشرة آلاف، فتلقّاه طارق وترضّاه فرضي عنه وقبل منه.

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

دخل الأندلس من التابعين، سوى من لا يعرف، نحو من عشرين رجلاً، بهؤلاء وغيرهم أقبل موسى بن نصير إلى إفريقية.

وكان مولد موسى بن نصير بن عبد الرحمٰن بن زيد سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه.

وكان معاوية بن أبي سفيان قد ولّى نصيراً والد موسى على حرسه فلم يقاتل معه، فقال له معاوية: «ما منعك من الخروج معي على عليّ ويد لي عليك لم تكافئني عليها؟». فقال له: «لم يمكنّي أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك». قال: «ومن؟». فقال: «اللّه عزّ وجلّ». قال: «وكيف لا أمّ لك؟» قال: «وكيف ما أعلمك بها فاغض وامض». فأطرق معاوية مليّاً ثمّ قال: «أستغفر اللّه». ورضي عن نصير.

وكان معاوية يقول في مثل يضربه: «الضربة بسيف في عزّ أحبّ إليّ من ضربة بسوط في ذلّ».

وهذا المثل عجب من العجب لطالب دنيا، وأمّا لطالب الآخرة فإنّ ضربة

بسيف في طاعة اللّه تعالى ألذّ وأشهى من ضربة بسوط في معصية اللّه.

وقال حكيم: [الطويل]

وَمَا الْعِزُّ إِلَّا طَاعَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ هُوَ الرُّكْنُ وَالحِصْنُ المَنِيعُ المُمَنَّعُ
وَطَاعَتُهُ عِزٌّ وَحِرْزٌ وَمَنْعَةٌ وَمَا لِلَّذِي يَعْصِيهِ فِي الْعِزِّ مَطْمَعُ

وقال الليث بن سعد: لمّا قدم موسى بن نصير إلي إفريقية قبل فتحه الأندلس ومعه جماعة من الناس أخرج ابناً له يسمّى عبد اللّه إلى بعض نواحيها فأتاه بمائة ألف رأس ثمّ وجّه بنفسه إلى ناحية أخرى فأتى بمائة ألف رأس، فبلغ الخمس يومئذٍ ستّين ألف رأس.

قال الليث: فلم يسمع بمثل سبايا موسى في الإسلام.

قال أبو شيبة الصدفيّ: قدم مروان بن موسى بن نصير من السوس[١] الأقصى، وهو يجرّ الدنيا جرّاً بالسبي، فلمّا قدم رسوله على موسى خرج معه وجوه الناس تتلقّاه، فلما التقيا قال مروان بن موسى: «مروا لكلّ من يلقاني مع أبي بوصيفة وصيفة». فلمّا أمر بذلك سمع موسى للناس ضوضاةً وصياحاً ورأى لهم حركة فقال: «ما هذا؟». قالوا: «مروان ابنك أمر للناس بوصيفة وصيفة». قال موسى: «مروا لهم من عندي بوصيف وصيف». فانصرف الناس كلّهم ومع كلّ واحد منهم وصيف ووصيفة.

ذكر ما وجد موسى بن نصير بمدينة طليطلة يوم افتتحها من الذهب والفضّة والزمرّد والياقوت والزبرجد وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلاّ اللّه

حدّثنا عبد اللّه بن وهب عن الليث بن سعد أنّ موسى بن نصير لمّا افتتح الأندلس مضى على وجهته يفتح المدائن يميناً وشمالاً، حتّى أتى طليطلة وهي مدينة الملوك، فوجد فيها بيتاً يقال له بيت الملوك، ففتحه فوجد فيه خمسة وعشرين تاجاً مكلّلةً بالدرّ والياقوت، وهي على عدد الملوك الّذين ولوا الأندلس: كلّما هلك منهم ملك جعل تاجه في ذلك البيت، وكتب على التاج اسم صاحبه وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم مات، وكم لبث في ملكه، فيقال إنّ عدّة ولاة

---

(١) السوس: كانت تسمى قمونيه، وهي بلد بالمغرب.

الأندلس من المسلمين من يوم افتتحت إلى يوم تخرب تكون على عدد ملوك العجم الّذين كانوا فيها؛ خمسة وعشرين ملكاً.

وكان إلى جانب هذا البيت الّذي وجد فيه التيجان بيت آخر عليه أربعة وعشرون قفلاً، كلّما ولي ملك ضرب عليه قفلاً، كما فعل من كان قبله، حتّى كانت ولاية لذريق الّذي افتتحت الأندلس في دولته. فقال لذريق قبل فتح الأندلس بأيّام يسيرة: «واللّه، لا أموت بغمّ هذا البيت، ولا بدّ من أن أفتحه حتّى أعرف ما داخله». فاجتمعت إليه النصرانيّة والشمامسة والأساقفة فقالوا له: «ما تريد بفتح هذا البيت؟ انظر ما ظننت أنّ فيه وخطر على قلبك فخذه منّا، ولا تحدث علينا حدثاً لم يحدثه أحد قبلك ممّن كان من الملوك، فإنهم كانوا أهل معرفة وعلم بما صنعوا». فأبى إلّا فتحه للقدر المقدّر، فوجد فيه تابوتاً من خشب، ووجد فيه تصاوير العرب وشكلهم معمّمين معهم القسي العربيّة، وقد تقلّدوا السيوف المحلاة، ووجدوا في البيت كتاباً فيه: «إذا فتح هذا البيت ودُخِلَ فيه دخل هؤلاء الّذين صفتهم ونعتهم هكذا هذه البلاد فملكوها وغلبوا عليها». فكان دخول المسلمين عليهم في عامهم ذلك.

وكان موسى قد أمر بضرب الأوتاد لخيله تحت جدار البيت فنبت الأوتاد فلم تدخل عند الضرب وإذا بصفائح الذهب والفضّة حول البيت.

قال أبو شيبة الصدفيّ: لقد نظرت إلى رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضّة واللؤلؤ والياقوت، فلمّا ثقلت عليهما أنزلاها وحملا عليها الفأس، فقطعاها بنصفين، فأخذا نصفاً وتركا نصفاً، ولقد رأيت الناس يمرّون عليها لا يلتفتون إليها اشتغالاً بما في أيديهم ممّا هو أرفع منها.

صفة مائدة سليمان
صلّى اللّه على نبيّنا وعليه وسلّم

حدّثنا عبد اللّه بن وهب عن الليث بن سعد: أنّ طارقاً مولى موسى بن نصير لمّا افتتح طليطلة أصاب بها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام مكلّلة بالجوهر منسوجة بالذهب منظومة بالدرّ والياقوت، لا يدري أحد ما ثمنها، ومائدة أخرى من جزع لا ثمن لها أيضاً.

قال عبد الحميد: فسألت أبي عن صفة المائدة وكان قد رآها ونظر إليها فقال: «كانت من ذهب وفضّة خلطين تتلون في صفرة الذهب وبياض الفضّة، وكان

عليها طوق لؤلؤ وطوق يواقيت وطوق زمرّد» قلت: «فما كان عظمها؟». قال: «لقد حملت على بغل قوي أقوى ما يكون من البغال؛ فما سار البغل بها مرحلة حتّى تفسّخت قوائمه».

قال عبد الحميد: ثمّ إنّ موسى خرج من طليطلة في الجمع غازياً يفتتح المدائن، وجاءه وجوه أهل جلّيقيّة يطلبون الصلح منه، فصالحهم وغزا البشاكسة فأوغل في بلادهم، حتّى أتى قوماً معطاً كالبهائم، ثمّ مال إلى الإفرنج، ثمّ انتهى إلى سرقسطة، فأصاب فيها ما لا يحصى عدده ولا يعرف قدره.

ثمّ مضى حتّى أتى حصناً فالتقى الناس واقتتلوا قتالاً شديداً حتّى جال الناس جولة فأمر موسى بسرادقة فكشط عن بناته ونسائه حتّى برزن وبرز موسى بين يدي الصفوف، حيث يراه الناس ثمّ رفع يديه إلى الله تبارك وتعالى وأقبل على الدعاء والرغبة إلى الله عزّ وجلّ والبكاء فأطال والناس وقوف، ولقد كسرت بين يديه أغماد السيوف ثمّ فتح الله له ونصره ولم ينهزم لموسى جيش قطّ حتّى مات رحمة الله عليه.

قال عبد الحميد: ثمّ مضى موسى بن نصير في أرض العدوّ حتّى ملّ الناس واشتدّ عليهم وقالوا: «أين تريد أن تذهب بنا؟ حسبنا ما في أيدينا؛ أين تريد أن تخرجنا من الدنيا وتلتمس أعظم ممّا فتح الله علينا؟». فضحك موسى ثمّ انصرف وقال: «والله لو أطعتموني لسرت معكم حتى أوقفكم على القسطنطينية وأفتتحها إن شاء الله».

قال ابن ربيعة: غلّ الناس كلّهم يومئذٍ إلّا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين؛ أبو عبد الرحمٰن الحبلّي وابن شماسة وحنش الصنعانيّ وعياض بن عقبة الفهريّ.

قال: وبلغني عن رجل أنّه غلّ يومئذٍ ذهباً وجوهراً، فوضعه في زفت وذوّبه، فنزل به الموت فجعل يصيح وهو في الموت: «الزفت الزفت».

وحدّثني عن عبد الحميد عن أبيه أنّه قال: قدمت الأندلس امرأة عطّارة، فخرجت بخمسمائة رأس، فأمّا ما خرجت به من الذهب والفضّة والجوهر والآنية فذلك ما لا يحصى عدده ولا يحاط علمه.

قال: وقدم علينا من المدينة شيخ جلد النحيزة واللسان فحدّثنا عن الأندلس فقلت: «كيف علمت هذا؟» قال: «لأنّي والله كنت ممّن سبي بها، فما اشتراني الّذي اشتراني إلّا بحبّات فلفل أقلّ من القبضة».

قال: وأعلمني خادم كان للوليد أمير المؤمنين قال: إنّي لقريب منه وبين يديه

طست وهو يتوضّأ، إذ أتاه رسول من عند والي خراسان بفتح مدينة من مدائنها فأعلمته فقال: «خذ الكتاب منه». فقرأه فما أتى على آخره حتّى أتى رسول من عند موسى بن نصير بفتح السوس الأقصى من قبل مروان ولده فقرأه فما أتى على آخره حتى قدم عليه رسول آخر من عند موسى بفتح الأندلس فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ التفت إليّ وقال: «امسك عليّ الباب ولا تدع أحداً يدخل». ففعلت وكان عنده ابن له صغير يحبو بين يديه. قال: فخرّ الوليد ساجداً للّه وشاكراً له. قال: وحبا الصبيّ إلى الطست فوقع فيه فاضطرب الصبيّ وصاح فيه، فما التفت إليه وبقيت لا أستطيع أن أغيثه لما أمرني به من إمساك الباب، فأطال السجود حتّى خفت موت الصبيّ، ثمّ رفع رأسه وصاح بي، فدخلت فأخذت الصبيّ وإنّه لما به.

ثمّ إنّ موسى خرج غازياً بنفسه بعد افتتاحه مدينة طنجة والخضراء وغيرها، فمضى حتّى انتهى إلى أرض تميد بأهلها، وذلك عند البحر الأصم، فساير البحر، حتّى انتهى إلى قنطرة عليها صنم من نحاس في يده قوس ونشاب، فلمّا دنا منه الناس رمى بنشابة فقتل إنساناً، ثمّ رمى أخرى فقتل إنساناً، ثمّ وقع فتقدّم الناس، فإذا هو صنم من نحاس.

ثمّ قيل لموسى: «إنّ في هذه الرمال قلعة فيها أعاجيب». فسار إليها فحاولها فلم يقدر عليها، فأمر ببنيان فبني حتّى أشرفوا عليها، فلمّا أطال الناس الذين كانوا يبنون النظر إليها وإلى ما كان فيها استضحكوا ورموا بأنفسهم، فوقعوا موتى ثمّ نادى موسى: «من صعد فله مائة دينار». فصعد رجل فلمّا أشرف عليها استضحك ثمّ رمى بنفسه فلمّا رأى ذلك موسى قال: «هذا من بعض عجائب الشياطين». فانصرف عنها.

قال جعفر بن الأشتر: سمعت أبي يقول: كنت مع موسى بن نصير فحاصرنا حصناً عظيماً نحواً من عشرين يوماً لم نقدر عليه فلمّا طال ذلك علينا نادى موسى فينا: «أصبحوا على تعبئة». فقام فينا فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: «إنّي متقدّم أمام الصفوف فإذا رأيتموني كبّرت وحملت فكّبروا واحملوا». فقال الناس: «سبحان اللّه؛ غاب عن موسى عقله يأمرنا أن نحمل على الحجارة ولا نرى أحداً إلّا الحيطان وما لا سبيل إليه». ثمّ تقدّم بين الصفوف ثمّ أقبل على الدعاء والرغبة والبكاء ونحن وقوف ننتظر تكبيره حتّى كبّر فكبّر الناس معه ثمّ حمل وحملنا فانهزمت ناحية من الحصن الّذي يلينا فدخل الناس فأخرجوا من السبي والمتاع والجوهر ما لا يحصى.

وحدّثنا أبو بكر عن عبد الوهّاب قال: ثمّ تقدّم موسى بن نصير فإذا هو

بصنم على نهر من ماء قابل بإصبعه ثمّ تقدّم إلى صنم خلف الصنم الأوّل فإذا هو قابل بإصبعه إلى السماء ثمّ تقدّم إلى صنم ثالث قد قابل بإصبعه ما تحت قدميه فلمّا انتهى إلى هذا الصنم الثالث قال: «احفروا». فحفروا فإذا بقمقم مختوم فأمر موسى بفتحه ففتح فخرجت منه ريح شديدة فقال موسى: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: «لا». قال: «هذا شيطان من الشياطين الّتي سجنها سليمان النبيّ عليه السلام». ثمّ مضى حتّى انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر فوجد فيها ستّ عشرة جرّة خضراء مختومة بخاتم سليمان عليه السلام فأمر بجرّة منها فكسرت فخرج منها شيطان وهو ينفض رأسه ويقول: «والّذي كرّمك بالحقّ يا نبيّ اللّه بالنبوّة لا أعود بعدها أفسد في الأرض ولا أوذي مخلوقاً». فأمر ببقية الجرار فردّت في مواضعها.

قال ابن حبيب: وحدّثنا بعض مشايخ أهل مصر أنّ موسى بن نصير انتهى إلى نهر في الشقّ الأوّل عليه أصنام ذكور في الجانب الأيمن منه، وفي الجانب الأيسر أصنام إناث، ثمّ مضى حتّى انتهى إلى أرض تميد بأهلها، ففزع الناس وحادوا عنه، ثمّ مضى حتّى انتهى إلى موضع، فإذا به قباب من نحاس، فأمر بقبّة منها فكسرت، فخرج منها شيطان وهو ينفض رأسه ويقول: «السلام عليك يا نبيّ اللّه لقد عذبتني في الدنيا». فلمّا علم الشيطان أنّه ليس سليمان مضى لوجهه فعرف موسى أنّها من الشياطين الّتي سجنها سليمان عليه السلام فأمر بها فتركت.

ثمّ مضى حتّى غشي الناس ظلمة شديدة فعجب الناس منها ثمّ انتهى إلى مدينة عليها حصن من نحاس، فأقام عليها وطاف بها، فلم يقدر على دخولها فنادى: «من يصعد هذا الحصن وله خمسمائة دينار؟». فصعد رجل فلمّا استوى على سورها تردّى فيها ثمّ نادى ثانية: «من يصعد وله ألف دينار؟» فصعد آخر ففعل مثل ذلك ثمّ نادى الثالثة: «من يصعد وله ألف وخمسمائة دينار؟». فصعد الثالث فأصابه مثل الّذي أصاب صاحبيه. فقال موسى: «هذا أمر عظيم». ففكّر ثمّ قال: «على رسلكم؛ سيأتيكم الخبر على ما تحبّون إن شاء اللّه». ثمّ أمر بالمجانيق فوضعت على ذلك الحصن، ثمّ قال: «ارموا». فلمّا وقعت الحجارة في الحصن صاحوا وضجّوا وقالوا: «أيّها الملك، لسنا بغيتك ولا نحن ممّن تريد، نحن قوم من الجنّ فانصرفْ عنّا». قال لهم موسى: «فما فعل أصحابي؟». قالوا: «هم عندنا على حالهم». قال لهم: «أخرجوهم إلينا». قالوا: «نعم». فأخرجوا إليهم، فسألهم موسى عن أمرهم وما صنع بهم فقالوا: «ما درينا ما كنّا فيه وما أصابتنا شوكة». فقال موسى: «الحمد للّه ربّ العالمين».

ثمّ تقدّم بالناس ففتح كلّ ما مرّ به حتّى انتهى إلى البحر المحيط الّذي لم

يركبه أحد قطّ، ولا أمعن فيه، وأمرهم أن يحملوا نسوراً ثلاثة، فإذا أمعنوا جدّاً فليرسلوا نسراً واحداً، ثمّ يمعنوا ويرسلوا نسراً ثانياً، فإذا أمعنوا فليرسلوا نسراً ثالثاً، ففعلوا ما أمرهم به. فأرسلوا النسر الأوّل فمضى ما شاء الله فلم يرجع، ثمّ أرسلوا الثاني فمضى على وجهه ولم يرجع، ثمّ أرسلوا الثالث فأمعن ثمّ رجع فوقع في السفينة فعلموا أنّه ليس وراءهم ولا أمامهم أحد.

قال عبد الملك: وكان دخول موسى بن نصير الأندلس بعد طارق بسنة، وأقام بالأندلس سنتين وشهراً، ثمّ رجع إلى إفريقية وتحته بغل يسمّى الكوكب، فلمّا انتهى إلى المائدة حوّل وجهه إلى مدينة قرطبة وقال: واهاً لك ما أطيبك وأشرفك وأعجب أمرك ولعنك الله بعد المائتين سنة». ثمّ مضى حتّى جاز إلى الخضراء، وأمر بالعجل فحملت الجوهر والذهب والفضّة وأصناف ثياب الأندلس.

وكان دخول موسى بن نصير الأندلس في جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وهو ابن ستّين سنة، وأقام بإفريقية ستّ عشرة سنة والياً، وقفل منها سنة خمس وتسعين.

ولمّا دخل موسى إفريقية وجدها قد أقحطت قحطاً شديداً، فأمر الناس بالصيام والخروج، الرجال على حدة، والنساء على حدة، والصبيان على حدة، والبقر على حدة، والعجول على حدة، والغنم على حدة، والخرفان على حدة، وأهل الذمّة على حدة، واجتمعوا في مجمع واحد. فدعا إلى الله عزّ وجلّ، ودعا الناس معه، وبكى الناس وبكى النساء والصبيان، وصاحت البقر والعجول والغنم والخرفان وأهل الذمّة، حتّى كأنّ السّماوات انطبقت على الأرض، فأقام حتّى انتصف النهار، وخطب الناس ولم يذكر أمير المؤمنين في خطبته فقيل له: «ألا تدعو لأمير المؤمنين؟» فقال: «ليس في هذا المقام يُدْعَى لأمير المؤمنين إنّما يدعى فيه إلى الله عزّ وجلّ». فسقوا سقياً راوياً.

ثمّ خرج موسى بن نصير من إفريقية، واستخلف عليه ابنه عبد الله وأخرج موسى مع نفسه من وجوه البربر مائة رجل وعشرين ملكاً من ملوك الروم ومائة من ملوك الأندلس، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كلّ بلد من طرائفها وذهبها وفضّتها وجوهرها وزبرجدها ورقيقها وما لا يحصى ولا سمع بمثله، حتّى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها شريف ولا فقيه ولا عظيم إلّا وصله، فدفع إلى ولد سليمان بن عبد الملك عشرة آلاف دينار، ثمّ خرج من مصر متوجهاً إلى فلسطين، فتلقّاه آل روح بن زنباع، فنزل بهم، فبلغني أنّهم نحروا له خمسين جملاً. ثمّ

خرج من عندهم وتخلّف بعض أصحابه وصغار ولده عندهم وأفرغ على آل روح بن زنباع الدنيا من الوصائف والوصفاء وغير ذلك.

فمرض الوليد مرضته التي مات منها، وكتب إلى موسى يأمره بشدّة السير ليدركه قبل الموت، وكتب إليه سليمان أخو الوليد أن يبطئ في سيره فإنّ الوليد في آخر نفسه. فعمل موسى بكتاب الوليد، وترك العمل بكتاب سليمان، وجدّ في سيره فآلى سليمان لئنْ ظفر بموسى ليصلبنّه، وأمر الوليد موسى بالعجلة ليحرم سليمان، فأجابه وأراد سليمان ليبطئ فيحرم ولد الوليد ما جاء به.

قال عبد الملك: فهكذا يجرّ الناس إلى أنفسهم وتجرّهم الدنيا إلى نفسها فتأخذ منهم ما أعطتهم ولا يأخذون منها ما أعطوها.

فقدم موسى قبل موت الوليد، فأتاه بالطرائف من الدرّ والياقوت والزبرجد والوصفاء والوصائف ومائدة سليمان صلّى اللّه على نبيّنا وعليه، والتيجان المكلّلة بالدرّ والياقوت فقبض الوليد ذلك كلّه وأمر بمائدة سليمان فكسرت وعمد إلى أرفع ما كان فيها من الجوهر وكلّ ما كان في التيجان من الجزع فجعله في بيت المال.

ثمّ لم يلبث الوليد أن مات وأفضت الخلافة إلى سليمان أخيه، فبعث في موسى فعنّفه بلسانه وقال: «واللّه، لأفلّنّ غربك ولأفرّقنّ جمعك ولأضعنّ من قدرك». فقال له موسى: «أمّا قولك تفلّ من غربي وتخفض من حالي، فإنّ ذلك بيد اللّه وإلى اللّه، لا إليك، وبه أستعين عليك». فأمر به سليمان، فوقّف في يوم صائف شديد الحرّ، وكان موسى رجلاً عظيماً بادناً لحيماً، فوقف حتّى سقط مغشياً عليه، وعمر بن عبد العزيز حاضر. قال عمر: فما مرّ عليّ يوم كان أغمّ عليّ منه لما كان من صلاحه وبعد أثره في سبيل اللّه، وما افتتح اللّه على يديه. فنظر سليمان إلى موسى حين سقط مغشياً عليه فقال: «يا أبا حفص ما أظنّ إلّا وقد خرجت من يميني». قال: «أجل يا أمير المؤمنين» فقال سليمان: «من يضمّه؟» فقام يزيد بن المهلّب فقال: «أنا يا أمير المؤمنين أضمّه إليّ». قال: «فضمّه إليك ولا تضيّق عليه». قال: فانصرف به يزيد وقدّم إليه دابةً فركبها، فأقام عنده أيّاماً فحسن ما بين موسى وبين سليمان، وافتدى منه بألف ألف دينار.

ثمّ إنّ يزيد سمر ليلةً عند موسى فقال له: «يا أبا عبد الرحمٰن، في كم تعتدّ في مواليك وأهل بيتك؟». فقال له موسى: «في كثير». فقال له يزيد: «يكونون ألفاً؟» قال له موسى: «وألفاً وألفاً إلى منقطع النفس». فقال له يزيد: «فأنت على ما وصفت وتلقي بيدك إلى التهلكة؟ أفلا أقمت في قرار عزّك وموضع سلطانك

وامتنعت بما قدّمت به، فإن أعطيت الرضا وإلّا كنت على عزّك وموضع سلطانك؟». قال موسى: «والله لو أردت ذلك لما نالوا من طرفي طرفاً إلى أن تقوم الساعة ولكنّي آثرت الله عزّ وجلّ ولم أر الخروج عن الطاعة والجماعة».

قال: وبلغني أنّ سليمان قال لموسى: «ما الّذي كنت تفزع إليه في خروجك ومباشرة عدوّك؟». قال: «إلى الدعاء والصبر عند اللقاء». قال: «فأيّ الخيل رأيتها في تلك البلاد أسبق؟» قال: «الشقر». قال: «فأيّ الأمم كانوا أشدّ قتالاً؟». قال: «هم أكثر من أن أصفهم». قال: «أخبرني عن الروم». قال: «أسد في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مواكبهم؛ إنْ رأوا فرصة افترصوها، وإنْ رأوا غلبة فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً». قال: «فأخبرني عن البربر». قال: «هم أشبه الأمم بالعرب لقاءً ونجدةً وصبراً وفروسيّةً وسماحةً، غير أنّهم أغدر الناس؛ لا وفاء لهم ولا عهد». قال: «فأخبرني عن أهل الأندلس». قال: «ملوك مترفون، وفرسان لا يجبنون». قال: «فأخبرني عن الإفرنج». قال: «هناك العدد والعدّة والجلد والشدّة والبأس والنجدة». قال: «فأخبرني كيف كانت الحرب بينكم وبينهم؛ أكانت لك أم عليك؟». قال: «أمّا هذا، فوالله ما هزمت لي راية قطّ، ولا بدّد جمعي، ولا نكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين، إلى أن بلغت الثمانين». قال: فضحك سليمان وعجب من قوله.

ثمّ دعا سليمان بطست عظيم فجعل يردّد بصره فيه. فقال له موسى: «إنّك لتعجب من غير عجب، والله ما أحسب أنّ فيه عشرة آلاف دينار، والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بثور من زبرجد أخضر كان يصبّ فيه اللبن فيخضرّ وترى فيه الشعرة البيضاء، ولقد قوّم بمائة ألف دينار وإنّه لمن أدنى ما بعثت به إليه، ولقد أصبت كذا وأصبت كذا». فجعل يعدّ ما أصاب من الجوهر والدرّ والياقوت والزمرّد حتّى بهت سليمان.

وحدّثنا عبد الحميد عن أبيه قال: خرج سليمان إلى بعض أمواله متنزّهاً، وخرج معه موسى بن نصير، فمرّ في منية بذود من غنم قدّروا فيها ألف شاة أو مقارباً لها، فأعجب سليمان كثرتها، فالتفت إلى موسى وقال: «هل لك مثل هذه الغنم؟». فضحك موسى وقال له: «والله، لقد رأيت لأدنى مواليّ أضعاف هذه». فقال سليمان: «لأدنى مواليك؟». قال: «نعم، والله». وردّدها مراراً. ثمّ قال «وما هذه فيما أفاء الله عليّ وعلى يديّ، لقد كانت الألف شاة تباع بعشرة دراهم، كلّ مائة بدرهم، ولقد كان الناس يمرّون بالبقر والغنم فما يلتفتون إليها، ولقد رأيت الذود من الإبل بدرهم، ولقد رأيت العلج الفاره وامرأته وأولاده بخمسين درهماً».

ثمّ حجّ سليمان وخرج موسى معه وكان موسى من أعلم الناس بعلم النجوم، فلمّا حلّ بالمدينة قال موسى لبعض من يعزّ عليه: «ليموتنّ بعد غدٍ رجل قد بلغ ذكره المشرق والمغرب». فمات موسى في اليوم الثاني، وصلّى عليه مسلمة. فرحم الله الصحابة وغفر للتابعين لهم بإحسان، ورضي عنهم وعنّا برحمته، آمين ربّ العالمين.

ذكر ولاة الأندلس من يوم افتتحت إلى سنة خمس وسبعين ومائتين مضين من الهجرة وذكر أخبار من الحدثان وما رئي في بعض البلدان ممّا جرى لها في قديم الزمان من الحدثان

حدّثنا عبد الملك عن إبراهيم بن المنذر الحزاميّ عن الواقديّ قال: أقام طارق بالأندلس من يوم افتتحها إلى أن خرج منها سنة، ثمّ بعده موسى بن نصير سنتين وأشهراً، ثمّ عبد العزيز بن موسى سنتين، ثمّ الحرّ بن عبد الرحمٰن الثقفي سنتين وثمانية أشهر، ثمّ السمح بن مالك الخولانيّ سنتين وتسعة أشهر، ثمّ عنبسة بن سحيم الكلبيّ أربع سنين وخمسة أشهر، ثمّ يحيى بن سلامة سنتين وستّة أشهر، ثمّ وليها حذيفة بن الأحوص العبسيّ سنة، ثمّ عثمان بن أبي نِسْعَة الخثعميّ خمسة أشهر، ثمّ الهيثم بن عبيد أربعة أشهر، ثمّ وليها عبد الرحمٰن بن عبيد الله سنتين وثمانية أشهر، ثمّ وليها عبد الملك بن قطن الفهريّ أربع سنين، ثمّ عقبة بن الحجّاج السلوليّ خمس سنين وشهرين، ثمّ بلج بن بشر القيسيّ أحد عشر شهراً، ثمّ ولّي بعده، وقيل معه، ثعلبة بن سلامة العامليّ تلك خمسة أشهر، ثمّ ثار عليه عبد الرحمٰن بن حبيب وأميّة وقطن ويوسف فيمن تبعهم، فقاتلوه ومات بعد المعركة بسبعة أيّام، ثمّ وليها أبو الخطّار سنتين، ثمّ وليها أبو ثوابة الجذاميّ سنة، ثمّ يوسف بن عبد الرحمٰن سبع سنين وتسعة أشهر، ثمّ وليها عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان رضي الله عنهم أجمعين. وذلك أنّه دخل الأندلس، فزحف إليه يوسف، فلقيه بالمصارة من قرطبة، فهزمه عبد الرحمٰن بن معاوية واستولى على الملك، ودخل القصر من يومه، وبويع له يوم الأضحى، وكان يوم جمعة من سنة ثمان وثلاثين ومائة. فلبث في ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر.

وأخبرني عبد الله بن الشمر أنّ والده شمراً كان يعلّم أولاد عبد الرحمٰن بن

معاوية، وأنّه كان يحضر معهم، وأنّه ختن معهم، وأعلمني أنّه كان يأتي باب السدّة فيدخل وهو صبي، حتّى ينتهي إلى عبد الرحمٰن الأمير وهو في مجلسه، لا يجد أحداً يدفعه.

ثمّ ولي ابنه هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية، فلبث في ولايته سبع سنين وعشرة أشهر، وكان محمود السيرة كثير الصدقة.

ثمّ ولي ابنه الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن سبعاً وعشرين سنة وشهراً ونصفاً، ثمّ مات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة ستّ ومائتين.

ثمّ ولي ابنه عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام ليلة الجمعة، فلبث في ولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وأربعة أيّام.

ثم مات ليلة الخميس، وكان رحمه اللّٰه أميراً كريماً شاعراً أديباً.

ثمّ ولي ابنه محمّد بن عبد الرحمٰن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث مضين من ربيع الآخر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فلبث في ولايته خمساً وثلاثين سنة إلّا شهراً وأربعة أيّام.

ثمّ مات ليلة الخميس مستهلّ ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

ثمّ ولي ابنه المنذر بن محمّد بن عبد الرحمٰن يوم الأحد بعد الظهر بعد وفاة أبيه بأربعة أيّام، وذلك أنّه كان غائباً من قرطبة في بعض مغازي أبيه، فلبث في ولايته ثلاثة وعشرين شهراً.

ثمّ ولي بعده أخوه عبد اللّٰه بن محمّد ولاية منحلّة، يحل كلّ عقدة عقدها أبوه وجدّه في الهدنة تتواتر في ولايته الأحزان ويسبى فيها العيال والأموال وتكسد فيها الأسواق وتغلو فيها الأسعار، يكون الساقط فيها عزيزاً، والأمير ذليلاً، بقرطبة اللعينة، البادنة السمينة، المقهورة الذليلة، ينتجعها في آخر الزمان قوم من البربر يفسدون الحاضرة والبادية.

ويقال: قرطبة الزانية، ويل لها من الملحمة الثانية، كثيرة الفاحشة، طالقة الأطْلاق، ذات السجون والأطْباق، ليس لها عهد ولا ميثاق، تحلّ بها البليّة إذا انتهتْ إليها الخيل المغيرة والضجّة الشديدة من المواضيع البعيدة على يدي ذي الخرطوم، فتًى من أهل الشؤم، في مقدّمته المسلمون وفي ساقته المشركون، فيلجأ الناس إلى قرمونة فيا لها من ضمّة ملعونة.

وكان يقال: إشبيلية الأشْبال، داجنة الأطفال والعيال، تجير الغريب وتلجئ

أهلها إلى السؤال، يغنمها في آخر الزمان رجال يأتون من البعد فرسان يغيرون عليها غارة العقبان.

وكان يقال: طليطلة الأطْلال، بُنِيَتْ على الهرج والقتال، إذا وادعوا أهل الشرك لم يبق لهم سوقة ولا مُلْك، على يدي أهلها يظهر الفساد ويخرج الناس من تلك البلاد.

وكان يقال: إستجة البَغْي، مذكورة باللعنة والخزي، يذهب خيارها ويبقى شرارها.

وقال كعب: بدءُ هذه الأمّة نبوّة ورحمة، ثمّ مُلْك وتجبّر وتكبّر وفساد، يتكادمون على الدنيا تكادم الحمير، يكون الناس يومئذٍ إخوان العلانية أعداء السرّ، يصوم الرجل يومئذٍ وما له من صيامه إلّا الجوع، ويصلّي وما له من صلاته إلّا السهر والعناء، ويحجّ فلا يقبل حجّه، ويتصدّق فلا تقبل صدقته، ويزكّي فلا تقبل زكاته، وذلك أنّه تكون عليه مائة دينار أو خمسون ديناراً فيتصدّق بعشرة ليرى الناس أنّه يتصدّق ويزكّي.

قال عبد الملك: وحدّثني طلق بن السمح المعافريّ عن ضمام بن إسماعيل قال: سمعت العلاء بن كثير وعبد الله بن سليمان يحدّثان أنّ رسول الله ﷺ قال: «خمس إن أدركتموهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ أو تدرككم، ما فشت الفاحشة في قوم قطّ إلّا سلّط الله عليهم الطاعون والأوجاع الّتي لم تكن في سلفهم، ولا بخسوا المكيال والميزان إلّا أخذهم الله بالسنين وشدّة الموت وجور السلطان، ولا منعوا الزكاة من أموالهم إلّا منعهم الله القطر من السماء فلولا البهائم ما سقوا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم حتّى يستولوا على بعض ما في أيديهم، ولا حكمت أئمّتهم بغير الحقّ إلّا جعل الله بأسهم بينهم»(١).

وروي أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم إذا فسق شبابكم وطغت نساؤكم وكثر جهالكم وعاث فساقكم وعطّل جهادكم». قالوا: «وإنّ ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟». قال: «نعم وأشدّ من ذلك؛ وكيف بكم إذا بقي المؤمن في الحيّ وحيداً موحّداً مسلوباً مبغضاً يُتأذّى كما يتأذّى بجيفة الحمار، وكيف بكم إذا ظهرت المعازف والخمور ولعن آخر هذه الأمّة أوّلها؟». قالوا: «يا رسول الله، وهم يصلّون؟». قال: «نعم وكم من مصلٍّ لا خلاق له، وكيف بكم إذا أضاعكم الله

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى ج (٣) ص (٣٤٧).

وسلّط عليكم من لا يرأف بكم ولا يرحمكم؟». قالوا: «وإنّ ذلك لَكائِنٌ يا رسول اللّه؟». قال: «نعم، وأشدّ من ذلك».

وكان يقال: قرطبة الزانية، يبغضها اللّه، إذا اجتمعت إليها الأمم من البلدان وكثر بها الشرار والزنا والفساد فعندها ينزل اللّه بها بأسه. فإذا رأيت الفتن قد وقعت بالأندلس فعليك من الكسب من الذهب والفضّة وفرس جواد، ثمّ يتحرّك الشرّ ما بين الجبلين: الجبل الأحمر والأسود، ويكون بدء ذلك في الشهر الجديد، وهو شهر رمضان، ثمّ الّذي يليه، ثمّ الّذي يتلوه، ثمّ تكون ملحمة كبيرة بقرطبة عند مجمع بيت الظلم. فيا أهل قرطبة، احذروا على نسائكم وأولادكم لا تسكنوهم في القرب من مجمع بيت الظلم، ولا في القرب من المسجد الجامع، فإنّها ملحمة لا يُرْحَمُ فيها صبي ولا امرأة، تكون يوم الخميس ما بين صلاة الظهر والعصر إلى غروب الشمس، وأسلم المواضع فيها الكدية الّتي يقال لها كدية أبي عبدة عند موضع الكنيسة.

قال ابن أبي الرقاع: أخبرني رجل من أهل العلم أنّ موضع الكنيسة فيما جاور دار أصبغ بن خليل.

وسمعت عبد الملك بن حبيب يقول: إذا خرجت دولة بني أميّة ووليها رجل من الموالي أو البربر تكون في دولته الضمّة، وفي دولة أخرى من بني أميّة تكون القرمونيّة، ثمّ تُخْرَبُ قرطبة حتّى لا يسكنها إلّا الغربان، وينتقل الملك إلى إشبيلية، وتخرج الخلافة من ولد العبّاس، ويصير الأمر إلى بني أبي طالب، حتّى يخرج الدَجّال، ويدخل الداخل من قريش من ولد فاطمة فيبرأ إليه أهل الأندلس بالأمر، ففي زمان هذا الفاطميّ تفتتح القسطنطينية، وعلى يدي الفاطميّ يُقْتَلُ النصارى بقرطبة وكورها، فلا يبقى نصرانيّ، ويقع السَبْي في ذراريهم، حتّى تُؤخَذَ الخادم بمهماز والأمرد بسوط.

وأخبرني ابن أبي شمر أنّه سمع حسّاناً يحدّث بهذا.

قال عبد الملك: وبلغني عن البراء بن عازب أنّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ما من شيء ركبته الأمم من المعاصي إلّا وسيركبه قوم من هذه الأمّة في آخر الزمان، وزيادة خصلتين: نبش القبور ونكاح الموتى».

وقال ﷺ: «أعوذ باللّه من زمان يسود فيه صغيرهم ويأمل فيه كبيرهم وتقترب فيه آجالهم».

وعن أنس بن مالك أنّه قال: «لا يزداد الأمر إلّا شدّةً، ولا يزداد الناس إلّا شحاً، ولا تقوم الساعة إلّا على شرار الناس».

وعن أنس بن مالك أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «لا تنقضي الدنيا حتّى يشارككم الجنّ في أولادكم». قالوا: «يا رسول اللّه، فبم نعرف أولادنا من أولادهم؟». قال: «بقلّة الحياء وقلّة الرحمة، وأقلّهم حياءً الّذي يمكّن من دبره».

وعن أنس بن مالك أيضاً أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «سيكون في أمّتي بوريّون». قالوا: «يا رسول اللّه، وما بوريّون؟». قال: «رجال فطن في دنياهم، خرق في أمر أخراهم، يموتون ولا خلاق لهم».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ لابن مسعود: «كيف بك لو قد صرت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فصاروا هكذا؟» قال: «فكيف أصنع إنْ أدركت ذلك يا رسول اللّه؟». قال: «كنْ حلساً من أحلاس بيتك حتّى يأتيك منيّة قاضية أو يد خاطئة»[١].

قال عبد الملك: وبلغني أن رسول اللّه ﷺ قال: «تعذّب أمّتي في الدنيا بسبعة ألوان من العذاب: يخسف بقوم منهم، ويرسل على قوم حجارة وترسل الريح على قوم منهم، فتلقيهم في البحر، ويغرق قوم منهم بالمطر، ويسلّط السيف على قوم منهم، يعني الفتن والملاحم، ويرسل على قوم حيّات وعقارب لها أجنحة فتأكلهم، ويبيت قوم منهم على لهو وباطل فيصبحون قد مسخوا قردة وخنازير». قيل: «ومتى ذلك يا رسول اللّه؟». قال: «إذا شربوا الخمور، ولبسوا الحرير، وغنّتهم القيان، واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وعطّلوا كتاب اللّه وحدوده».

وبلغني عن أبي هريرة أنّه قال: «سيصيب الناس جوع حتّى يأتي الرجل بعبده فيقول: أعطني بهذا الغلام جلّة من تمر فلا يعطيه».

وبلغني أنّ رسول اللّه ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تتداعى عليكم». قالوا: «ولمَ، يا رسول اللّه، من قلّتنا؟». قال: «لا واللّه، إنكم لكثير ولكنّكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب أعدائكم وتقذف في قلوبكم». قالوا: «ولمَ ذلك، يا رسول اللّه؟». قال: «بحبّ الحياة وكراهة الموت»[٢].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/٨ ٤٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٧٨).

وقال ﷺ: «يوشك أن يلجّ البلاء بأهل الإسلام خصوصاً وأهل الملل حولهم آمنون مريعون حتّى يتهوّد أقوام ويتنصّر آخرون».

بلغني عن ابن مسعود أنّه قال: «يأتي على الناس زمان يغبط الرجل فيه بقلّة ماله وولده كما يغبط الرجل بكثرة ماله وولده». قيل: «فأيّ المال يومئذٍ أفضل؟». قال: «السلاح الصالح والفرس الصالح تزول عليه حيث زال».

قال عبد الملك: وحدّثني المكفوف عن العلاء عن أنس بن مالك قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «يا أمّ المؤمنين حدّثيني عن الزلزلة». فقالت: «يا أنس بن مالك إذاً تعيش حزيناً وتموت حزيناً، وتبعث وذلك الحزن في قلبك». قلت: «حدّثيني يا أمّ المؤمنين». قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا استباحوا الزنا وأكلوا الربا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غارالله في سمائه فقال للأرض: زلزلي. فإن تابوا وإلّا دمدمها الله عليهم». قالت عائشة: «وزلزلت على عهد رسول الله ﷺ فرقي رسول الله ﷺ المنبر ثمّ قال: يا أيّها الناس إنّ الله استعتبكم فأعتبوه». قلت: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟» قال: «نعم إذا كثر الخبث». قلت: «يا رسول الله وهم يصلّون؟» قال: «قد يصلي من لا خير فيه». قلت: «يا رسول الله وهم يشهدون أنّ لا إله إلّا الله؟». فقال رسول الله ﷺ: «إنّ حقيقة لا إله إلّا الله الورع عن محارم الله». قال: «فإذا قال العبد لا إله إلّا الله وهو لا يبالي ما ينقص من دينه في صلاح دنياه قال الله له: كذبت كذبت لست من أهلها». قلت: يا رسول الله إنّ هذا لكائن؟. قال: «نعم وأشدّ من ذلك إذا لم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر هنالك يظهر قوم لا خلاق لهم، يكتفي النساء بالنساء والرجال بالرجال، ويكثر فيهم الخبث، ويخلو فيهم ذو المروءة، ويعجز فيهم المنصف، ويصدّق فيهم الكاذب، ويؤتمن الخائن، ويخون الأمين، ويضنّ بالدينار والدرهم، وتقطع الأرحام، ويكثر الزنا، وكسب الربا، وشرب الأشربة الحرام، فإذا فعلوا ذلك انتظروا العذاب صباحاً ومساءً».

قال: وحدّثني بعضهم أنّ عطاء بن يسار قال: «من اقتراب الساعة مطر ولا نبات، وانبعاث الأموات، يعني أهل الزنا يرتفعون، وأن تعلو الأصوات في المساجد وظهور أولاد الزنا وموت الفجأة».

وعن أبي هريرة قال: «لا تقوم الساعة حتّى يغيض العلم ويكثر الهَرْجُ». قالوا: «يا رسول الله وما الهرج؟». قال: «القتل».

[ذكر
خلفاء العباسيين]

[ذكر خلفاء العباسيين]

أبو العباس السفاح ٧٥٠م.
أبو جعفر المنصور ٧٥٤م.
المهدي ٧٧٥م.
الهادي ٧٨٥م.
هارون الرشيد ٧٨٦م.
الأمين ٨٠٩م.
المأمون ٨١٣م.
المعتصم ٨٣٣م.
الواثق ٨٤٢م.
المتوكّل ٨٤٧م.
المنتصر ٨٦١م.
المستعين ٨٦٢م.
المعتز ٨٦٦م.
المهتدي ٨٦٩م.
المعتمد ٨٧٠م.
المعتضد ٨٩٢م.
المكتفي ٩٠٢م.
المقتدر ٩٠٨م.
القاهر ٩٣٢م.
الراضي ٩٣٤م.
المتّقي ٩٤٠م.
المستكفي ٩٤٤م.
المطيع ٩٤٦م.
الطائع ٩٧٤م.
القادر ٩٩١م.

القائم ١٠٣١م.
المقتدي ١٠٧٥م.
المستظهر ١٠٩٤م.
المسترشد ١١١٨م.
الراشد ١١٣٥م.
المقتفي ١١٣٦م.
المستنجد ١١٦٠م.
المستطيع ١١٧٠م.
الناصر ١١٨٠م.
الظاهر ١٢٢٥م.
المستنصر ١٢٢٦م.
المستعصم ١٢٤٢ - ١٢٥٨م.

تاريخ أعلام الأمة
الصحابة - الفقهاء -

ذكر طبقات الفقهاء من لدن رسول اللّه ﷺ بمكّة والمدينة والعراق والشام ومصر إلى زماننا هذا

قال عبد الملك بن حبيب: سمعت أهل العلم والمعرفة بطبقات الفقهاء يقولون: كان الفقه في أصحاب رسول اللّه ﷺ في سبعة نفر، كانوا فقهاء أصحاب رسول اللّه ﷺ: أبو بكر وعمر وعليّ وعبد اللّه بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت رضي اللّه عنهم أجمعين.

فأمّا أبو بكر وعمر فإنّ النبيّ ﷺ قال: «اقتدوا بالّذين من بعدي، أبو بكر وعمر».

وحدّثني مطرّف عن سليمان بن بلال قال: قلت لربيعة بن أبي عبد الرحمٰن: «صفْ لي أبا بكر وعمر وأوجزْ». قال: «وما أصفهما به، سبقا واللّه من كان معهما وأتعبا كلّ من جاء بعدهما».

وقال رسول اللّه ﷺ: «أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأعدل أمّتي في أمّتي عمر، وأكثرهم حياءً عثمان بن عفّان، وأقضى أمّتي في أمّتي عليّ، وأمين أمّتي أبو عبيدة بن الجرّاح، وأقرأ أمّتي أبيّ بن كعب، وأفرض أمّتي زيد بن ثابت، وأعلم أمّتي بحلالها وحرامها معاذ بن جبل؛ إذا استبق العلماء يوم القيامة سبقهم بربوة، يعني علوة، ولقد أوتي ابن مسعود علماً، وما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذرّ»(١).

وقال رسول اللّه ﷺ: «إنّما مثل أصحابي في الناس مثل الملح في الطعام».

قال الحسن: فلمّا ذهب الملح فسد واللّه الطعام.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٨٤).

ولم يكن أصحاب رسول اللّٰه ﷺ كلّهم فقهاء ولا علماء، ولكنّهم كانوا أئمّة يُقتدى بهم في الدين.

قال عبد الملك: وكان أفقه هؤلاء السبعة عليّ بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وكان إذا نزل بأصحاب رسول اللّٰه ﷺ مسألة معضلة وعليّ رضي اللّٰه عنه غائب قالوا: «معضلة ولا أبو الحسن». وذلك أنّ عليّاً رضي اللّٰه عنه كان أوْقَع الناس على خفيّات العلوم مع دعابة كانت فيه.

لقد روى الثوريّ عن سليمان أنّ رجلاً أتى برجل إلى عليّ فقال: «إنّ هذا زعم أنّه احتلم البارحة بأمّي في نومه، فما ترى عليه؟». قال: «أرى أن يوقّف للشمس ويضرب ظلّه الحدّ». فهذا الجواب الحاضر الّذي لا يبلغه عقل ولا يقع عليه وهم.

ومثله قوله: «قيمة كلّ امرئ ما يحسن، فأوجز في القيمة واختصرها» فقيمة العالم على قدر علمه وقيمة العاقل على قدر عقله لآخرته وليس كلّ من أحسن النظر والتدبير بعقله في دنياه وأساء النظر بعقله في آخرته. وكذلك الغني: إذا كان الرجل غنيّاً فقيمته على قدر تفقّده لماله ونظره فيه لآخرته، فإنْ أحسن النظر عظمت قيمته في الدارين جميعاً، وإنْ أساء النظر في ماله فقد بخس نفسه في القيمة الدارين جميعاً، لأنّه لم يتحبّب فيه إلى الناس فأبغضوه، ولم يقدّم منه لآخرته فمقته اللّٰه.

وقد كان ذكر ابن ناجية عن محمّد بن عليّ أنّه قال: قيّد عليّ رضي اللّٰه عنه بقوله هذا جميع الأقاويل وفاقها.

قال عبد الملك: كما أنّ صلاح جميع المعايش والمعاش في المثل السائر لمعاوية: «العقل إناء، فثلثه فطنة وثلثاه تغافل». فجمع مصالح الدنيا الكثيرة في كلمته هذه القليلة، وذلك أن ثلث فطنة الرجل في كسبه، وفي بيعه وشرائه، وإقباله وإدباره، فهو يجري لفطنة هذا الثلث في كسبه، ثمّ جعل التغافل في الثلثين ليتهنّأ عيشه، ويصحّ له دينه، لأنّه إنْ رأى ولده أو امرأته أو أخاه أو صديقه قد خانه أو شتمه، أو بلغه أنّ هؤلاء شتموه أو تنقّصوه وعابوه تغافل عنهم في جميع هذا كلّه، حتّى كأنّه لم يَرَ ولم يسمع، فبهذا التغافل قويت فطنته وقوي دينه وبصيرته، وتهيّأ عيشه، وكلّ من شعر لشيء تخونه فيه زوجته أو ولده أو قرينه، فشارّه لذلك وقبله، تباغض إليهم ومقتوه مع ما ينال من الإثم في خلال ذلك. فافهم فإنّه علم حسن، وفّقنا اللّٰه وإيّاك لما يحبّه ويرضاه.

الطبقة الثانية من أصحاب رسول الله ﷺ

ثمّ كان الفقه في الطبقة الثانية من أصحاب رسول الله ﷺ في رجلين: في عبد الله بن عبّاس وعبد الله بن عمر، كانا أفقه تلك الطبقة، وكانوا يفضّلون عبد الله بن عبّاس على عبد الله بن عمر في الفقه وسعة العلم، وإنّما كانوا يسمّونه «بحر العلم».

وكان عطاء يقول: «ما رأيت مجلساً قطّ أكرم من مجلس ابن عبّاس: إنّ أهل الفقه عنده يسألونه وأصحاب الحديث عنده يسألونه وأصحاب التفسير عنده يسألونه وأصحاب النحو عنده يسألونه كلّا يجيب ويذهب في بحر واسع».

وقال محمّد بن سيرين: «ما رأيت مثل بيت ابن عبّاس، لا أكثر حديثاً ولا فقهاً ولا أكثر خبزاً ولحماً وسمناً وعسلاً».

وقال مجاهد: «كنت أجلس إلى ابن عبّاس يوماً وإلى ابن عمر يوماً فكان ما يردّ ابن عمر أكثر ممّا يجيب».

وكان ابن عبّاس لا يسأل عن شيء إلّا أجاب فيه.

وكان النبيّ ﷺ قد أخذ بأذن ابن عبّاس وهو ابن سبع سنين أو ما قاربها فقال: «اللّهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»(١).

وقال عاصم: «ما سمعت ابن عمر ذكر رسول الله ﷺ قطّ إلّا ابتدرت عيناه بالبكاء». قال: «ولقد سألته يوماً عن حديث رسول الله ﷺ وهو مضطجعاً فجلس على نفسه فقلت: «حملت على نفسك مشقّة؟» فقال: «يا ابن أخي كرهت أن أحدّثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع».

قال عبد الرحمٰن بن عوف: «ما منّا رجل إلّا وقد نيل من دينه، إلّا هذا ابن عمر».

وقال ابن مسعود: «لقد رأيتنا وإنّنا منافرون، وما فينا شابّ أملك لنفسه من ابن عمر».

وقال عاصم: دخل ابن عمر على امرأته صفيّة فقال: «أعطاني عبد الله بن جعفر بنافع ألف دينار» أو قال: «عشرة آلاف درهم» فقالت: «فما تنتظر يا أبا عبد الرحمٰن؟». قال: «خيراً من ذلك». قالت: «وما هو؟». قال: «هو لله». ثمّ قرأ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٦٦).

قال: وكان ابن عمر قد حلف في غلام له بالله لا يعتقه أبداً، فأعتقه واشترى غلاماً آخر، فأعتقه عن يمينه.

ويقال: إنّ عبد اللّه بن عمر أعتق ألف مملوك، وحجّ بضعاً وخمسين حجّة.

وكان ابن شهاب يقول: كان ابن عمر شديد الاحتياط في فتياه، فمن أخذ بفتيا ابن عمر لم يدع من الاحتياط شيئاً.

وقال أبو جعفر المنصور لمالك بن أنس حين أمره بوضع موطّئه: «يا أبا عبد اللّه، اتّق شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذّ ابن مسعود، وعليك بالأمر المجتمع عليه». قال مالك: «فأفادني بقوله علماً وعقلاً».

وحدّثنا عن الليث بن سعد: أنّ عمر بن الخطّاب رضي اللّه عنه لقي ركباً من الليل فقال لهم بعض من معه: «من أين أقبل القوم وإلى أين يريدون؟». قالوا: «أقبلنا من الفجّ العميق نؤمّ البيت العتيق». قال عمر: «قد وقعوا في هذا». يعني سجع الكلام وتحسينه. ثمّ قال عمر لبعض من معه: «اذهب إليهم فسلهم أيّ آية في القرآن أعظم، وأيّ آية في القرآن أحكم، وأيّ آية في القرآن أعدل، كالمستخفي بهم». يعني كالمستقصي لهم. فسألهم فأجاب رجل من القوم فقال: «أعظم آية في القرآن آية الكرسيّ، وأحكم آية في القرآن: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] وأعدل آية في القرآن: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]» فرجع الرسول إلى عمر فأخبره بما قال فقال: «اذهب فسلهم أفيهم عبد اللّه بن مسعود». فقالوا: «نعم، هو الّذي كلّمك». فرجع الرسول إلى عمر فأخبره، فقال عمر: «هو رجل ملئ علماً آثرنا به أهل كوفة على أنفسنا».

فقهاء الطبقة الأولى من التابعين بالمدينة

قال: ثمّ كان الفقه في المدينة في الطبقة الأولى من كبار التابعين في عشرة رهط كانوا أفقه تلك الطبقة: عليّ بن الحسين وسعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار والقاسم بن محمّد[1] وسالم بن عبد اللّه[2] وعروة بن الزبير[3] وخارجة بن زيد وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام وأبو بكر بن سليمان بن أبي

---

(١) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.
(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.
(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام.

حثمة وأبو بكر بن محمّد بن عمروبن حزم وعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود.

وكان أفقه هؤلاء الرهط العشرة سعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار.

وكان مالك يقول: كان سليمان بن يسار أفقه من سعيد بن المسيّب. وكان غير مالك من العلماء يقول: سعيد بن المسيّب كان أفقه من سليمان بن يسار.

وكان سعيد يقول: ما أعلم اليوم أحداً أعلم منّي بقضاء قضى به رسول اللّه ﷺ ولا أبو بكر وعمر.

وكان عبيد اللّه بن عبد اللّه جيّد الفقه واسع العلم. وكان عمر بن عبد العزيز قد أدرك هؤلاء الرهط العشرة بالمدينة حين وليها قبل خلافته. ثمّ توفّي أكثرهم قبل خلافته، فلمّا استخلف ذكر فضلهم وتمنّى ببقائهم ليستعين بهم على العدل والحقّ، ولم يكن لبقاء واحد منهم أشدّ تمنّياً منه لعبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود.

قال ابن الماجشون: لقد قال يوم ولِيَ: «وددت أنّ لي مجلساً من عبيد اللّه بن عبد اللّه» لِما كان يعرف من فقهه وفضله.

قال ابن الماجشون: وكان عبيد اللّه مع فقهه وفضله شاعراً، ولا يكاد يجتمع الفقه مع الشعر.

وحدّثنا المقبريّ عن عبد اللّه بن المغيرة قال: قلت لسعيد بن المسيّب: «إنّ عندنا رجلاً من العبّاد إذا سمعنا نذكر شعراً صاح علينا». فقال سعيد: «ذلك رجل نسك نُسْكَ العجم».

وقال: كانت عائشة رضي اللّه عنها تروي ألف بيت من الشعر.

قال: وكان معنى قول مالك في كتابه: «الأمر المجتمع عليه عندنا» هو ما اجتمع عليه هؤلاء الرهط العشرة.

قال: وكان مالك يقول: كان محمّد بن المنكدر رجلاً عابداً فاضلاً، وكان يجد المال. فكان يفضل على العبّاد ويوسّع عليهم، وكانوا يجتمعون إليه بالمدينة وكان إذا خرج حاجّاً خرج بهم معهم، فيتحمّل مؤونتهم وحمولتهم، فإذا كان أيّام منًى اجتمع إليه عبّاد الآفاق، فضرب لهم فسطاط، وأنزع عليهم بالطعام، فيكونون معه في الذكر والدعاء والبكاء حتّى تنقضي أيّام منًى، فكان هذا فعله في كلّ عام.

قال مطرّف: وإنّما ذكر هذا مالك عندما عاب على من ينتحل في العبادة شدّة

التناوش والتشويه بأنفسهم في تشمير أحدهم ثوبه إلى أنصاف ساقيه وحلقه رأسه وجزّ شاربه، فكان محمّد ينكر ذلك ويعيبه ويقول: «لم يكن هذا من سيماء العبّاد، ولا فعل أهل العقول والدين، وإنّما أحدث هذا الجهّال، ومن لا نيّة له ولا معرفة عنده».

قال: وأمّا القاسم بن محمّد وسالم بن عبد اللّه فإنّهما كانا يجلسان في مجلس واحد، فكان القاسم بن محمّد عليه جبّة خزّ وكساء خزّ، وعلى سالم بن عبد اللّه جبّة صوف وكساء صوف، فلا يعيب هذا على هذا؛ ولا هذا على هذا، وكان ابن عمر يأكل الدجاج والفراخ والخبيص، وكان القاسم وسالم يأكلان الفلوذج والخبيص والدجاج والفراخ ويشربان سويق اللوز، وذلك من الهدايا الّتي تهدى لهما من غير أنْ يتكلّفا ذلك في بيوتهما، وكان القاسم يؤتى بالثريد عليه اللحم السمين فيصبّ عليه السمن؛ وتصديق ذلك في كتاب اللّه عزّ وجلّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فقهاء الطبقة الثانية من التابعين بالمدينة

عبد الرحمٰن بن القاسم بن محمّد بن أبي بكر، وربيعة، وعبد اللّه بن زيد بن هرمز، وكان أفقه هؤلاء ربيعة وابن هرمز.

وكان معنى قول مالك في موطّئه «الأمر عندنا» ما اجتمع عليه رأي ابن هرمز وربيعة، وكانا جميعاً من الموالي، ولذلك كان ابن شهاب يقول: «أفسد هذان العبدان هذه البحرة بالرأي» يعني ابن هرمز وربيعة. وكان ابن هرمز عند مالك أفقه من ربيعة.

قال مالك: وكنت أسمع ربيعة يقول: «تجد الرجل صالحاً مصلّياً صوّاماً خائفاً مجتهداً، وآخر ليس بحصيف ولا قويّ على حمل العلم وضبطه فهو يخاف أنْ يحمله على غير وجهه، ويخاف في فتياه أنْ يحيل المسألة عن حالها؛ فهذا عندي خير من الّذي حمل الفقه واجترأ عليه، لأنّ هذا يتوقّف ويخاف وذلك لا يبالي أصاب أم أخطأ». قال ابن القاسم: فرأيت مالكاً أعجبه قوله.

وكان ربيعة يسمّى ربيعة الرأي لكثرة كلامه، ولقد دخل مرّةً على بعض الخلفاء، فلمّا خرج من عنده قيل له: «كيف رأيت ربيعة؟». قال: «أما إنّه لولا أنّه يأتي بكلام سنة في ساعة واحدة».

وكان مالك يقول: إنّما كثرة الكلام في النساء والخدم.

ولقد دخل أعرابيّ مسجد رسول اللّٰه ﷺ وربيعة الرأي يفتي، وحوله جماعة، فجلس الأعرابيّ إليه. فأكثر ربيعة الكلام والقياس والرأي، ثمّ التفت ربيعة إلى الأعرابيّ فقال: «يا أعرابيّ هل تعرف البلاغة؟». قال: «نعم». قال: «فما هي؟». قال: «إقلال في إيجاز». قال: «أتعرف العيّ؟». قال: «نعم». قال: «وما هو؟». قال: «ما كنت أنت فيه اليوم». ثمّ نهض وتركه.

فقهاء كبار التابعين بالبصرة

قال عبد الملك: فقهاء كبار التابعين بالبصرة عشرة رهط: مطرّف بن عبد اللّٰه بن الشخير، وعقبة، وأبو الصهباء، والفضل بن يزيد، وأبو قلابة واسمه عبد اللّٰه؛ وكان مولى بني أسد وطاوس اليمانيّ من الأبناء، وعطاء بن أبي رباح مولى بني فهر، ومجاهد بن جبر مولى بني مخزوم، وعبد الرحمٰن بن سابط، وأبو الزبير المكيّ، وعبد اللّٰه بن أبي مليكة القرشيّ.

الطبقة الثانية من فقهاء البصرة من التابعين

الحسن البصريّ مولى، ومحمّد بن سيرين مولى، وإياس بن معاوية، وثابت البنانيّ، ومورّق العجليّ، ومسلم بن يسار، وجابر بن زرارة، ومحمّد بن واسع، والمجاب الدعوة حبيب، ومالك بن دينار، وحسّان بن أبي سنان، وفرقد السبخيّ، وعامر بن عبد القيس، وبشر بن منصور، وكهماس. قال: وأفقه هؤلاء الحسن وابن سيرين.

فقهاء كبار أهل الكوفة من التابعين

قال عبد الملك: كان كبار فقهاء التابعين بالكوفة عشرة رهط: علقمة بن قيس النخعيّ، ومسروق بن الأجدع، والربيع بن خثيم، والأسود بن يزيد، وأبو عبد الرحمٰن السلميّ، وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى، وأبو حنيفة، ووهب بن عبد اللّٰه، وربعي بن حراش، وصلة بن زفر، وعمرو بن عتبة بن فرقد.

هؤلاء أفقه الطبقة الأولى من التابعين، وكلّهم من أصحاب ابن مسعود، ولهم فضل في الفقه والدين والورع.

وقال الشعبيّ: لم يكن من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ أفقه أصحاباً؛ ولا أكفّ

عن الدماء من أصحاب ابن مسعود. ثمّ كان من بعدهم أصحاب ابن عبّاس؛ وعطاء وطاوس، ووهب بن منبّه، ومجاهد وسعيد بن جبير.

الطبقة الثانية من فقهاء التابعين بالكوفة

قال عبد الملك: فقهاء الكوفة سبعة: إبراهيم النخعيّ، وعامر الشعبيّ، نسب إلى بطن من بطون همذان، وأبو شعثاء، وسليمان بن أسود، والبحتريّ، مولى لبني نبهان، وسعيد بن عبيد، ومالك بن الحارث، ونعيم بن أبي همذان.

كان أفقه هؤلاء إبراهيم النخعيّ وعامر الشعبيّ. وكان إبراهيم عند مالك أفقه من الشعبيّ، وكان يقول: حسدت عبد الملك بن مروان على دعاء كان يدعو به على المنبر: «اللّهمّ إنّ ذنوبي كثرت وجلّت عن أن تحصى، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عنّي».

وكان الشعبيّ يقول: ظنّ عمر كيقين غيره، وكانت درّة عمر أهيب من سيف الحجّاج.

قال: والّذي رأيت من هيبته أنّه أمر يوماً الحجّام أن يأخذ عن شاربه فقرضه الحجّام بالمقراض فصاح عمر: «أوّه». فضرط الحجّام من شدة فزعه، فأعطاه عمر أربعين درهماً.

وقال الشعبيّ: «ما ضربت مملوكاً لي قطّ، ولا مات أحد من ذوي قرابتي عليه دين إلّا قضيت دينه».

وكان يقول: إذا سمعتموني أقول لمملوكي: «أخزاك اللّه» فهو حرّ.

وكان ابن عمر إذا غضب على غلامه يقول له: «ما أشبهك بمولاك، أنت تعصيني وأنا أعصي اللّه» فإذا اشتدّ غضبه قال: «أنت حرّ لوجه اللّه».

فقهاء أهل الشام

سبعة: عبد الرحمٰن بن غنم، وجنادة؛ والحارث؛ وخالد بن معدان؛ وسليمان بن حبيب؛ وأبن مسلم الخولانيّ؛ وميمون بن نفير.

فقهاء أكابر التابعين بمصر

عبد اللّه بن هبيرة؛ وعبد اللّه بن حجيرة؛ وعبيد اللّه؛ وهشام بن عروة؛

ومحمّد بن المنكدر؛ وجعفر بن محمّد؛ وزيد بن أسلم؛ وأبو حازم سلمة بن دينار؛ وابن شهاب؛ ويحيى بن سعيد؛ وأبو قبيل ونافع.

ذكر فضائل الأحنف بن قيس ومطرّف بن الشخير وطاوس ومحمّد بن سيرين والحسن ومحمّد بن واسع وحسّان بن أبي سنان وغيرهم رحمهم الله أجمعين

قال عبد الملك: حدّثنا مطرّف عن مالك قال: بلغني أنّ معاوية بن أبي سفيان قال للأحنف بن قيس: «بمَ شرفت على قومك ولست بأشرفهم ولا أيسرهم؟». قال: «لأنّي لا أتناول ما كفيت، ولا أضيّع ما وليت، ولو وجدت الناس كرهوا شرب الماء ما شربته». فكان مالك يعجبه قوله ويستحسنه.

وجاء رجل إلى الأحنف بن قيس فقال له: «يا أبا بحر، إنّي غنيّ مكثر، وأنا بخيل، فدلّني على أمر يحمدني الناس عليه ولا أنفق من مالي شيئاً». فقال: «عليك بالخلق السجيح والكفّ عن القبيح، فإنّ الناس يحمدونك بذلك كحمدهم إيّاك بإعطائك مالك. وإيّاك وشرّ الأشياء، الخلق الدني واللسان البذيء».

فسألت عبد الملك عن الخلق السجيح فقال: هو الّذي لا يبذل خلقه في الخنى والباطل والأذى. وكان يقول: ما محق الإسلام محق البخل بشيء. وكان يقول: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولأهلك معروفك ومعونتك ورفدك، ولعامّة الناس تحيّتك وبشرك.

وأمّا مطرّف بن الشخير فكان يقول: ما يسرّني أنّي كذبت كذبة واحدة، ولي الدنيا وما فيها.

وكان يقول: لقد كان خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنّة. وكان يقول: ما من أحد إلّا وهو أحمق فيما بينه وبين ربّه، ولكن بعض الحمق أهون من بعض.

وكان يقول: حقوق الله أكثر من أن يقوم بها العباد، ونعم الله أكثر من أنْ تحصى، ولكن أمسوا توّابين وأصبحوا توّابين.

وحدّثني حميد بن هلال أنّ مطرّفاً نازعه رجل حتّى أخرجه، إلى أن دعا عليه فقال: «اللّهمّ عجّلْ حتفه» فما برح حتّى هلك. فقال لهم: «فما أصنع به؟ دعوة رجل صالح وافقت قدر الله تعالى».

وقال مطرّف: «ما رآني اللّه آكلاً بنهار ولا نائماً بليل». قيل له: «وهل تستطيع هذا». قال: «ما أيسره عليّ، إنّما هي منزلة حولّناها إلى أخرى: جعلنا طعام النهار بالليل ونوم الليل بالنهار».

وأمّا طاوس اليمانيّ فكان فاضلاً عابداً.

حدّثنا أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم قال: قال عمرو: بينا أنا أطوف ليلةً بالبيت إذ سمعت حسّ رجل بين أستار الكعبة وله بكاء وتضرّع. قال: فوقفت لأعرفه، فذهب ليل جاء ليل وهو كذلك حتّى كاد الصبح أن يسفر فانكشفت الستور عنه فإذا هو طاوس اليمانيّ. فقال: «من هذا؟» قلت: «عمرو». قال: «منذ كم وقفت هاهنا؟» قلت: «منذ ليل طويل». قال: «فما أوقفك؟» قلت: «سمعت بكاءك». قال: «أعجبك بكائي؟». قلت: «نعم» قال: «واطّلع القمر من جبل أبي قبيس». فقال: «وربّ هذه البنيّة إنّ القمر ليبكي من خشية اللّه ولا ذنب له ولا يسأل عن عمل».

وكان يقول: من أراد أنْ يرضي ربّه أسخط نفسه، ومن لا يسخط نفسه لا يرضي ربّه، ولو كان الإنسان كلّما كره شيئاً من دينه تركه أوشك أن لا يبقى معه شيء.

وكان يقول: الدنيا كلّها قليل، وقد ذهب أكثر القليل فبقي قليل من قليل.

قال: وكان طاوس قد لزم بيته فيما يخرج إلّا في الغبّ، فقيل له: «ما يمنعك من الخروج؟». فقال: «حيف الأئمّة وفساد الناس».

قال: وبعث معاوية إلى ابن عمر بمائة ألف درهم، وأقام وهب بن منبّه أربعين سنة يصلّي الصبح بوضوء العشاء.

ورع محمّد بن سيرين وزهده

حدّثنا عون بن يوسف أنّه قال: أقام محمّد بن سيرين عن العشاء حتّى فرّط، فقام فصلّاها وأحيا باقي ليلته، وكان إذا صلّى بالنهار ودعا، سمعت قراءته ولم يسمع دعاؤه.

قال: وإذا دخل في المسجد لم أسمع من قراءته شيئاً؛ ولا من دعائه.

وقال: ما رأيت على مائدة محمّد لحماً يشتريه، إلّا أنْ يُهدى إليه، وإنّما كان يأكل الكامخ والشيراز وشبهه.

وكان يقول: نصبر على هذا حتّى يأتي اللّه بالفرج.

وكان يقول: ما كلّ ما أشتهيه من البرّ أقدر عليه. وكان يقول: ما من شيء أقرّ عيناً في الدنيا من عابد يجد لذّة عبادته.

وكان إذا ذكر عنده رجل بسيّئة ويقال فيه مكروه ذكره بأحسن ما يعلم منه.

قال ابن هشام: كان ابن سيرين إذا فرغ من صلاته لم يقم من مجلسه حتّى يفرغ من ذكر أو دعاء إنْ كان له ولو اضطرب الناس عليه بالسيوف.

وكان ابن سيرين ورعاً ضاحكاً يداعب جلساءه؛ لقد قال بعضهم: كنّا إذا أتينا محمّداً ضحكنا ما شئنا، وإذا أتينا الحسن بكينا ما شئنا.

فضل الحسن وورعه وما كان فيه

كان الحسن بن أبي الحسن البصريّ مولده بالمدينة وبها نشأ وتعلّم العلم، ثمّ انتقل إلى البصرة، وكان الحسن مولى لامرأته، وأبوه يسار وأخوه جعفر وسعيد. وكان يسار والد الحسن يجلس في صدر المجلس؛ وأمّه في مؤخّر المجلس من النساء يعلّمهنّ.

وكان الحسن يصلّي على كلّ جنازة شهدها، وكان الوالي إذا علم به في جنازة تجافى عنها ولم يصلّ عليها إذا كان الحسن حاضراً، وكان إذا صلّى على جنازة عزّى أهلها.

قال: وأتاه الفرزدق الشاعر فقال «يا أبا سعيد، إنّ امرأتي ماتت وأوصت أنْ تصلّي عليها». فأبى واعتلّ عليه فقال الفرزدق: «إذاً تجلّلني بها عاراً إلى يوم القيامة» فلم يزل به حتّى أجابه، فأقبل معه فلمّا اطّلع الناس عليهم التفت إليه الفرزدق فقال: «يا أبا سعيد، أتدري ما يقول الناس الآن» قال: «وما عسى أنْ يقولوا؟». قال: «يقولون: هذا خير الناس يمشي مع شرّ الناس». فقال: «سبحان الله، ما أنا بخيرهم ولا أنت بشرّهم».

قال: وكان الحسن عظيم الشأن؛ لقد حكى رجال من أهل البصرة أنّهم لم يصلّوا يوم مات الحسن في المسجد الجامع العصر لمكان جنازته والاشتغال بها، وما تركت فيه صلاة منذ بني غيرها.

وكان يبتاع له في كلّ يوم بنصف درهم لحم، فإذا غلا فبدرهم، وكان له لون من الطعام يقال له زيرباجة بالفارسيّة وكان يعرف بطيب رائحتها. كان الحسن يقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [الليل: ٨] قال: بخل والله بما لا يبقى، واستغنى والله بما ليس فيه غنى. ثمّ قال: يا ابن آدم، والله لو أنّ الناس

أطاعوا اللّه كلّهم وعصيته أنت ما انتفعت بطاعتهم. كما أنه لو عصوه كلّهم وأطعته أنت ما ضرّتك معصيتهم؛ فلا تغترّ بكثرة ما ترى من رداهم وغفلتهم، فإنّك إنّما تموت وحدك؛ وتقيم وحدك؛ وتحاسب وحدك.

قال: وتمنّى رجل فقال: «يا ليتني في زهد الحسن وورع ابن سيرين وفقه سعيد بن المسيّب». فنظروا في هذه الخصال فوجدوها كاملة في الحسن.

وقال رجل: قلت للحسن: «صف لي التواضع». فقال: «التواضع أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً من المسلمين إلّا قلت في نفسك؛ هذا خير منّي».

وكان الحسن يقول: الأمر كلّ في حالتين؛ الأخذ بما أمرك والترك لما نهاك.

وقال أبو سعيد: إذا رأيت الحسن مقبلاً فكأنّما رجع من دفن أمّه، وإذا رأيته جالساً فكأنّه أسير يراد أن تضرب عنقه، وإذا تكلّم فكأنّما النار أسعرت بين يديه في الدار.

وقال: أحزم الناس رجلان؛ رجل أعطاه اللّه في الدنيا مالاً وشرفاً وسعة وذكراً فهو يسعى ويطلب شرف الآخرة وخيرها ونعيمها ليخرج من خير إلى خير ومن غنًى إلى غنًى دائم فربح الدارين جميعاً، ورجل قتّر اللّه عليه رزقه في الدنيا وضيّقه عليه فعلم أنّ هذا الفقر لا يدوم به فصبر وشكر ليخرج من هذا الضيق إلى سعة.

فضل محمّد بن واسع رضي اللّه عنه

قال مجاهد: إذا أقبل العبد إلى اللّه عزّ وجلّ أقبل اللّه إليه محبّته ومحبّة عباده.

وكان إذا ذكر له ورع العبّاد وفضلهم قال: العجب أهلكهم.

وكان إذا صلّى المغرب يلصق بالقبلة فيصلّي ما شاء اللّه، ثمّ يقول في دعائه: «اللّهمّ إنّي أستغفرك يا ربّ لكلّ مقام سوء قمته، وكلّ مقعد سوء قعدته، ومخرج سوء، وقول سوء، وعمل سوء، أستغفرك من هذا وأتوب إليك فاغفر لي».

قال عبد الملك: ما أحسن هذا لمن أخذ به.

قال عبد العزيز بن أبي روّاد: رأيت في يده قرحة سوداء قد اسودّت يده منها، فلمّا رآني قد اغتممت لذلك قال: «يا ابن أخي، ماذا للّه عليّ في هذه القرحة من نعمة» قلت: «وكيف ذلك؟» قال: «حين لم يجعلها على حدقة عيني أو على طرف لساني أو على إحليلي» قال: فهوّنها واللّه عليّ.

وكان الحسن يقول: من أراد أن ينسأ له في أجله فليصلْ رحمه، فإنّ القوم قد يكونون فجّاراً يتواصلون؛ فتنمو أموالهم ويكثر عددهم.

فضل حسّان

كان حسّان بن أبي سنان يقول: ذاكر اللّه في الغافلين كالضارب بسيفه عن المدبرين.

قال: وكان حسّان ربّما اشترى أهل البيت، الرجل وعياله وولده، ثمّ يعتقهم جميعاً ويذهب ولا يعلمهم من هو.

قال: ودخلت على حسان في مرضه فقلت له: «كيف تجدك؟». فقال: «بخير إنْ نجوت من النار». قلت: «فما تشتهي؟» قال: «ليلة بعيدة ما بين الطرفين أحيي طرفيها».

فضل عطاء المدني وغيره

قال: سمعت عطاء يتمنّى الموت فقلت له: «لا تتمنّ الموت فإنّ النبيّ ﷺ قال: «لا يتمنّ أحدكم الموت»» قال عطاء: «صدق اللّه ورسوله، إنّما يريد الحياة من يزداد خيراً، فأمّا من يزداد شرّاً مثلي فما يرجو في الحياة».

قال بشر: ما جلست إلى أحد ولا جلس إليّ أحد فقمت من عنده أو قام من عندي إلّا علمت لو لم أقعد إليه ولم يقعد إليّ إلّا كان خيراً لي.

قال مالك: قلت لحكيم: «أوصني وأوجزْ». قال: «إن استطعت أن تجعل بينك وبين الناس حائطاً من حديد فافعل، وإيّاك وكلّ جليس لا تستفيد منه خيراً لا تجالسه، قريباً كان أو بعيداً».

ومن أراد أن يقرع باب الجنّة فليصلّ بالليل وليتصدّق بالسرّ. وكان يقول: ما يرجو من كان قوله قول خائف وفعله آمن. قال: ومن كان عمله قليلاً وطعمه قليلاً تهنّأ عمله، ومن كثر طعمه أفسد عمله.

وكان يقول: السحر الّذي تفتح فيه أبواب الجنّة ويستجاب فيه الدعاء قبل الفجر بسويعة.

قال: وكان أهل البصرة لا يشكّون في حبيب بن محمّد أنّه من الأبدال، وأنّه مجاب الدعوة، وعنده استخفى الحسن من الحجّاج فقال حبيب: «اللّهمّ أسبل دونه سترك السابغ الكثيف». فدخلوا البيت الّذي فيه الحسن فلم يروه.

قال سفيان: خرجت في طلب أبي حبيب العابد وما كنت رأيته قطّ. فلقيته فقال لي: «سفيان؟» قلت: «سفيان» قال: «أنت سفيان الّذي يقال؟» قلت: «أسأل اللّه خير ما يقال» ثمّ قال لي: «يا سفيان، ما رأينا خيراً قطّ إلّا من اللّه» قلت: «أجل» قال: «فما بالنا نكره لقاء من لا يرى الخير إلّا منه». ثمّ قال: «يا سفيان، منع اللّه إيّاك إذا سألته عطاء لأنّه لم يمنعك من بخل ولا عدم ولكن نظراً منه واختباراً لك». ثمّ قال: «يا سفيان، إنّ فيك لأنساً وانّ معك لشغلاً». ثمّ مضى وتركني.

قال حذيفة: وددت أنّ لي إنساناً يصلح لي مالي، ثمّ أغلق عليّ بابي فلا يدخل عليّ أحد حتّى ألحق باللّه.

ودخل رجل على مالك بن دينار وهو يبكي فمسح مالك عينيه وقال: «ما أشدّ الزكام» وكره مالك أن يريه أنّه يبكي من خشية اللّه.

وجاء رجل إلى الأعمش فقال: «السلام عليك» قال: «وعليك السلام» قال: «كيف أصبحت؟» قال: «بخير بحمد للّه إليك» قال: «كيف بتّ البارحة؟» فامتدّ الأعمش بطول وقال له: «هكذا».

وقال: لتمتلئنّ القلوب شرّاً حتّى يمسي الشرّ فلا يجد قلباً يدخل فيه.

قال: وسألت مالكاً عن الحدّ الّذي يجوز للمريض الإفطار فيه في رمضان ما هو؟. قال مالك: «دخلت على ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن وهو مريض فوجدته يأكل في رمضان فلولا أنه كان ربيعة لقلت». يعني أنّ لونه كان ظاهراً وكأنه ليس بمريض.

وكان عون يقول: كيف يخاف البريء أم كيف يأمن المسيء؟. ثمّ يقول: بل، يخاف البريء بفضل علمه ويأمن المسيء لنقص عقله.

وأنشدنا مضر لبعض الخلفاء: [المتقارب]

أَخَافُ عَلَى المُحْسِنِ المُتَّقِي ... وَأَرْجُو لِذِي الهَفَواتِ المُسِي
فَهذَا رَجَائِي لِهَذَا المُرِيبِ ... فَكَيْفَ مَخَافِي لِهذا البَرِي
وَهَذا أَخَافُ عَلى مُحْسِنٍ ... فَكَيْفَ عَلَى الظَّالِمِ المُعْتَدِي
عَلَى أَنَّ الزَّيْغِ قَدْ يَسْتَفِيقُ ... وَيَسْتَأْنِفُ الزَّيْغَ قَلْبُ التَّقِي

فضل الموالي

قال عبد الملك بن حبيب: حدّثنا أسد عن صالح عن الحسن قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنّ بدلاء أمّتي لا يدخلون الجنّة بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة

ولا جهاد، ولكن يدخلونها برحمة الله عزّ وجلّ وسلامة صدورهم وسخاء أنفسهم ورحمتهم لجميع المسلمين». قال: وأكثر الأبدال من الموالي.

قال عبد الملك: وقد روينا عن أبي ليلى أنّه قال لبعض الأمراء، وهو عيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ وكان جبّاراً، إذ وعظه من كان فقيه البصرة؛ قلت: «الحسن» قال: «ثم من؟» قلت: «محمّد بن سيرين» قال: «فمن هذان؟» قلت: «موليان أصلحك الله»، وكان يسار مولى ميمونة وولده عطاء وسليمان ومسلم وعبد الملك بن يسار كلّهم فقهاء. قال: «فمن فقهاء المدينة؟» قلت: «زيد بن أسلم ومحمّد بن المنكدر ونافع وابن أبي نجيح»، قال: «فمن هؤلاء؟» قلت: «موالٍ» فتغيّر لونه واربدّ وجهه. قال: «فمن أفقه أهل قباء؟». قلت: «ربيعة الرأي وابن أبي الزناد». قال: «فمن كان هؤلاء؟» قلت: «من الموالي» فتغيّظ واغتمّ. قال: «فمن فقيه اليمن؟» قلت: «طاوس وابنه» قال: «ثمّ من؟» قلت: «وهب بن منبّه». قال: «فممّن كان هؤلاء؟» قلت: «من الموالي» فازداد وجهه تربّداً واسوداداً وتغيّر حتّى خفته، قال: «فمن فقيه الشام؟» قلت: «مكحول»، قال: «فما كان مكحول؟» قلت: «مولى». فازداد غيظاً وحنقاً. قال: «فمن فقيه الجزيرة؟». قلت: «ميمون بن مهران»، قال: «فمن كان ميمون هذا؟». قلت: «مولى». فتنفّس الصعداء وظهر فيه البلاء. قال: «فمن كان فقيه الكوفة؟» قال: فوالله، لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وحمّاد بن أبي سليمان، ولكنّي رأيت فيه الشرّ فقلت: «إبراهيم النخعيّ وعامر الشعبيّ»، قال: «فما كانا؟». قلت: «عربيّين» قال: «الله أكبر». ثمّ سكن غضبه.

فقهاء الشام من الطبقة الثالثة ثمانية

أبو الزاهريّة والأوزاعيّ ومكحول وعبد الرحمٰن بن عمرو ويزيد بن سنان وسعيد بن عبد العزيز وعديّ الكنديّ ويزيد الأصمّ.

وكان أفقه هؤلاء الأوزاعيّ ومكحول.

حدّثنا عبد الله قال: دخل فقيه الشام وإمام الأمّة مكحول الدمشقيّ على عبد الملك بن مروان رحمه الله، فقال له عبد الملك: «عجباً لكم معشر الفقهاء والقرّاء وأصحاب العلوم، تكثرون الطعن علينا والذمّ لنا مع خلال فيكم مذمومة غير محمودة» قال: «وما هي يا أمير المؤمنين؟» قال: «النهامة في أطعمة الملوك، وتشهيكم لها، وقربكم إليها، ثمّ الحبّ للنساء، والتملّق لهنّ، وشدّة الإعجاب بهنّ، على أنهنّ الآمرات بالشهوات، والمقرّبات من البليّات، وحبّكم لعتيق الكسى

وجيّد الوطء، مع ما تظهرونه من الديانة وتراؤون به من الزهادة، فهلا إذا عبتمونا عبتم أنفسكم، وإذا ذممتونا في بعض زلّاتنا ذممتم أنفسكم في بعض زلّاتكم؛ فليس برشيد من يبصر عيب غيره ولا يبصر عيب نفسه». فقال مكحول: «يا أمير المؤمنين، قد قلت فأبلغت؛ واحتججت فأسمعت، فأنصت لجوابي واسمع معاني كلامي؛ نحن أصلحك الله، قوم أهل ديانة وأصحاب علم وبلاغة؛ أدّبنا أنفسنا بالقرآن وبحديث الرسول عليه السلام. فتطلّعت أنفسنا إلى ما وصفه الله في الجنّة ووعد به أولياءه من الحور الحسان؛ وطيب الطعام؛ والفرش المرفوعة؛ والزرابي المبثوثة؛ والسندس الأخضر؛ والرفرف؛ والاستبرق؛ فلمّا نلتم معاشر الملوك نظير هذا في الدنيا وحرمناه في دنيانا اشتهينا دركه؛ وامتددنا نحوه تشوّقاً إلى ما في الجنّة؛ وإلى ما أباحه لعباده في الدنيا؛ وإلى ما ندبهم إليه وحضّهم من أكل طيّباته كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثمّ أحببنا الجواري الآدميّات تشوّقاً منّا إلى الحوريّات، لعلّنا نمتّع بهنّ قليلاً وبالحور كثيراً، وقد قال ﷺ: «ما أحببت من دنياكم هذه إلّا النساء والطيب» فتزوّج سبع عشرة امرأة، أحصن منهنّ ثلاث عشرة، ولبس الوشي وثياب القطن والكتّان وركب البغال والجمال والخيل وأكل أطايب الطعام. ثمّ أباح الله عزّ وجلّ لنا الأكل عند جماعة المسلمين فقال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١] فأباح الله تعالى لنا الأكل عند جميع هذه الطبقات، ورخّص لنا في الأكل عندهم والأئمّة منهم لأنّا قد اختلطنا بكم وصدّقناكم، وقد فخر شاعر قريش بسيّدهم في إطعامه الطعام فقال: [الكامل]

كَانَتْ قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَلَّقَتْ ... فَالْمُحُّ خَالِصُهُ لِعَبْدِ مَنَافِ
عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

قال غيره فأجاد في المعنى: [الطويل]

إِذَا كَانَ لِي ثَوْبَانِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... فَإِنَّ لِجَارِي مِنْهُمَا مَا تَخَيَّرَا
أَجُودُ بِمَا تَحْوِي يَدَايَ وَلَوْ أَجِد ... سَبِيلاً طَلَيْتُ النَّاسَ مِسْكاً وَعَنْبَرَا

فأطرق عبد الملك بن مروان مليّاً ثمّ قال: «لقد قلت فأجدت، واحتججت فأبلغت». ثمّ أمر له بجائزة شريفة وخلعة عجيبة.

فقهاء مصر بعد التابعين وهم سبعة

أبو شريح المعافري والعلاء بن كثير والليث بن سعد، وهو مولى،

وعبد اللّٰه بن لهيعة، وحيوة بن شريح، وسعيد بن أبي أيّوب، وعمرو بن الحارث.

فقهاء المدينة بعد الطبقة الثانية

المغيرة المخزوميّ؛ ومحمّد بن إبراهيم بن دينار؛ وعبد العزيز بن أبي حازم؛ والدراورديّ؛ وسليمان بن بلال؛ وعثمان وعبد اللّٰه بن نافع؛ ومعن بن عيسى؛ ومطرّف بن عبد اللّٰه؛ وابن الماجشون.

وكان نظراء هؤلاء من فقهاء الكوفة بعد التابعين

سفيان الثوريّ؛ ووبرة بن عبد الرحمٰن؛ والقاسم بن محمّد بن السائب؛ وليث؛ وشريك؛ ويونس؛ وأبو يوسف القاضي، قاضي القضاة واسمه يعقوب بن إبراهيم.

وكان أفقه هذه الطبقة وقد اجتمع مع مالك عند هارون الرشيد فسألهما عن مسألة فتكلّم فيها مالك فقال أبو يوسف: «إنّ مالكاً يخطئ مرّة ولا يصيب أخرى».

فقال مالك: «كذلك العالم، يخطئ مرّة ويصيب أخرى». فقال له هارون: «يا أبا عبد اللّٰه إنّما أراد بأنّك تخطئ مرّة ولا تصيب أخرى». فقال مالك: «أبو يوسف شيخ بطّال».

وفقهاء البصرة

داود بن أبي هند؛ ويونس بن عبيد؛ وهشيم؛ وحمّاد؛ والمبارك بن فضالة.

الطبقة الثالثة في مصر

عبد اللّٰه بن وهب، مولى بني فهر، وعبد الرحمٰن بن القاسم، مولى، وأشهب بن عبد العزيز القرشيّ، وعبد الرحمٰن بن خالد، وسعد، وعبد اللّٰه بن عبد الحكم، من موالي عثمان بن عفّان رضي اللّٰه عنه، وأصبغ بن الفرج، من موالي عبد العزيز بن مروان، وسليمان بن يزيد، والحارث بن مسكين.

وكان أفقه هؤلاء ابن وهب؛ وسعد؛ وابن القاسم؛ وأشهب؛ وابن عبد الحكم؛ وأصبغ بن الفرج.

الطبقة الثالثة بعد التابعين من أهل الأندلس

قال عبد الملك بن حبيب: كان لأهل الأندلس بعد التابعين رجال أهل فقه

وعلم وحلم ومروءة صالحة، وفضل بيّن ظاهر، لم يكونوا بدون غيرهم من أهل طبقة زمانهم.

منهم زياد بن عبد الرحمٰن اللخميّ، ويحيى بن مضر القيسيّ، ومحمّد بن سعيد السبائيّ، وقرعوس بن عبّاس الثقفيّ، ويحيى بن يحيى الليثيّ، وحسين بن عاصم الثقفيّ، وعيسى بن دينار الغافقيّ، وإسماعيل بن البشر التجيبيّ، وحارث بن أبي سعد الأمويّ، ومحمّد بن عيسى المعروف بالأعشى.

ومن أهل الحديث: غازي بن قيس، وصعصعة بن سلّام، وعامر بن أبي جعفر، وعبد الرحمٰن بن موسى رحم اللّه جميعهم.

قال عبد الملك: ثمّ انقطعت الطبقات؛ وقلّ الفقهاء؛ ورقّ العلم؛ والفقه والحلم والمروءة بكلّ بلد، إلّا بقيّة بقيت في أوعية سوء. فعظمت المصيبة وجلّت الرزيئة، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

تفسير موطّإ مالك بن أنس بالاستقصاء والإيعاب والمبالغة

روى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنّ رسول اللّه ﷺ كان يصلّي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر[١]، قال: الحجرة: الدار الضيّقة. قلت: «ولم سميّت حجرة؟». قال: «من التحجير وهو التضييق، ألا تسمع إلى قول النبيّ ﷺ للأعرابيّ الّذي بال في المسجد فصاح الناس عليه وسكت النبيّ ﷺ، فلم يصح عليه. فسرّ ذلك الأعرابيّ، وشقّ عليه صياح الناس، فقال: «اللّهمّ ارحمني ومحمّداً ولا ترحم معنا أحداً». فتبسّم رسول اللّه ﷺ وقال: «يا أعرابيّ، لقد حجرت رحمة اللّه»[٢]. يعني لقد ضيّقتها.

قلت: فأخبرني عن قولها: «والشمس في حجرتها قبل أن تظهر» قال: يعني أن تعلو الجدار ويرتفع ظلّها عن قاعة الدار وهي الحجرة وكلّ شيء علا فقد ظهر.

وسألته عن حديث مالك: «من توضّأ فليستنثر» ما الاستنثار؟ قال: أن يستنشق الماء ثمّ ينثره والاستنشاق جبذك الماء إلى خيشومك والاستنثار نثرك إيّاه من خيشومك بدفع نفس منخرك إلى خارج[٣].

(١) رواه مالك في الموطأ (١/ ٤).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٠٣).
(٣) راجع موطأ مالك (١/ ١٩).

قال المغاميّ: وهكذا رأيت ابن حبيب يتوضأ غير مرّة.

وسألته عن قول رسول الله ﷺ: «إنّما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقّلة؛ إنْ عاهد عليها صاحبها أمسكها وإنْ أطلقها ذهبت». الإبل المعقّلة هي المعقولة بعقلها كالدوابّ المقيّدة بقيودها. فقوله: «إن عاهد عليها» أبداً لم تضع، فكذلك من تعاهد قراءة القرآن وتردّد فيه ولم يغفل عنه حفظه، كما أنّ من تعاهد حفظ إبله المعقّلة أمسكها على نفسه، ومن أغفل قراءة القرآن وأعرض عنه نسيه، وثقلت منه حفظه وثوابه، كما أنّ صاحب هذه الإبل المعقّلة إنْ لم يتعاهدها قطعت عقلها، فذهبت عنه، وإنّما هذا مثل ضربه رسول الله ﷺ في تعاهد القرآن.

وسألته عن قول رسول الله ﷺ: «المتشبّع بما لا يملك كلابس ثوبي زور». قال: معناه أنّ المتزيّن بأكثر ممّا عنده ليتكثّر به ويتزيّن به عند الناس كالمرأة تكون لها ضرّة فتتّسع بما تدّعي من الحظوة عند زوجها بأكثر ممّا لها عنده، تريد بذلك غيظ صاحبتها والّذي يلبس ثوب الزور هو الّذي يلبس ثياب أهل الزهد ويظهر التخشّع والتقشف أكثر ممّا في قلبه، فهذه من لباس أهل الزور. ومن هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجعل لباس التقوى خيراً من لباس الثياب العتاق فقد يكون الرجل كاسياً وهو كالعاري إذ كانت ثيابه ثياب دنيا لا ثياب آخرة، وصاحب التقوى ككاسٍ وإنْ كان عارياً من جيّد الثياب، وصاحب الثياب الشريفة عريان إذا كان عاصياً[١].

ومثله قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ [البقرة: ١٩٧] فأمرهم عزّ وجلّ أن يتزوّدوا في أسفارهم ثمّ قال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فقليل الزاد مع التقوى خير من كثيره مع الفجور.

وأنشد في ذلك لمن لبس ثياب الزهد وقلبه كقلوب الفجّار: [الخفيف]

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ ... فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ

وأنشدني في هذا المعنى: [الكامل]

لا يُعْجِبَنَّكَ مَنْ يَصُونُ ثِيَابَهُ ... حَذَرَ الغُبَارِ وَعِرْضُهُ مَبْذُولُ

فَلَرُبَّمَا افْتَقَرَ الفَتَى فَرَأَيْتَهُ ... دَنِسَ الثِّيَابِ وَعِرْضُهُ مَغْسُولُ

وسألته عن الساعتين اللّتين نهى رسول الله ﷺ أن يصلّي فيهما إذا طلعت الشمس وإذا تضيّفت للغروب، هل لهذين الوقتين حدّ يعرفان به وينتهى إليه؟.

(١) راجع موطأ مالك (١/ ٢٠٢).

قال: «نعم، أمّا وقت طلوع الشمس المنهي عنه فهو إلى أن تصيب الشمس رؤوس الجبال وأطراف الشجر وما على الأرض فإذا ارتفعت وأشرقت وأضاءت وأصابت بطون الأودية وما سهل من الأرض فقد خرجت إلى الوقت الّذي تجوز فيه الصلاة وكذلك إذا تضيّفت للمغيب معناه مالت للغروب وجنحت إليه واصفرّت ثمّ تكون متفيّئة إذا وقع بعضها وغرقت الشمس غرقاً وفيّئت الشمس فيّأت؛ كلّ هذا عند سقوطها وإنّما سمّي الضيف ضيفاً لأنّه مال إلى من أضافه كما مالت الشمس للغروب، وضاف السهم إذا مال عن الهدف وأخطأه، وأضفت أنت الضيف، إذا أملته إلى نفسك وأنزلته عندك. وكذلك قيل في النحو: هذا حرف مضاف إلى كذا وكذا. أي: ممال إليه.

وسألته عن حديث عائشة رضي اللّه عنها، أنّه كان إذا هلك هالك من أهلها فاشتغلت عن الأكل وتفرّق النساء عنها أمرت بتلبينة فصنعت لها، ثمّ كسرت خبزاً فصبّت عليه التلبينة، ثمّ أكلت وحست وقالت: «سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في هذه البغيضة أنّها ترتو فؤاد الحزين وتسرو عن فؤاد السقيم»[١]، ما معنى قولها: «تَرْتو فؤاد الحزين؟». قال: تشدّه وتقويه «وتَسْرو عن فؤاد السقيم» أي: تكشف الغمّة عن فؤاده. قلت: «فسّرْ لي عن التلبينة». قال: «التلبينة أرقّ من الحريرة، ووصف عملها أن يعجن العجين ثمّ يحلّ بالماء ويعرك، ثمّ يصفّى ويطبخ، فذلك التلبينة، وهي جيّدة للمريض والصحيح، وسمّيت هذه بالبغيضة لأنّ الناس ولعوا بها حتّى أبغضوها، ولكنّهم مع بغضهم لها يديمون لمرضاهم حسوها، حتّى يبرأ المريض أو يموت.

وسألته عن قول رسول اللّه ﷺ: «لا يهلك الناس حتّى يعذروا عن أنفسهم» ما هذا العذر؟ قال: هو أن تكثر ذنوبهم وعيوبهم فيستوجبوا العقوبة ويكون لمن يعذلهم العذر.

قال محمّد بن واسع لرجل من الأمراء: «أتيتك في حاجة، إنْ قضيتها كنّا جميعاً كريمين، وإن لم تقضها كنّا جميعاً لئيمين، فاختر أيّها شئت».

وقال رجل لنصيب الشاعر: «هرم شعرك يا نصيب»، فقال: «لا واللّه، ما هرم شعري ولكن الكرم هرم».

ومن هذا المعنى قال حبيب الطائيّ في رجل امتدحه فلم يعطه شيئاً فقال:
[الكامل]

لَـمّـا عَـدِمْـتُ نَـوالَـهُ أَعْـدَمْـتُـهُ   شُـكْـرِي فَرُحْـنـا مُـعْـدَمِـيـنَ مَـعـاً

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣٢).

وقد دخل إسماعيل على هشام فلمّا مثل بين يديه قال: «تولّاك اللّه يا أمير المؤمنين بالحسنى وزيّنك بالتقوى وجمع لك خير الآخرة والأولى؛ إنّ لي حوائج، أفسرّها أم أجملها؟» قال: «فسرّها» قال: «كبر سنّي وكثر دَيْني وهزل عيالي فإنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يصلني بصلة يجبر بها كسري وينفي بها فقري ويقضي بها دَيْني فعل» فقال: «وكم صلتك؟» قال: «ألف دينار وألف دينار وألف دينار». قال هشام: «هيهات هيهات رمتَ مراماً صعباً» ثمّ أطرق مليّاً ثمّ رفع رأسه فقال: «هيْه». فقال إسماعيل: «وما هيه؟ إنّ الأب لواحد والأمّ لواحدة والخليقة واحدة ولكن آثرك اللّه بهذا المجلس الّذي إنْ أحسنت فيه كان لك وإن أسأت كان عليك فإنْ تعطيني فبحقّي أعطيت وقد جعل اللّه العطاء محبّةً والمنع بغضةً وأيم اللّه لأنْ تعطيني فأحبّك أحبّ إليّ من أنْ تمنعني فأبغضك». قال له هشام: «فألفٌ لماذا؟». قال: «أقضي بها دَيْناً قد أثقلني حمله وأضرّ بي ثقله». قال: «وألفٌ لماذا؟» قال: «أبتاع بها أرضاً أعول بفضلها ولدي، وتكون لهم خلفاً من بعدي»، قال: «وألفٌ لماذا؟» قال: «أزوج بها من بلغ من ولدي». قال: «نعم المسلك أسلكتها، أعففت فرجاً وأغضضت طرفاً ورجوت نسلاً، قد أمرنا لك بما سألت». قال: «يا أمير المؤمنين، المحمود على ذلك والمشكور اللّه، وقد حبّبك اللّه إليّ بما فعلت». ثمّ ولّى. قال هشام: «ما سمعت كلاماً أوجز من كلام هذا ولا أحسن منه».

وكان العبّاس بن عبد المطّلب يطعم كلّ يوم جزوراً، فقال له قيّمه: «يكفينا في كلّ يوم جزور(١)» فقال له العبّاس: «إنّ اللّه عزّ وجلّ، قد عوّدنا عادةً، فإنْ نزعنا نُزعت عنّا، وكلّ غنيّ لا يطعم فهو كشاة لا تحلب، وكلّ أمير لا يهب، فهو كفرس جموح لا يركب».

وقال زهير يمدح هرم بن سنان: [الطويل]

إِذَا مَا أَتَـوا بَـوَّابَـةَ قَـالَ مَـرْحَـبـا   لِجُوا البَابَ حَتّى يَأْتِيَ الجُوعَ قَاتِلُهُ

باب آداب الحكماء وخفيّات نوادر العلماء

هناء الرجل بعد اللّه بماله يعيش هو وعياله وأقاربه وإخوانه فإنْ أسرفت في إنفاقه وتبذّره حمدك الناس على إنفاقه وإنْ حبسته وحرسته لغيرك ولم ير من أثره عليك ولا على غيرك لم يأجرك اللّه على حبسه ولم يحمدك الناس على منعه.

ومن هذا قول الحكيم لأخيه، وكان بخيلاً غنيّاً: «يا أخي إنّ مالك إنْ لم يكن لك كنت له فلا تبقي عليه فإنّه لا يبقي عليك وكُله قبل أن يأكلك».

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها نصف جزور أو كل يومين جزور.

قال كسرى لمؤدّبه: «أي شيء خير للرجل؟». قال: «عقل يولد به». قال: «فإن لم يكن؟». قال: «فعلم يرفعه». قال: «فإن لم يكن؟». قال: «فمال يستره». قال: «فإن لم يكن؟». قال: «فصاعقة تحرقه».

قال: فمن الواجب على صاحب المال أن يجود به أحياناً ويمنعه أحياناً، وربّما منع الرجل القليل وجاد بالكثير، احتقاراً للمال مرّة واستظهاراً به أخرى، ولو أعطى الناس المساكين أبداً للحقوا بهم، ولولا أنّ المساكين يكذبون ما أفلح من وذهم، فالعطيّة مرّة بعد مرّة كمفتاح القفل لم يعمل لكي يفتح به القفل، ولا يغلق، ولا لكي يغلق ولا يفتح، ولكن عمل المفتاح ليغلق القفل في حينه ويفتح في حينه.

واعلم أنّ المال يأتي على أسباب مختلفة، فربّما أتى الحسيب من ناحية حسبه، والعالم من ناحية علمه، وصاحب الدين من ناحية دينه، وأصحاب التجارات والصناعات من ناحية ذلك، وقد يتعذّر اليوم على هؤلاء كلّهم، وكلّ من يستعين على الدنيا كالذي يطفىء النار بالتبن.

قال: ومررت براهب يبكي في صومعته فقلت له: «ما يبكيك؟». قال: «أبكاني والله خير عرفته فصرت في طلبه وجزت عن سبيله، وشرّ عرفته فأتيته، ذهبت لذّته وبقيت تبعته، يوم مضى أورثني غمرته وحسرته نقص به أجلي ولم ينقص أملي».

قال الشاعر: [السريع]

وَالذَّنْبُ لَا تُعْذَرُ فِيهِ وَإِنْ ... كَانَ عَنْكَ العُذْرُ مَحْمُولَا

وقال الأحنف: كم بين رجلين؛ رجل لا تبعد فوائده وإن غاب، وآخر لا يسلم منه جليسه وإن احترس منه.

قال الشّاعر: [الرمل]

كَذَبَ الزَّاعِمُ أَنَّ النْـ ... ـنَفْعَ وَالضَّرَّ إِلَيْهِ
ذَا وَهَذَا بِيَدِ اللّـ ... ـهِ وَلَيْسَا فِي يَدَيْهِ
فَإِذَا مَا رَابَنِي أَمْـ ... ـرٌ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ
وَرَجَوْتُ الرُّحْمَ وَالرَّأْ ... فَةَ وَالمَنَّ لَدَيْهِ

وقال: عمى القلب عن الله أشدّ من عمى العين عن الدنيا، والخير لا يدرك إلّا بمرارة وبلاء، فمرارته الصبر والاحتمال لما تكره النفس، والشرّ لا يدرك إلّا بمرارة وبلاء، فمرارته وبلاءه الفضائح والضرب والسجن وفي الآخرة العذاب

الأليم، فعليك بالتقوى، وإنْ أوصل مرّ البلاء، فمرّ الخير يزيد في الخير ومرّ الشرّ يزيد في الشرّ ومرّ الخير عاقبته إلى خير ومرّ الشرّ عاقبته إلى الهوان والعذاب. واعلم بأنّ النفوس في أبدانها تحيا، وتموت؛ ولها نشاط وإقبال وفترة وإدبار، فاعمل عند نشاطها عمل من يغتنم ذلك في وقتها وحينها، فإذا ونت وفترت وأدبرت وسهت وغفلت فاستعن على ما فرضه اللّه عليك، ولا تغالب اللّه فيغلبك، فإنّ لك في الحقّ سعة وفي العافية دعة.

قال عيسى بن عمر: سمعت الحسن يقول: «اقرعوا هذه النفوس فإنّها طلعة، واعصوها فيما ينبغي فإنّكم إنْ اطعتموها نزعت بكم إلى الشرّ غاية، فإذا عميت وماتت فأحيوها بالذكر فإنّها سريعة الرجوع، واعلموا أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة».

قال عيسى: فحدّثت بها أبا عمرو فعجب وأنا أقول إنْ كان عجب من هذا الحديث وحقّ له وفي زماننا هذا من لا يتعجّب من شيء.

ولذلك ما قال حكيم من الحكماء: «لا يزال الناس بخير ما تعجّبوا من العجب».

وقال بكر بن عبد اللّه: «صرنا نتعجّب من دهر لا يتعجّب أهل أهله فيه من العجب، وكلّ من لا يستحسن الحسن لا يستقبح القبيح، وإذا كان الحبّ للشيء يعمي عن المساوئ فإنّ بغضك الشيء يعميك عن المحاسن».

وكان مطرّف بن الشخير يقول: عقول الناس على قدر زمانهم، لأنّهم بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، واعلم أنّ الخير يحرص أن يكون كلّ أحد من أهله، وليس يدركه إلّا من عمل به، ولا يسبّبه اللّه ويعطيه إلّا لمن يسأله إيّاه ويرغب إليه فيه، ولا تجد الخير أبداً إلّا عند من يطلبه ويريده، وكيف تجده عند من يهرب منه.

وقيل لرجل حكيم جزع عند الموت فقال: مه، واللّه ما أحبّ أنّي لا أموت، وهل أرجو الخير كلّه إلّا بعد الموت، واللّه ما رضي اللّه البقاء إلّا لأهون الخلق عليه إبليس الّذي أنظره إلى يوم يبعثون.

قال: وأمر بعض الخلفاء بقتل رجل، فاستأذن في ركعتين فأذن له، فأطرق ملياً فقيل له: «أتجزع؟». فقال: «إنْ أجزع فقد أرى سيفاً مشهوراً وكفناً مستوراً وقبراً محفوراً».

قال: وأمر الحجّاج بضرب أعناق أسرى، فقدّم إليه في آخر القوم رجل لتضرب عنقه فقال: «واللّه، إنْ كنّا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العقوبة». فقال الحجّاج: «أف لهذه الجيف أما كان فيهم أحد يحسن هذه المقالة». ثمّ أمسك عن القتل.

قال: وقدّم إلى عبد الملك بن مروان رحمه اللّه رجل من الخوارج لتضرب عنقه، فدخل على عبد الملك ابن له صغير قد ضربه المعلّم وهو يبكي، فهمّ عبد الملك في المعلّم فقال الخارجيّ، والسيف يلوح حاذّاً: «دعوه يبكي فإنّه أقبح لجرمه، وأصلح لبصره». فقال عبد الملك: «ما شغلك ما أنت فيه عن هذا؟». فقال: «ما ينبغي للمسلم أن يشغله عن الحقّ شيء». فأمر بإطلاقه وخلّى سبيله.

باب الرغبة في جمع المال

قال حكيم من الحكماء: الرغبة في جمع المال وطلب التنعّم فيه أذهل القلوب حتّى قست، وأغشى الأبصار حتّى عميت، فلا تجد عاملاً في ماله بخير، ولا متّعظاً فيه بما عيّن، ولولا مخافة مسألة اللئام ما أحبّ العقلاء المال، لأنّ الدنيا لا يدرك نعيمها ولا ثوابها إلّا بالمال، ولا يقوم المال إلّا بالحفظ له والحياطة عليه والقصد في إنفاقه والشفقة على تبذيره، إذ كان مقام الأرواح في الأجساد، فأصلحوا أموالكم يشرف جاهلكم ويعظكم قدركم.

وقال ابن عليّة لأزراق صديقه وعاب عليه الفقر لكثرة النفقة: [السّريع]

قُلْتُ لِأَزْرَاقَ وَعَاتَبْتُهُ فِي كَثْرَةِ الإِنْفَاقِ خَوْفَ المَلَقْ
فَقَالَ لِي فِي مَثَلٍ ضَاحِكاً لَيْسَ عَلَى القِطْ يَخَافُ الزَّلَقْ

قال: ومن ورّث أولاده مالاً فلم يعانوا عليه بعقل أصيل كان المال بليّة عليهم، والعلم والأدب من ورّثه أولاده انتفعوا بهما بما بقوا ومن تناسل منهم بعدهم.

وقال: أكثر النفوس مجبولة على أخذ ما أعطيت ومنع ما سئلت، فالنفوس أبداً تسمح في العناية على قدر الحاجة وتطلب على قدر الطمع وتطمع على قدر السبب، فحبّب لنفسك الجود وزيّن لها الإحسان ورغّبها في التوسّع ولا تحيّدها بفقر ولا بطول عمر، فيهنيك عيشك ويقلّ شغلك وهمّك.

قال الشاعر: [الرجز]

أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ تَفَكُّرُ مَا كُلُّ عَيْنٍ مَا تَرَى تُبْصِرُ

وقال آخر: [الرجز]

وكُلُّ نَفْسٍ فَلَهَا تَعَلُّلُ وَإِنَّمَا النَّفْسُ عَلَى مَا تَحْمِلُ

وحدّثنا عن سفيان عن مسعود عن حبيب أنّه قال: اعمل ثمّ دع العمل حتّى

تحبّه، فقليل تدوم عليه خير من كثير تعجز عنه ويثقل عليك.

وقال سفيان: إنّ الحقّ ليثقل، وإنّ ابن آدم ضعيف، فاعمل واذكر ساعة بعد ساعة.

وقال: أحزم الناس رجلان، رجل أعطاه اللّه في الدنيا مالاً وشرفاً وذكراً، فطلب مع هذا شرف الآخرة وطيبها ليخرج من سعة إلى سعة، وآخر قتّر اللّه عليه رزقه فصبر وشكر، ليخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

اختلاف الناس في غناهم وفقرهم ودينهم وجسومهم وإخائهم وعيشهم وطبائعهم

قال حكيم الحكماء وفيلسوف العلماء وفصيح الفصحاء: الناس ثلاثةُ أصناف في كسبهم وثلاثة أصناف في إخائهم وثلاثة أصناف في عيشهم وثلاثة أصناف في طبائعهم. فأمّا الأصناف الثلاثة في الكسب فأغنياء وفقراء وأوساط، فالفقراء أموات إلّا من أحياه اللّه بعزّ القنوع.

فلذلك قال الشاعر فأجاد: [الخفيف]

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاء

ففي الفقراء الشرّ والأذى والسخف والخنا والسلب والسرقة والقطع والخيانة، وفي الأغنياء الزهو والكبر والبطر والطغيان والفساد.

قال اللّه عزّ وجلّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] فسكر طغيان المال مضارع لسكر طغيان الشراب إلّا من عصم اللّه.

قال: وفي أوساط الناس السلامة، إلّا من خذله اللّه، فأوسط الناس أخذوا من ذلّ الفقر بنصيب ومن عزّ الغنى بنصيب، فداووا كبر الغنى بذلّ الفقر وذلّة الفقر بعزّ الغنى؛ فلا ينبغي لفقير أنْ يغتاظ على غنيّ لأنّه لا قوّة له فيه، ولذلك قال الشاعر: [الوافر]

جَفَوْتَ مَوَدَّتِي وَنَظَرْتَ شَزْرا كَمَا نَظَرَ العَدِيمُ إِلَى الغَنِيِّ

وقال سحنون بن سعيد: إنّي لأسأل اللّه العافية من الغنى، كما أسأله العافية من البلاء، وأنا أسأل اللّه العافية من الفقر، كما أسأله العافية من الشرّ؛ لقول رسول اللّه ﷺ: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الكفر والفقر». قيل: «أويعتدلان يا رسول اللّه؟». قال: «نعم، يعتدلان». قال: فالكفر مضرّة بالدين وربّما ربح

دنياه، والفقر مضرّة بالدين والدنيا إلّا من عصم اللّه، ولذلك قال النبيّ ﷺ: «أشقى الناس كلّهم الّذي خسر الدنيا والآخرة».

قال: والغني ألف دينار فصاعداً لقول اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: ١٢] قالوا: والمال الممدود ألف دينار لأنّه أقصى غاية الحساب، إذا حسب فبلغ حسابه ألف دينار رجع يبتدئ الحساب من أوّله.

قال: وأوسط الغنى من مائة إلى خمسمائة، والفقر من الدينار إلى مائة دينار، ألا تراهم في الفقه قد جوّزوا أنْ يعطى من الزكاة صاحب الدار والخادم إذا لم يكن له غير ذلك؟ وثمن الدار مقارب لمائة دينار.

قال: ويسمّى الفقير مسكيناً ولكن الفقير أغنى من المسكين، لأنّ الفقير الّذي له علقة وسلعة ومعاش، والمسكين الّذي لا سلعة له ولا معاش. وذكر يونس أنّه قال لأعرابيّ: «أفقير أنت؟». قال: «لا، بل مسكين».

قال الشاعر في الغنيّ والفقير: [البسيط]

يَسْتَحْسِنُ النَّاسُ مَا قَالَ الغَنِيُّ وَلَا ... يَسْتَقْبِحُونَ لَهُ قولاً وَإِنْ قَبُحَا
وَيَزْدَرِي النَّاسُ مَنْ أَمْسَى أَخَا عَدَمٍ ... مِنْهُم وَإِنْ كَانَ مَنْ يُوزَنْ بِهِم رَجَحا

وقال آخر فيهما جميعاً: [الكامل]

مَنْ صَارَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَكَلَّمَتْ ... شَفَتَاهُ أَنْوَاعَ الْكَلامِ فَقَالَا
وَتَقَدَّمَ الإِخْوَانُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ ... وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ المَلَا مُخْتَالَا
لَوْلَا دَراهِمُهُ وَكَثْرَةُ مَالِهِ ... لَرَأَيْتَهُ أَسْوَا الْبَرِيَّةِ حَالَا
إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا ... تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالَا
فَهِيَ الْغِنَى وَهِيَ الشِّفَا وَهِيَ الْحَيَا ... وَهِيَ السِّلَاحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالَا

وقال شاعر ظريف يدعو ربّه أن لا يوسّع على خليله مخافة أن يطغى فيزدريه: [الرمل]

رَبِّ لَا تُغْنِ بِوَسْعِ الرِّزْ ... قِ إِلْفِي وَخَلِيلِي
وَاغْذُهُ مَا عَاشَ بِالْقُو ... تِ وَبِالرِّزْقِ الْقَلِيلِ
خَوْفاً أَنْ يُبْلِغَهُ الْـ ... ـمَالُ إِلَى طَبْعِ المَلُولِ
أَوْ يَرَانِي بَعْدَ إِجْلَا ... لٍ بِعَيْنِ الْمُسْتَطِيلِ
أَوْ يَغُضَّ الطَّرْفَ دُو ... نِي بِالْجَفْنِ الثَّقِيلِ

أَوْ يُسخـلـيـنـي وَرَاءَ الْـبَـا ... بِ كَـالْـعَـبْـدِ الـذَّلِـيـلِ
فَـإِذَا اسْـتَـأْذَنْـتُ قَـالُـوا ... جِـئْـتَ فِـي وَقْـتِ الـمَـقِـيـلِ
وَادَّخِـرِ الْـبَـاقِـي لَـهُ عِـنْـ ... ـدَكَ لِـلْـيَـوْمِ الْـجَـلِـيـلِ

التوسّط في الأمور من الغنى والفقر والغلوّ والقصد

قال أكثم بن صيفي: الانقباض من الناس مكسبة للعداوة وكثرة الإخوان مكسبة لقرباء السوء والنجاة في التوسّط.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه: خير الناس هذا النمط الأوسط؛ بهم يلحق التالي وإليهم يرجع الغالي، فالغالي المجاوز في العبادة والتالي المقصّر.

معناه أنّ المجتهد جداً إذا ملّ رجع إلى هذا المتوسّط والمقصّر إذا اجتهد لحق بالمتوسّط وكذلك المتزيّن بأكثر ممّا عنده ليتكثر بذلك ويتزيّن به عند الناس كلابس ثوبي زور لأنّه يلبس ثياب أهل الزور ويظهر من التخشّع والتقشّف أكثر ممّا في قلبه، فهذه ثياب الزور.

قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦] فجعل التقوى خيراً من لباس الثياب العتاق وقد يكون الرجل كاسياً وهو كالعاري إذا كانت ثيابه ثياب دنيا لا ثياب آخرة، فصاحب التقوى كاس وإنْ كان عارياً من جيد الثياب وصاحب الثياب الشريفة بغير تقوى عريان. ومنه قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧] فقليل الزاد مع التقوى خير من كثيره مع الفجور.

ومنه قول مطرّف بن الشخير: الحسنة بين السيّئتين، وخير الأمور أوساطها، وشرّ السير الحقحقة؛ وهو السير الّذي لا بعده سير.

واعلمْ أنّ السرف في المطعم لا بقاء معه لكثير ولا تثمير معه لقليل، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين، وتأديب اللّه فيه ما أدّب به نبيّه ﷺ، فقال عزّ وجلّ مؤدباً له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] نهى عن السرف والتبذير فلذلك قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال الشاعر: [السّريع]

مَـنْ سَـابَـقَ الـدَّهْـرَ كَـبَـا كَـبْـوَةً ... لـم يَـسْـتَـقِـلْـهـا مِـن خُـطـا الـدَّهْـرِ
فـاخـطُ مـع الـدّهـر عـلـى مـا خَـطـا ... وَاجْـرِ مـع الـدّهْـرِ كَـمَـا يَـجْـرِي

وأصف لك خيراً جامعاً تعرف به من يصير إلى الفقر بسوء التدبير، ومن يبقى له ماله ولا يفتضح؛ إذا رأيت الرجل يتوسّع إذا أفاد مالاً ويقتصد إذا حرم ذلك فهذا الّذي يبقى ماله ويتوفّر سيبه وإذا رأيت الرجل يتوسّع دهره كانت له فائدة أو لم تكن ولم يشفق لحرمان الرزق إذا تعذر فأيقن بأنّ عاقبة هذا إلى الفقر والحاجة إلى الناس.

قال الشاعر: [الطويل]

أُنافِسُ فِي طيبِ الطَّعامِ وكلُّه ... سواءٌ إذا ما جاوزَ اللَّهَواتِ

ما جاء في القصير والطويل والربعة من الرجال

قال حكيم الحكماء: الطويل لا يخلو من غفلة، ولا القصير من أعجوبة، وفي أوسط الناس السلامة، فالحيلة والمكر والشجاعة في القصير أوجد منها في الطويل.

ومنه قول كثيّر: [الوافر]

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ ... وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ إِذَا تَرَاهُ ... فَيُخْلِفُ ظَنَّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
بُغَاثُ الطَّيْرِ أَطْوَلُهَا رِقَاباً ... وَلَمْ يَطُلِ البُزَاةُ وَلَا الصُّقُورُ
خَشَاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِراخاً ... وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورُ
ضِعَافُ الأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَئِيراً ... وَأَصْرَمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
وَقَدْ عَظُمَ البَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ ... فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِالعِظَمِ البَعِيرُ
يُنَوَّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالهَرَاوَى ... فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا نَكِيرُ
يُنَوِّخُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ ... وَيَنْحَرُهُ عَلَى التُّرْبِ الصَّغِيرُ
فَمَا عِظَمُ الرِّجَالِ لَهُمْ بِزَيْنٍ ... وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ

هذا البيت الّذي يقول فيه: «خشاش الطير أكثرها فراخاً» فيه ذمّ من كثر ولا تكاد تجد كثرة الأولاد في فقير مقلّ وسوّال مترف.

وأسر الناموس امرأ القيس بن النعمان، وكان امرؤ القيس رجلاً طويلاً جسيماً، والناموس الّذي أسره ذميماً قصيراً، فنظرت إليه ابنة امرئ القيس فقالت: «أهذا الّذي أسر أبي؟». فبلغ الناموس قولها فأنشأ يقول: [الطويل]

أَلَا زَعَمَتْ بِنْتُ امْرِئِ القَيْسِ أَنَّنِي ... قَصِيرٌ وَقَدْ أَعْيَى أَبَاهَا قَصِيرُهَا

وَرُبَّ طَوِيلٍ قَدْ نَزَعْتُ ثِيَابَهُ وَعَانَقْتُهُ وَالخَيْلُ تَدْمَى نُحُورُها
وَقَدْ عَلِمَتْ بِنْتُ امْرِئِ القَيْسِ أَنَّنِي أَكِرُّ إِذَا مَا الحَرْبُ شَبَّ سَعِيرُها
وَلَوْ شَهِدَتْنِي يَوْمَ أَلْقَيْتُ كَلْكَلِي عَلَى شَيْخِهَا مَا اشْتَدَّ مِنِّي نَكِيرُها

تمّ الكتاب بحمد الله وحسن عونه

وصلّى الله على محمّد نبيه وعبده

فهرس المحتويات